الجزء الرابع المجلد الخامس والثمانون

مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلّة المجمع العلمي العربي سابقًا »

مجلة محكَّمة فصلية

ذو القعدة ١٤٣١هـ
تشرين الأول ٢٠١٠م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

((مجلة المجمع العلمي العربي سابقًا))

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١م

المدير المسؤول: الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

رئيس التحرير: الأستاذ الدكتور محمود السيد، نائب رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمد إحسان النص — الدكتور عبد الله واثق شهيد

الدكتور مكي الحسني الجزائري — الدكتورة ليلى الصباغ

الدكتور مازن المبارك — الدكتور ممدوح خسارة

الدكتور عيسى العاكوب — الدكتور محمد محفل

الدكتور عبد الإله نبهان — الدكتور أحمد قدور

أمين المجلة: الدكتور محمود الحسن

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية، وأبرزها: المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والتقنية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

خطة المجلة وشروط النشر فيها:

- أن يُرفق الكاتب بحثَه بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني، مع تعهد بأن البحث غير مستل من أطروحة جامعية، وغير منشور من قبل، ولم يُرسَل إلى جهة أخرى.
- ألا يقلَّ البحث عن عشر صفحات وألاَّ يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة، وعدد الكلمات في الصفحة الواحدة لا يزيد عن (٢٥٠)كلمة. أما المقالات فيُقبَل منها ما يقلّ عن عشر صفحات.
- أن يخلو البحث من أي إساءة إلى الكتّاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.
- أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة، وأن تشفع بقرص حاسوبي ليزري مسجلة عليه، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.
- أن يلتزم الباحث المنهجَ العلميَّ في كتابة المراجع وأسماء المؤلّفين في متن البحث وحواشيه.
- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد إليها بعد أن تخضع للتقويم السّرّي.
- ترتَّب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.
- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردّ إلى أصحابها.
- تُعطى الحواشي أرقامًا متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته. وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها.
- توضع الكلمات العربية (أو المعربة) قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو: تِقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).
- من الضروري أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، إلخ....
- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان:

العنوان البريدي: دمشق ص.ب ٣٢٧

البريد الإلكتروني: E- mail: mla@net. Sy

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشابكة (الإنترنت): www.arabacademy.gov.sy

فهرس الجزء الرابع
من المجلد الخامس والثمانين

البحوث والدراسات

العربية والعولمة اللغوية	د. محمود السيد	٩٤٧
تعليم النحو	د. مازن المبارك	٩٦٣
بين اللسانيات وعلوم اللغة	د. أحمد قدور	٩٧٧
الأفعال الرباعية نشوؤُها واستعمالها	د. ظافر يوسف	٩٩٥
«عرار» الناقد الشاعر	د. جمال محمد مقابلة	١٠١١
الأصوات المفردة عند- سيبويه	د. إبراهيم محمد البب	١٠٣٣
المَلَكة اللسانية عند ابن خلدون	د. عبد البديع النيرباني	١٠٥٥
أثرُ الإقصاء المشرقيّ للأدب الأندلسيّ	د. أسامة اختيار	١٠٧٧
الجملة الحالية في مباحث البلاغيين	د. عبد الجليل مصطفاوي	١٠٩٩
حكاية أبي القاسم البغدادي	د. محمد بن تتا	١١١٩

المقالات والآراء

ندوة إشكالية اللغة في المواقع الإلكترونية	د. ممدوح خسارة	١١٣٩
مراجعة في كتاب الوافي بالوفيات	د. محمد رضوان الداية	١١٤٩
مراجعة في الأعلام لخير الدين الزركلي	أ. أحمد العلاونة	١١٦٧

أنباء مجمعية وثقافية

حفل استقبال الأستاذ الدكتور محمد سعيد الصفدي ١١٨٩

- كلمة الدكتور مروان المحاسني ١١٩٠

- كلمة الدكتور عمر شابسيغ ١٢٠٢

- كلمة الدكتور محمد سعيد الصفدي ١٢٠٦

الكتب والمجلات المهداة في الربع الثالث من عام ٢٠١٠ ١٢١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

العربية والعولمة اللغوية

د. محمود السيِّد(*)

نحاول في هذا البحث الموجز أن نتعرف مفهوم العولمة بصورة عامة، والعولمة اللغوية بصورة خاصة، وواقع اللغة العربية في ظل العولمة، وسبل الارتقاء به.

أولاً– مفهوم العولمة

طالما تردَّد على نطاق الساحة العالمية مصطلح «العولمة»، وهو مصطلح مترجم عن الكلمة الإنجليزية «Global» واجتهد المفكرون العرب في ترجمة Globalization بعولمة أو كونية. وغالبًا ما يذكر هذا المصطلح مرتبطًا بمصطلح «القرية الكونية Global village». فما المقصود بالعولمة؟

وهل ثمة فرق بين العولمة والعالمية؟

سأل أحدهم سقراط: من أين أتيت؟ فلم يجبه سقراط من أثينا، بل قال له: من العالم، ذلك لأن صاحب المخيلة الواسعة والغنية يعدُّ العالم مدينته، ويوسع معرفته ومجتمعه وعاطفته لتشمل البشرية كلها.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ومن هنا كان ثمة فرق بين العالمية والعولمة، فالعالمية مصطلح إنساني، وذلك بأن يجسد المرء نزعته الإنسانية واقعًا عمليًا وسلوكًا حيًا في تعامله مع بني البشر كافة، يقف إلى جانبهم في نضالهم نحو الأفضل، ويمد يد العون والمساعدة إليهم أنّى كانوا في منأى عن اللون والجنس والهوية والانتماء.

وهذا ما أكدته حضارتنا العربية الإسلامية، «فقد كانت رسالتها الحضارية عالمية موجهة إلى الناس كافة، تساوى لديها بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، وتمثلت قيمة الإنسان فيها في عمله ونزعته الإنسانية، لا في جاهه ولا في نفوذه ولا في ماله ولا في جنسيته..الخ، فكانت ذات طابع إنساني عالمي تروم خير الإنسان أنّى كان».(١)

وإذا كانت العالمية انفتاحًا على العالم وعلى الثقافات الأخرى، مع الاحتفاظ بخصوصيات تلك الثقافات على النحو الذي صنعته الحضارة العربية الإسلامية في احترام الثقافات الأخرى، والإفادة منها تمثلاً واستيعابًا واختيارًا وإبداعًا بعد ذلك، فإن العولمة في حياتنا المعاصرة تعني «نفي الآخر» وإحلال الاختراق الثقافي محل الصراع العقائدي. وتقوم ثقافة الاختراق على جملة أوهام، هدفها التطبيع مع الهيمنة، وتكريس الاستتباع الحضاري، وإفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى، والدفع بها إلى التشتيت والتفتيت لربط الناس بعالم اللا وطن واللا أمة واللا دولة وإغراقهم في أتون الحرب الأهلية».(٢)

(١) الدكتور محمود أحمد السيد- مقالات في الثقافة- الجزء الأول- منشورات وزارة الثقافة- دمشق ٢٠٠٤ ص١٧٩.

(٢) الكلام للدكتور محمد عابد الجابري ورد في كتاب ما العولمة؟ للدكتور صادق جلال العظم والدكتور حسن حنفي- دار الفكر بدمشق ٢٠٠٢ ص٣٦.

بيدَ أن أنصار العولمة يرون أن لها تأثيراً إيجابيًا كبيراً على الصعيد العالمي، إذ إنها ربطت بين الحضارات والشعوب والبلدان متخطية العامل الجغرافي، وجاعلة من العالم قرية واحدة، ومحررة الإنسان في مختلف أنحاء المعمورة من كثير من القيود بفضل ذيوع الإعلام وانكشاف العالم كله أمام كل إنسان فيه، فبات يطلع على ما يجري في العالم وهو في عقر داره، وباتت الثقافات مكشوفة ومنتشرة ومتفاعلة.

ثم إن العولمة عملت – كما يرى مؤيدوها – على إزالة الحواجز بين المجتمعات، وانفتاح الثقافات بعضها على بعضها الآخر، وتذويب الفروق بين المجتمعات الإنسانية عبر ثورة الاتصالات والمعلوماتية، وإشاعة القيم الإنسانية المشتركة التي يراد لها أن تجمع البشر انطلاقًا من نظرية شاملة شعارها «المصير الواحد للبشرية» و«العالم كله في سفينة واحدة».

وقد يبدو هذا الشعار برّاقًا من حيث إنسانيته، إلا أن المستفيد من العولمة كما أثبتت الوقائع والأحداث على الصعيد العالمي، هو القوي القادر على إملاء مفاهيمه على الآخرين. إنه الغرب، وعلى رأسه أمريكا، الغرب الذي لم يعرف في تاريخه ولا في حاضره إلا العمل لمصلحته وترويج مفاهيمه.

ومن الأشكال الجديدة التي أفرزها الغرب على الصعيد العالمي بقصد هيمنته «العولمة، والعالم ذو القطب الواحد، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وثورة الاتصالات، والعالم قرية واحدة، والقرية الكونية...إلخ».

وكلها مفاهيم غير بريئة تكشف عن سيطرة المركز على الأطراف في تاريخ العلم الحديث. (٣)

(٣) الدكتور صادق جلال العظم والدكتور حسن حنفي– ما العولمة؟ – دار الفكر بدمشق ٢٠٠٢ ص٤٧.

ولا تتجلى العولمة في شكل واحد أو بعد واحد، وإنما لها أبعاد متعددة ووجوه متعددة، فهي عولمة سياسية وعولمة اقتصادية، وعولمة إعلامية، وعولمة علمية وتقانية (تكنولوجية)، وعولمة ثقافية.

والخطر في الأمر كله أنه لا وجه من هذه الوجوه يستقل بنفسه، فلا عولمة ثقافية دون عولمة سياسية واقتصادية تمهد لها السبيل، وتفرضها فرضًا بالترهيب والإجبار تارة، وبالترغيب والتمويه تارة أخرى.

وفي ضوء ذلك كله لابد من النظر إلى العولمة على أنها منظومة من المبادئ السياسية والاقتصادية، ومن المفاهيم الاجتماعية والثقافية، ومن الأنظمة الإعلامية والمعلوماتية، ومن أنماط السلوك ومناهج الحياة، يراد بها إكراه العالم كله على الاندماج فيها وتبنيها والعمل بها، والعيش في إطارها.

وتتباين مواقف الشعوب تجاه العولمة، إذ إن بعضها يدافع عن ذاتيته الثقافية وهويته وأصالته وهو يقف على أرض صلبة، في حين أن بعضها الآخر ليست لديه تلك المناعة القوية، وإذا هو يتخلى عن كثير من خصائصه وألوان ثقافته ليذوب في ثقافة العولمة ذات البعد الثقافي الواحد واللغة الواحدة.

ثانيًا– العولمة اللغوية

لما كانت العولمة ذات أبعاد متعددة، وكان البعد الثقافي واحدًا منها، وكانت اللغة محور البعد الثقافي والمعبر عنه في جانبيه المادي والمعنوي، كانت الأمم والشعوب قد أدركت من قبلُ في عصور التاريخ ضرورة الوحدة اللغوية بين الناس، فكان أن نشأت في كل عصر تاريخي لغة مشتركة اصطنعتها عدة شعوب حينًا من الدهر ثم بادت أو اندثرت، فاللغة الأكادية أو لغة بابل وآشور التي سادت في حوض دجلة والفرات قد انتظمت العالم القديم مدة من الزمن، ثم جاءت بعدها الآرامية والإغريقية واللاتينية ثم

العربية، وأخيراً في العصور الحديثة الفرنسية والإنجليزية. وكل لغة من هذه اللغات حاولت ما وسعتها المحاولة أن تهيمن وتصبح لغة الناس كافة.

بيدَ أن اللغات تتصارع وتتغالب كما تتصارع الشعوب، فيغلب القوي منها الضعيف، وها هي ذي كثير من لغات إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية قد تعرضت للاجتياح أمام قوة اللغات الأوربية الغازية في عصر التوسع الاستعماري، بعد الثورة الصناعية ممثلة في اللغات الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والألمانية بصورة عامة، وفي اللغتين الإنجليزية والفرنسية بصورة خاصة. وأمام هذا الاجتياح سقطت لغات كثيرة قدَّرتها المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» بأكثر من ٣٠٠ لغة، وضعفت أخرى، وتصدعت أركانها، وتتوقع لها مزيداً من الضعف الذي قد يؤدي إلى السقوط، إذا ساعد أبناء هذه اللغات أنفسهم على تحقيق الهدف، وقد وضعت اللغة العربية في مصاف هذه الطائفة الأخيرة، بعد أن قدر لها مدى زمني يتوقع أن يتحقق من خلاله الهدف، أي في حال مساعدة أبناء اللغة أنفسهم على تحقيقه !

وفي عالمنا المعاصر ثمة لغات عالمية تتبوأ مكانة على الصعيد العالمي مثل الإنجليزية والفرنسية والإسبانية واليابانية والصينية والألمانية. ومن سمات اللغة العالمية أنها تؤدي وظائف رسمية في عدد من الدول فتعتمدها في شؤون حياتها، ما عدا اللغة اليابانية التي لا تؤدي وظيفتها إلا داخل الوطن الأم (اليابان)، والألمانية في قارة واحدة (أوربا)، والصينية في قارة واحدة (آسيا).

ومن سمات اللغة العالمية أيضًا انتشارها على مستوى جميع قارات العالم، كما هي عليه حال اللغة الإنجليزية، إذ إنها تحتل المرتبة الأولى بين لغات العالم من حيث انتشارها، فهي اللغة الوحيدة بين جميع اللغات العالمية التي تستخدم لغة رسمية في

قارات العالم كافة، حيث بلغ عدد الدول التي تستخدم اللغة الإنجليزية لغة رسمية /٥٩/ تسعًا وخمسين دولة، وهو أكثر من ضعف عدد الدول التي تستخدم اللغة العالمية الثانية وهي الفرنسية، إذ يبلغ عددها /٢٨/ ثمانيًا وعشرين دولة. (٤)

وتسود الإنجليزية لغة اتصالات دولية في مجال الشابكة «الإنترنت»، إذ إن ٨٠٪ من صفحات المواقع المتوفرة على «الويب» بالإنجليزية، كما تسود في مجالات الإدارة والتسويق، في الوقت الذي تحتل فيه اللغات العالمية الأخرى مراتب تالية للغة الإنجليزية وبفارق كبير، وتسود أيضًا في لغة الدبلوماسية الحديثة وفي داخل المنظمات الدولية...إلخ.

ومن الملاحظ أن اللغة الإنجليزية تهيمن على مفردات اللغات الأصغر والأكبر في الوقت نفسه، وها هي ذي الأمركة تؤثر في أسلوب الحياة، وذلك في أي محيط ثقافي، وهذا ما دعا بعض الدول الكبرى إلى الإحساس بخطر هيمنة اللغة الإنجليزية وتأثير هذه الهيمنة في لغتها الأم.

وفي العقد الأخير تضاعف انتشار اللغة الإنجليزية على الصعيد العالمي مع الهيمنة الاقتصادية والإعلامية الأمريكية، وبسبب تزايد استخدام الشابكة «الإنترنت»، وأدى ذلك إلى اتساع نطاق استخدام كلمات وعبارات إنجليزية تعبر عن الثقافة الأمريكية والقيم الاستهلاكية التي قد لا تتناسب هي وقيم بعض الأمم التي تعد نفسها عريقة مثل الألمان والصينيين والفرنسيين.

ويعتز الألمان بلغتهم أيما اعتزاز، وقد اتسعت في ألمانيا دائرة المناداة بوضع قوانين لحماية اللغة الألمانية من تأثير اللغات الأخرى وعلى رأسها الإنجليزية، إذ يعتقد بعض

(٤) هارالدهارسان- تاريخ اللغات ومستقبلها (عالم بابلي)- ترجمة سامي شمعون ومراجعة محمد حرب فرزات- المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث- الدوحة ٢٠٠٦ ص١٦٨.

اللغويين الألمان أن المصطلحات الإنجليزية بدأت تشكل خطرًا على سلامة لغتهم الألمانية وصفائها.

وفي الصين ثمة قلق من انتشار اللغة الإنجليزية في بلادهم من خلال الأفلام الأمريكية، التي يحرص الشباب على متابعتها والتأثر بها، وهذا ما دفع الحكومة الصينية إلى إصدار أول قانون للغة بغية الوقوف أمام الخطر الذي يتهدد اللغة الصينية. ويلزم القانون الذي بدأ العمل به اعتبارًا من مطلع شهر كانون الثاني (يناير) عام ٢٠٠١ وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة بضرورة التزام الأسس المتعارفة باللغة الصينية المعتمدة على الكتابة المبسطة في الصين، بعيدًا عن الكتابة المعقدة المتبعة في المستعمرة البريطانية السابقة «هونغ كونغ».(٥)

وفي فرنسا ثمة دعوة إلى إقامة تحالف بين الدول التي تعتمد لغات من أصل لاتيني، للتصدي على نحوٍ أفضل لهيمنة اللغة الإنجليزية، ودافعت فرنسا في المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) عن مبدأ التعددية اللغوية في المجتمع الدولي وحق التعددية الثقافية.

وإذا كان هذا يحدث في دول متقدمة كفرنسا وألمانيا والصين فما حال العرب تجاه لغتهم العربية؟

ثالثًا– العربية والعولمة

(٥) هيثم بن جواد الحداد– العولمة اللغوية – البيان – ملف العولمة مقاومة وتفاعل.
www.albayan.magazine.com/Filles/global/04.t/zm

من يلق نظرة على واقع اللغة العربية في الوطن العربي، يجد أن موضوع التعريب ما يزال قائمًا لم يحسم بعد في معظم الدول العربية، مع أن رجالات النهضة العربية قد دعوا إلى سيادة اللغة العربية على ساحة الوطن العربي في جميع مجالات الحياة منذ النصف الأول من القرن الماضي، وكانت سورية سباقة إلى إنفاذ ذلك التوجه منذ عام ١٩١٩م، وها نحن أولاء نجد – ونحن في العقد الأول من الألفية الثالثة- تلكؤًا في إصدار القرار السياسي الملزم للتعريب في معظم الدول العربية، كما نجد غيابًا للتخطيط اللغوي مادامت السياسة اللغوية غائبة، ونلاحظ في الوقت نفسه أن ثمة تأخرًا في وضع مصطلحات عالم التقانة والمعلوماتية وفي بقية الميادين العلمية الأخرى، وهذا الأمر أدَّى إلى شيوع المصطلح الأجنبي، حتى إذا وضع البديل العربي كان ثمة عزوف عنه واستمرار في استخدام المصطلح الأجنبي. ومن الملاحظ أيضًا تشتت الجهود وعدم التنسيق بين العاملين في ميدان التخصص نفسه.

وإذا كانت العولمة تحاول ابتعاث كل القيم السلبية التي تفتت بنية المجتمع، ووأد كل القيم الإيجابية التي تعمل على تقدم المجتمع وارتقائه، وكانت اللغة العربية توحد بين أبناء الأمة الواحدة، وفي وحدة العرب قوة لهم، عمل مهندسو العولمة على تفتيت هذا الرابط الموحد وتهميشه واستبعاده، وذلك باعتماد العامية من جهة لأنها عامل تفريق، ووصم العربية بالتخلف وعدم مواكبة روح العصر، عصر العلم والتقانة (التكنولوجيا)، وأن الحل يكمن في اعتماد اللغة الإنجليزية من جهة أخرى لغة للتعليم في المدارس الخاصة وفي المعاهد والجامعات وفي مواد العلوم الإنسانية في هذه الجامعات.

ومن الملاحظ مزاحمة اللغة الأجنبية (الإنجليزية في دول الخليج، والفرنسية في دول المغرب العربي) للغة العربية في العملية التعليمية التعلمية، إذ يعد التمكن من اللغة

الإنجليزية أساسًا للقبول والتدريس والتخاطب الرسمي والنشاطات البحثية في معظم الأقسام العلمية في الجامعات الخليجية، وازدادت المواقف السلبية تجاه اللغة العربية في أوساط المتعلمين في مراحل تعليمهم في التعليم الأساسي والثانوي، حتى إنهم استهانوا بدروس العربية وموادها، وغدا ثمة فتور في الإقبال عليها، بحجة أنها من غير المواد الأساسية مقارنة بدروس اللغة الإنجليزية والمواد العلمية التي تدرس بها، والتي يبشر التفوق فيها بمستقبل واعد وأحلام جميلة، لأنه يَعِدُ بالقبول في التخصصات الجامعية التي تهيئ الدارس لمناصب وظيفية عالية وعوائد مالية مغرية. وهذا المظهر يلاحظ أيضًا في دول المغرب العربي، إذ غرس في أذهان المتعلمين أن إتقانهم للغة الأجنبية يهيئ لهم مستقبلاً مشرقًا إنْ في إكمال دراستهم الجامعية أو في تسلم وظائف ذات عوائد مالية، وهذا ما كوّن دافعًا لديهم إلى الإقبال على اللغات الأجنبية وإهمال لغتهم القومية بعد «أن تبدت نظرة فوقية من الفرانكفونيين إلى المؤهلين بالعربية ووصمهم بالتخلف والرجعية، فغدا هؤلاء المعربون بعيدين عن الوظائف التي يمسك بزمامها أصحاب الفرانكفونية في أعلى هيئات الدولة والمؤسسات التربوية وغيرها».(٦)

ومن منعكسات العولمة والترويج لثقافتها القطبية الواحدة ولغتها الإنجليزية، ما نلاحظه على الأرض العربية من مدارس وجامعات أجنبية تتبع في مناهجها إلى جهات من خارج الوطن العربي، إذ لا علاقة لهذه المناهج بثقافة المجتمع العربي وتاريخه وحضارته.

(٦) الدكتور عمار الطالبي– وضع اللسان العربي في الجزائر– مجلة الحياة الفكرية– وزارة الثقافة السورية– العدد الثاني ٢٠٠٩ ص٩٨.

وهذه المدارس والجامعات تجذب أفضل التلاميذ والطلبة إليها من أبناء الطبقة الاجتماعية العليا والوسطى، وهؤلاء يعيشون غرباء في وطنهم الأم لأنهم لا يستطيعون التفاعل معه عبر الكلمة المقروءة والمسموعة في أجواء تلك المدارس والجامعات.(٧)

وإذا كان الاستعمار من قبلُ بمختلف ضروبه قد حارب اللغة العربية إن في دول المغرب العربي أو في بلاد الشام على يد الاستعمار الفرنسي أو في مصر وفلسطين والعراق على يد الاستعمار البريطاني فإن حرب اللغات في ظل العولمة ما تزال مستمرةً في بلادنا العربية، وما عجز الاستعمار عن تحقيقه من قبلُ في إبعاد العربية وتهميشها نقوم نحن – أبناء العربية– بإنفاذه بأيدينا عندما نستعمل اللغة الإنجليزية في التعليم في جامعاتنا وفي المدارس الخاصة ونبعد العربية، وعندما تستقطب المدارس الخاصة والجامعات الخاصة أبناء الطبقات العليا والمتوسطة، وعندما يفسح في المجال للخريجين فيها بالتوظيف، ويحال دون الخريجين المؤهلين بالعربية.

وها نحن أولاء بعملنا هذا نكون عوناً لمهندسي العولمة في إنفاذ مشروعهم الرامي إلى فرض لغة العولمة في العملية التعليمية التعلمية مكان اللغة القومية.

وإذا انتقلنا إلى ميدان الإعلام فإننا نلاحظ أن العولمة تعزز استعمال العامية واللهجات المحلية، فإذا البرامج والمسلسلات المؤلفة والمدبلجة والمنوعات تبث بالعامية، وهذه البرامج تنخر في الجسد العربي وتفصل بين أعضائه بتعزيزها تلك اللهجات المحلية المغرقة في عاميتها.

ولم يقتصر استعمال العامية على مسلسلات الدراما المؤلفة أو المدبلجة، وإنما امتد إلى الحوارات واللقاءات الثقافية والبرامج الدينية، إذ «تشير الإحصاءات إلى وجود ما لا

(٧) الدكتور يوسف القرضاوي– اللغة العربية في دولة قطر بين العناية والشكوى– مجلة الحياة الفكرية– العدد الثاني– وزارة الثقافة السورية– دمشق ٢٠٠٩ ص١٢٦.

يقل عن ستين قناة تلفزية دينية تسبح في الفضاء العربي تقدم في أحيان كثيرة خطاباً دينياً واعظاً يعتمد العامية بحجة التبسيط والتسهيل والوصول إلى مختلف المستويات كما يزعم أصحابه».[٨]

وثمة ظاهرة انتشرت بين الشباب العربي وهي استخدام الحروف اللاتينية على أنها بديل للحروف العربية في كتابة رسائل الهاتف المحمول، وتسهم القنوات الفضائية العربية أيضاً ولاسيما الغنائية منها في نشر هذه الظاهرة، فهي تعمل على إحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي في الكتابة العربية، ويظهر ذلك في الرسائل التي يبعث بها المشاهدون الشباب بعضهم إلى بعضهم الآخر عبر شريط الرسائل التابع للقناة.

وفي ظل هذه الأجواء يمكننا أن نتصور بعد مدة وجود جيل لا يجيد القراءة والكتابة بالعربية إلا باستعمال الحروف اللاتينية، ليحقق بذلك بوعي منه أو بلا وعي ما حاول الاستعمار أن يقوم به على مدار سنوات الاحتلال لأرجاء من الوطن العربي وأخفق، وكأن القنوات الغنائية العربية وعددها يزيد على الستين أصبحت أكثر قدرة على محاربة الفصيحة من الاستعمار.[٩]

وإذا كانت اللغة العربية على نطاق الساحة القومية تنأى عن السلامة اللغوية في أغلب البرامج التي تبثها أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية في المسلسلات التلفزية وفي المسرحيات واللقاءات والحوارات والأغاني..الخ فإن ظاهرة الإعلانات هي الأخرى تنأى عن استعمال العربية السليمة حيث «تشغل لافتاتها أسطح المباني والساحات

(٨) الدكتور محمود أحمد السيِّد– أثر اللغة في المكون العربي– من بحوث مؤتمر العروبة والمستقبل– دمشق ١٥–١٩ أيار ٢٠١٠ ص٨٨.

(٩) المرجع السابق ص٨٩.

العامة ومنعطفات الطرق وواجهات الأبنية الكبيرة والمركبات العامة وواجهات المحال التجارية، ولا تخلو منها أغطية المشروبات وأغلفة المأكولات وجدران الملاعب وملابس الأطفال وكل ما يمكن أن تقع عليه العين في الحياة العامة المدنية».(١٠)

وهذه الإعلانات مصوغة بالعامية أو بالعربية المحشوة بالأخطاء أو بالكلمات الأجنبية، وهذا كله يسهم في تشويه اللغة العربية، ويعد عاملاً سلبيًا في اكتساب المهارات اللغوية لدى أبنائنا، إذ إنها تهدم ما تبنيه المدارس إذا افترضنا أن هذه المدارس تدرس فيها اللغة السليمة تدريسًا وافيًا.

وفي ظل الهيمنة الاقتصادية تروّج الشركات الأجنبية في البلاد العربية للغة الأجنبية، فأصبحت اللغة الإنجليزية لغة الأعمال التجارية والمصرفية والسياحية، وأقصيت العربية عن مجالات العمل الاقتصادية بل حوربت حربًا شعواء، وأصبح اجتياز امتحان اللغة الأجنبية محادثة وكتابة بنجاح شرطًا من شروط التعيين في القطاعين العام والخاص، وأصبحت اللغة الإنجليزية لغة طبيعية مطلوبة في كثير من الأنشطة في الحياة العامة في المجتمع كالوظائف الطبية والمؤسسات التجارية والشركات السياحية...إلخ.

ومن الملاحظ تسرب المئات من ألفاظ اللغة الإنجليزية وصيغها وتراكيبها إلى العاملين في المجالات الاقتصادية، وقد تضاعف هذا التسرب واتسعت مجالاته مع ازدياد حركة التجارة والاستيراد، حيث امتلأت الأسواق بمختلف أنواع البضائع والسلع والأدوات والأجهزة والمعدات الأجنبية ولُعَب الفيديو والحاسوب وغيرها حاملة معها

(١٠) الدكتور أحمد درويش– التحديات اللغوية العامة للعربية المعاصرة– الجمعية العربية لضمان الجودة في التعليم– القاهرة ٢٠٠٩ ص١٨٧.

أسماءها وصفاتها وعناوينها وتعريفاتها بلغات البلدان التي أنتجتها وصدرتها، وأغلبها من البلدان الناطقة بالإنجليزية.

وثمة ظاهرة أخرى في دول الخليج العربي تتمثل في انتشار اللهجات العامية واختلافها في النطق والأداء والتصريف لدى العمالة الآسيوية، وهذه اللهجات لم تعد لتهدد العربية في السوق ومجالات العمل فقط، بل حتى داخل البيوت نفسها، حتى إنك لتجد في البيت الواحد عدة جنسيات تتكلم عدة لغات وتختلط بالأطفال في سن التأثر والتلقي، فينشأ الطفل بعيدًا عن لغة أمه العربية التي قلما تتفرغ له، وعن لغة أبيه المشغول عنه بعمله وتجارته ومهنته وأصدقائه. (١١)

وإذا أضفنا إلى ذلك انتشار الشعر النبطي على حساب الشعر العربي الفصيح حيث تقام له المهرجانات، وتخصص له الجوائز الكبيرة، أدركنا حجم التحديات التي تواجهها اللغة العربية في دول الخليج العربي.

وليست دول المغرب العربي في منأى عن هذه التحديات، فهنالك عدة لغات متنوعة إلى جانب العامية كالأمازيغية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية، وهذا يشكل خليطًا لغويًا هجينًا ناتجًا عن استعمال لغة على حساب أخرى.

وفي الجزائر والمغرب يعتقد الناس أن الفرنسية هي اللغة الراقية التي تتيح فرص العمل والرقي الاجتماعي والاقتصادي لمن يتقنها، وأن اللغة الوطنية عائق دون هذه الميزة المهمة، فتهيمن الفرنسية على السوق اللغوي، وتكون عنصرًا ضاغطًا يعمق هيمنة النخبة الناطقة بها، ويرسخ التبعية واللا مساواة الاجتماعية والثقافية واللغوية، وغدت الفرنسية أداة لسيطرة النخبة المتقنة لها، وعنصرًا طبقيًا ذا قيمة اقتصادية تتولى

(١١) الدكتور يوسف القرضاوي– اللغة العربية في دولة قطر بين العناية والشكوى– مجلة الحياة الفكرية– العدد الثاني– وزارة الثقافة السورية ٢٠٠٩ ص١٢٧.

الأعمال المهمة في المجتمع على حساب العربية، وما يزال المؤهلون بالعربية يعانون التهميش في سوق العمل، في حين أن سوق العمل مفتوح للمؤهلين بالفرنسية في الإدارة والاقتصاد.

ونخلص إلى القول إن العولمة بمراميها الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية والإعلامية قد أثرت بصورة سلبية في مكانة اللغة العربية، إن من حيث هيمنتها السياسية والحؤول دون وحدة العرب ومحاربة لغتهم القومية وفرض لغة العولمة الإنجليزية في التعليم مكان العربية، وإن من حيث تشجيع العاميات ولغة الأقليات، والسعي إلى سيرورة العامية في الإعلام والتواصل، وإن من حيث اعتماد اللغة الأجنبية في الشؤون الاقتصادية والتجارية وفتح باب التوظيف لأبناء الطبقات الاجتماعية العالية، وإن من حيث نشر الإنجليزية في التقانة «التكنولوجيا» وعبر الشابكة «الإنترنت»...إلخ.

رابعًا– من سبل المواجهة

إن العولمة واقع لا يجدي معه أسلوب الرفض، بل هي تيار بدأ بالاقتصاد وامتد إلى السياسة والثقافة، وأصبح واقعًا نعيش فيه، ولا نرى أن تضييق الخناق على قنوات التواصل بين ثقافتنا وأي ثقافة أخرى وافدة سيكون حلاً ناجحًا، فلم يعد ثمة مجال للانعزال والتقوقع، ولا يصح بالمقابل إطلاق العنان لكل ما هو وارد بعجره وبجره بدعوى الانفتاح.

وفي ضوء ذلك كان لابد من اتخاذ عدد من الإجراءات لمواجهة الآثار السلبية للعولمة، واختيار الجوانب المضيئة منها بما يلائم مناخنا وأرضنا وتربتنا ويحافظ على هويتنا.

ومن هذه الإجراءات:

١– حسم موضوع التعريب بإصدار القرار السياسي الملزم، ووضع سياسة لغوية وتخطيط لغوي في ضوئها على الصعيدين القومي والوطني.

٢– تفعيل الترجمة إلى اللغة العربية في جميع ميادين المعرفة ولاسيما ميادين العلوم والتقانة (التكنولوجيا)، ذلك لأن الترجمة العلمية وتعريب التعليم يعدان من وسائل إغناء اللغة العلمية والتقانية للقوى العاملة، ولهذه اللغة الأم دور في تحسين مردود القوى العاملة، ويتنامى دورها مع التوجه نحو الاقتصاد المبني على المعرفة.

٣– نشر اللغة العربية بين الأقليات غير العربية التي تعيش في البلاد العربية، وبين الجاليات العربية والجاليات المسلمة التي تعيش في البلدان الغربية، وبين الناطقين بغير العربية ممن يرغب في تعلم العربية.

٤– السعي إلى إحداث عولمة للغة العربية في أوساط المسلمين من غير العرب، إذ باستطاعة العرب تقديم مواد وبرامج علمية وفكرية وقرآنية وشرعية مكتوبة أو مسموعة، وكلها مصوغة بالعربية الفصيحة والسليمة، وآخذة بالحسبان العلاقة الوثيقة بين اللغة العربية والدين الإسلامي من جهة، ومن جهة أخرى يمكن أن يؤدي ذلك إلى تقليل شأن اللهجات المحلية لمصلحة الفصيحة.

٥– اعتماد الوسطية والاعتدال على أنه منهج علمي وعملي سليم لإخراج المجتمع من أزمته الخانقة في ظل العولمة وانعكاساتها السلبية، ونبذ التطرف والعنف في الخطاب الديني، وتجاوز خلافات الماضي الفكرية والسياسية والاجتماعية، والعمل على التقريب بين المذاهب تحقيقًا للوحدة الوطنية.

٦- الإفادة من تراثنا العربي في تعزيز القيم الإنسانية في عملية التواصل والحوار بين الثقافات من مثل (المحبة، الحوار، التسامح، قبول الآخر، السلام...إلخ) من جهة، والإفادة منه أيضًا في مد التعريب بالمصطلحات في مختلف مجالات العلوم من جهة ثانية.

٧- التركيز على أساليب التفكير العلمي في جميع مراحل التعليم حتى يتمكن أبناء الأمة بما يملكونه من مهارات التفكير الناقد الموضوعي من أن يميزوا بين الزيف والحقيقة، والغث والسمين في ظل العولمة.

٨- التركيز على الثقة بالنفس واستئصال الشعور بالدونية والانبهار تجاه الثقافة الأجنبية، واستئصال عقدة التصاغر من حياتنا الثقافية، وعقدة التشكيك في تاريخ الأمة وتراثها، وتبيان ما قدمته الأمة العربية الإسلامية من أفانين المعرفة في مسيرة الحضارة البشرية.

٩- إيلاء الإعلام الأهمية واعتماد اللغة السليمة في القنوات الفضائية وفي الإعلام المقروء والمسموع والمرئي.

١٠- السعي الحثيث لإثراء المحتوى الرقمي العربي على الشابكة، وتخصيص الجوائز لأفضل المواقع التي تعتمد العربية الفصيحة.

١١- تعزيز التعاون بين الجهود الرسمية وجهود المجتمع المدني في مجال النهوض بالواقع اللغوي والارتقاء به.

١٢- السعي إلى إتقان اللغات الأجنبية إلى جانب إتقان اللغة الأم «العربية الفصيحة»، وهذا من شأنه إغناء عملية التعريب.

١٣- إنفاذ مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة الذي تقدمت به الجمهورية العربية السورية إلى مؤتمر القمة العربي المنعقد بدمشق في آذار (مارس) عام ٢٠٠٨، واعتمده المؤتمر وقدّم الشكر للجمهورية العربية السورية على مبادرتها لإطلاق هذا المشروع الرائد.

تعليم النحو

د. مازن المبارك(*)

يعرف المعلّمون عامة أن ركائز التعليم ثلاث هي العلم والكتاب وطريقة التعليم، وأن غيرها مما يدخل في التعليم ويؤثر فيه فروع لا تصل إلى منزلة تلك الركائز.

أما العلوم فتختلف صعوبة وتعقيدًا، وسهولة ويسرًا، وما من علم إلاّ يحتاج إلى درجة من الجهد لتحصيله واكتسابه، وتتفاوت الدرجات في بذل الجهد والوقت باختلاف طبيعة العلم وطبيعة المتعلّم العقلية والنفسية، فمن العقول ما يحب الغوص في المشكل، ويحبّ الظفر بحلّ المعقّد، ومنها ما يؤثر القريب السهل، كالناس أنفسهم؛ منهم من يُؤْثر تسلّق الجبال، ومنهم من يهوى الركض في السهول. ومن الناس من تهوى نفوسهم علمًا فتُقبل عليه وتكره آخر أو لا تحبه فتُعرض عنه.

وأما الكتب فتختلف باختلاف واضعيها أسلوبًا وعرضًا، إطنابًا وتوسّطًا أو مساواة وإيجازًا، وأما الكتب الدراسية فتخضع لتوجيهات محدّدة في موضوعاتها وأساليبها وطرق

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

عرضها، ويكون ذلك كله في ضوء الغاية التي وُضعت من أجلها.

وقد كان القدماء يراعون مستوى الذين يؤلّفون لهم، فيضعون الكتاب الواحد على مستويات أحيانًا، كالأمالي الكبرى والأمالي الوسطى والأمالي الصغرى، وكالشرح الكبير والشرح الصغير، وغير ذلك من أساليب التأليف التي يتحدثون عنها في مقدمات أو خطب مؤلّفاتهم.

وأما طريقة التعليم فقد كانوا يقولون: لكل شيخ طريقته. وأصبحنا اليوم نقول: لكل مدرسة تربوية طريقتها. واختلفت الطرائق، وتباينت المذاهب، وتشعّبت بالمعلمين الطرق، ووُضعت في أصول التربية وطرائق التعليم كتب وأسفار.

وسُئلتُ عن الطريقة المثلى في تعليم النحو، وقد مارست تعليم اللغة العربية بموادها المختلفة في جميع مراحل التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي والجامعي.

وكانت صناعة التعليم عندي هواية قبل أن تكون مرتَزَقًا، ثم أصبحت محققة للأمرين جميعًا.

وحديثي اليوم حصيلة تعلُّمي وتعليمي، وثمرة خبرة واكتساب وتجربة وملاحظة. لقد كان حبي لمهنتي يدفعني إلى الملاحظة والتدقيق، وإلى تقويم العملية التعليمية ورصد مردودها، ولست أخفي أنني كنت أدرِّس المنهج الواحد في السنة الواحدة بطرق مختلفة وأساليب متعددة، منها ما يوافق أساليب تعلمناها وطرقًا فُرضت علينا، ومراحل يسألنا عنها السادة المفتشون من دفتر إعداد الدرس إلى الانتهاء من إلقائه، ومنها ما لا يخضع لما أُملي علينا ولا يرضي المسؤولين عن التدريس من واضع المنهج ومؤلِّف كتاب ومفتش أو موجِّهٍ تقيِّده الأنظمة والنظريات أكثر مما يقيِّده الواقع.

ولابد قبل الإجابة أن أقول: إنَّ إجابتي ستظلم المثالية التي فرضت في السؤال وتُدْخل الضيم عليها، لأني أعتقد أنه ليست هناك طريقة وحيدة نستطيع أن نسميَها

الطريقة المثلى أو المثالية في تعليم النحو، فما يكون مثاليا في بيئة قد لا يكون مثاليًا في بيئة أخرى، وما يكون مثاليا في مستوى تعليمي معين كمستوى التعليم الإعدادي أو الثانوي، قد لا يكون كذلك في مستوى تعليمي آخر أدنى منه أو أرفع، وما يكون مثاليا في تعليم المتخصصين باللغة العربية وعلومها قد لا يكون مثاليا في تعليم غيرهم.

على أننا لا نعني أن تكون لكل مدرِّس طريقته وأن تتعدَّد الطرائق والأساليب فيذهب كل قوم بطريقتهم المثلى، ولكنا نعني أن تكون الطرق والأساليب مختلفة باختلاف الطلاب والمستويات والبيئات، وباختلاف الأهداف واختلاف عناصر كثيرة لابدَّ من تقديرها واختيار الطريقة في ضوئها، فهناك البيئة الاجتماعية التي لا نستطيع أن نفصل بينها وبين بيئة المدرسة، وهناك المستوى الثقافي والعقلي للطلاب، وهناك طريقة إعداد المدرسين، وهناك المناهج، وهناك الكتب المقررة، كلُّ أولئك عناصر لابدَّ من تقديرها حين نختار طريقة التدريس.

ولكننا من ناحية ثانية نستطيع أن نقول: إنه مهما تختلف الطرق، وتتباين الأساليب، وتختلف المؤثرات، فلابدَّ أن تتوفَّر عناصر معيَّنة في كل طريقة حتى تنال حدا أدنى من المثالية المنشودة.

ولعل أبرز ما ينبغي التوقف عنده بصدد اختيار الطريقة أو وَضْع أسلوب معيَّن للتعليم، هو أن نسأل أنفسنا السؤال الآتي: ما الهدف من تدريس النحو؟ وما الغرض الذي نسعى من خلال تدريسنا القواعدَ إلى تحقيقه؟

إن تحديد الهدف أمر واجب، ومعرفته لازمة لتحديد الوسيلة، لأن الوسائل تتباين بتباين الأهداف، فالطريقة المثالية لتحقيق هدفٍ ما قد لا تكون ناجعة في الوصول إلى هدف آخر قريب أو بعيد عنه، فما الهدف الذي نسعى إلى تحقيقه من تدريس مادة النحو في مدارسنا؟

إن غرضنا من تدريس مادةٍ ما قد يكون مجرد نقل التراث من السلف إلى الخلف، أو إطلاعَ الجيل الناشئ على جانبٍ من التراث الفكري في مادة من المواد، وقد يكون تزويدَ الطلاب بمعارف يفيدهم استخدامها في حياتهم المقبلة.

ولكي يكون التدريس مجدياً ينبغي ألاَّ نكتفي بالجوانب العلمية النظرية، بل لابد من الربط بين ما ندرّسه للطالب وما ينتظر الطالبَ نفسَه في حياة نُعِدُّه لخوض غمارها.

أرأيت إلى الفرق بين إقبالك على شراء شيءٍ تبحث عنه وتستشعر الحاجة إليه، وإقبالِك على شراء شيء تقدِّر أنك لن تحتاجه إلا مصادفة، وأن حاجتك إليه عارضة لا تدوم؟

كذلك تمامًا يكون إقبال المتعلمين على ما سيحتاجون إليه، على ما تعوزهم الحياة إليه، على ما يرفع شأنهم في مجتمعهم، وأين ذلك كله من مادة النحو التي نُعلِّم؟

ماذا ينتظر الطلاب من وراء هذه المادة؟ أبها يقوَّمون في المجتمع؟ أهي ذات شأن في أيِّ مجال من مجالات العمل؟ أين يحتاجون إليها؟ بل ألاَ يكونون كتَّابًا وصحفيين وإعلاميين يقبلهم المجتمع في كل ميدان دون أن يكون للنحو في ذلك أدنى نصيب؟ بل أليس النحو آلةَ لغةٍ لا تُستخدم إلا في أقل المناسبات؟

إن ذلك كان يدعوني إلى التمهيد النفسي لدى الطلاب عن طريق بيان قيمة اللغة في الحياة، وأن أعداء الأمة يحاربون لغتنا ويشوِّهون صورتها، ويوهمون صعوبتها، وأن معرفتها فرض، وتعليمها والدفاع عنها جهاد.

لماذا نعلِّم؟ هل لمجرد نقل التراث عبر الأجيال؟ أم أنَّنا نعلِّم فنزوِّد الطلاب بسلاح للحياة المقبلة؟

النحو يتحقق فيه هذان الهدفان؛ لأنه صلة بالتراث من جهة أنه معين للغة، ولأنه أساس ما سيكتبه المتعلم في مستقبله من الرسالة الشخصية إلى المؤلَّف العلمي.

يجب أن يدرك الطالب أن ما يتعلمه سيفيده في مهنته وفي حياته.

إن علوم العربية متكاملة يعين بعضها بعضًا، هكذا كانت قديمًا، كانت وحدة في التعلُّم والتعليم والتأليف، فكنا نجد الشيخ نحويًا وصرفيا وإمامًا في البلاغة، وقد يزيد على ذلك بالتقدُّم في علوم أخرى متعدِّدة، فماذا نجد اليوم؟

بدأ التخصص يضيق حتى أصبح كثيرون من أساتذة النحو لا يتقنون علوم البلاغة، وأصبح الأمر في مدارسنا قائمًا على تمزيق المواد، فلكل مادة من مواد علوم اللغة ساعاتها، ولكل منها مدرسوها، لقد أصبح الطالب يستنكر أن يحاسب على الإملاء في مادة النحو، أو يحاسب على النحو إذا كان يكتب في الأدب، وليس ثَمة ما يُشعر الطالبَ أن كل ما يدرسه من علوم العربية بدءًا بالخط – إذا بقي من يدرِّس الخط – وانتهاءً بفقه اللغة، ومرورًا بالإملاء والنحو والصرف والبلاغة ، إنما هو وسيلة إلى إتقان اللغة فهمًا إذا سمع أو قرأ، وإفهامًا إذا حدَّث أو كتب.

يجب أن نغرس في نفوس الطلاب أن علوم العربية وحدة متكاملة يعين بعضها بعضًا، فدرس النحو يعين على التدريب على التعبير والإملاء والقراءة، لأنه آلة التعبير اللغوي الصحيح، وهل يخفى علينا بعد ذلك أن قوة الطالب في لغته قوة له في سائر ما يدرس من العلوم؟ لأن القويّ في اللغة أسرع قراءة وأسَدُّ فهمًا، ولأن الكثير من الخطأ في العلم يعود إلى الخطأ في فهم اللغة التي كُتب بها ذلك العلم.

ينبغي أن يعرف الطلاب – ومدرسوهم قبلهم – أن النحو لا يعني الإعراب، وأن إتقان الإعراب والتفوّق فيه لا يعني إتقان اللغة، إن اسم (النحو) نفسه جاء من وجوب التكلّم على (نحو) ما تتكلم أو ما تكلمت به العرب، وأنه يعني انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق به مَن ليس مِن أهل اللغة العربية، أهلَها في الفصاحة، فينطق بها وإن

لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها رُدَّ به إليها[١].

إن معظم المعلّمين يصرفون جهودهم إلى تعليم الإعراب ويجعلونه معياراً لإتقان النحو، على حين أن النحو أعمّ من ذلك لأنه يشمل قواعد اللغة وأحكامها في إعرابها وبنائها ووضع ألفاظها في مواضعها مفردة ومركّبة، إن النحو هو الضوابط الهادية إلى التأليف على طرائق العرب في كلامهم ، وهذا ما ردّ به السيرافي النحويّ على متّى المنطقي الذي ظنّ أن معرفة الاسم والفعل والحرف كافية لفهم اللغة، فقال له أبو سعيد السيرافي: «إنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وضعها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها»[٢]. وبيّن له أنه محتاج لفهم كلام العرب إلى معرفة معاني النحو الشاملة للحركات والسكنات، وإلى وضع الحروف في مواضعها، وإلى تأليف الكلام وما يقتضيه من تقديم وتأخير لتوخي الصواب وتجنب الخطأ».

إن النحو بمعانيه الشاملة مفيد في شرح النصوص، ومعين على فهم دقائقها، وينبغي أن نستعين به في دراستها، فذلك أولى من الوقوف عند فلسفة نحوية تُعنى بالتعليل وما يتصل به من حجج وبراهين!

إننا ينبغي في تعليمنا للنحو أن نخفّف ما أمكننا من الأمور النظرية وأن نزيد من إحكام الربط بين النحو وأحكامه والمعاني ومتطلّباتها، وأن نوقف الطلاب على أثر اختلاف مواضع الألفاظ في الجمل والتراكيب في اختلاف المعاني.

إن ابتعاد النحو عن النصوص وعن اللغة الحيّة وعن لغة الحياة ذو أثر سلبي في فهم اللغة من ناحية، وفي عدم الاهتمام بالنحو نفسه من ناحية ثانية، وإن الخطأ في النحو

(١) ابن جني، الخصائص ١/٣٤.

(٢) معجم الأدباء ٨/١٩٠، والنحو العربي: مازن المبارك: ١٦٠-١٦١.

يؤدي إلى الخطأ في فهم النصوص، والخطأ فيها يؤدي إلى خللٍ في الفكر!

ولقد نعى ابن جنيّ في كتابه «الخصائص» على فِرَقٍ دينية ضلَّت، وكان ضلالها في العقيدة راجعًا إلى ضلالها في فهم النصوص، ولك أن تقيس على ذلك الضلال في فهم سائر النصوص التاريخية والقانونية والمترجمة، بل لعلَّ ما بين أيدينا من ترجمات مختلفة للكتاب الواحد ليدل أبلغ دلالة على أن اختلاف الترجمات راجع إلى اختلاف المترجمين في فهم النص الأصلي للكتاب المترجَم.

لقد كان على موضوعي هذا ليكون مُستوعبًا أن يثير كثيراً من القضايا المتصلة بطريقة التدريس، فهناك المناهج وواضعوها، وهناك الكتب ومؤلفوها، وهناك المدرِّسون وإعدادهم، وهناك المدارس وبيئاتها الاجتماعية العامة والمحلية الخاصة، وهناك الطرق والنظريات التربوية قديمها وحديثها وما يكثر حولها من حديث يخلط فيه بين المثالية والواقعية، أو بين الأمور النظرية والتطبيق العملي، بل يكثر فيها التعالم على حساب الأصالة، أعني يكثر فيها التعسُّف في استيراد نظريات أجنبية يحاولون قَسْرَ لغتنا تعليمها لمقتضياتها، ناسين أن لكل لغة طبيعتها، وأنه لا نجاح في تدريس اللغة إلا إذا كان أسلوب تعليمها متصلاً بطبيعتها، قائمًا على فهم خصائصها.

لقد عرفت أمتنا طرقًا كثيرة مختلفة في تدريس اللغة وعلومها في عصورها السالفة، وعرفت ما أنتجت تلك الطرق من آثار في الفكر اللغوي والنحوي والبلاغي، وعرفت عددًا كبيراً من العلماء الأفذاذ أئمة تلك العلوم، ثم مضت قرون وجدَّت طرائق، وما تزال الأيام تمضي حاملة لنا طرائق أخرى جديدة، حتى أصبحت بلادنا العربية مزارع تجارب للطرائق التربوية والأساليب التعليمية، فهل لكم أن تدلوني على إنتاج لغوي أو نحوي أو بلاغي يقف على صعيد واحد مع إنتاج السلف؟ وهل نجرؤ أن نسمي علَمًا واحدًا يقف على صعيد واحد مع أولئك الأئمة؟

على أني أرجو ألاَّ يُفهم من كلامي أنني أدعو إلى التمسك بكل قديم ونبذ كل

جديد، فلكلٍ من القديم والجديد على السواء محاسنه وعيوبه، ولكنني أدعو إلى التمحيص قبل الأخذ، وإلى تقويم الطرائق والأساليب في ضوء نتائجها وثمارها، لا في ضوء الانبهار بأسماء القائلين بها أو القائمين على تنفيذها أو حداثة ميلادها.

ولعل موضوع اتكاء علوم العربية بعضها على بعض أمر يحتاج منا إلى مزيد من البيان، وأنا أضرب لذلك مثالين اثنين، أما الأول فيبين الحاجة إلى المزج بين النحو وعلم المعاني؛ لقد ضاق معنى النحو حتى انصرف في أكثره إلى أنه الإعراب، مع أن الإعراب جزء من النحو يتصل بأحكام المفردات، وأما الجملة وتركيبها وأسلوب صياغتها فأمر يكاد يكون مهملاً في تدريسنا للنحو.

إننا نقتصر على بيان الجملة الاسمية والفعلية، وأما أسلوب التركيب وأما الفرق بين الجملتين أو الجمل حين نغاير في ترتيب كلماتها، فأمر نتركه لعلم المعاني! وهل نعلّم في النحو إلا ترتيب الكلمات لأداء تلك المعاني؟!

ما الفرق بين «كلّ هذا لم أفعله» و«لم أفعل كلّ هذا»؟ ما الفرق بين استعمال المعارف على كثرتها؟ متى نلجأ إلى التنكير؟ ومتى نلجأ إلى الذّكر والحذف؟

إننا نعلّم في النحو بناء الفعل للمجهول، ونعلّم حذف المبتدأ، ونعلّم في علم المعاني دواعي حذف المسند إليه، وما هي في حقيقتها إلا معاني تلك القواعد النحوية.

وأما المثال الثاني فيبين الحاجة إلى شرح أمور صرفية في درس النحو، كما هو الأمر في إعراب؟ «جاء بنيَّ».

هذان مثالان بسيطان يوضحان الخطأ في تمزيق مواد علوم العربية، وأنه شتان ما بين تدريس كل مادة على حدة، والإفادة من حصيلة كل مادة في تدريس المادة الأخرى.

لكل علم أصوله أو أحكامه العامة، ومعرفة هذه الأصول أمر لابدَّ منه قبل الخوض في التفصيلات وبيان الأحكام الجزئية.

ومدرِّس النحو – في رأيي – يجب عليه قبل البدء بتدريس المنهاج المقرَّر أن يذكِّر بهذه الأحكام أو ما يتصل منها بمنهاجه على الأقل.

فأنا لا أبدأ في مقرَّرٍ للمنصوبات مثلاً بتدريس المفعول به على أنه درس منفصل عن غيره قائم بنفسه، وإنما أبدأ بالأحكام العامة، أذكِّر بأن النصب من علامات الإعراب، وأن النصب يطرأ على الأسماء والأفعال كالرفع، وأما الجزم فخاص بالأفعال كما أن الجرَّ خاص بالأسماء، ثم أذكِّر بعلامات النصب في الأسماء كافة من فتحة وما ينوب عنها من ألفٍ في الأسماء الستة وياءٍ في المثنى وجمع المذكر السالم والملحق به، وكسرة الاسم المزيد بالألف والتاء، ثم أعدِّد المنصوبات من الأسماء جميعًا، وأبدأ بعد ذلك بيان الأحكام الخاصة بالمنصوب الأول الذي هو المفعول به.

وبذلك يدخل الطالب إلى جزئية من جزئيات النحو، عارفًا بحُكم تصوره العام مكان هذه الجزئية في المخطط (الخريطة) النحويّ، ثم تتوالى الجزئياتُ مالئةً كلٌّ منها موضعها في المخطط المتصوَّر.

ثمَّ إن هذه الطريقة تسهِّل على المدرِّس والطلاب أمورًا منها:

١– استيعاب الجزئيات؛ لأن كل درس جديد يعتمد على الأحكام العامة التي سبق أن قرَّرها الأستاذ واستوعبها الطلاب.

٢– ترسيخ الأحكام التي قرِّرت سابقًا، حتى ليكاد كل درس جديد يكون تطبيقًا لها وتمرُّسًا بها.

وأيًّا كانت الطريقة المتّبعة،، فلا بدّ — فيما أرى – ممّا يأتي:

١– أن يكون المدرّس محبا عمله الذي هو (التدريس)، وأن يكون محبا موضوع تخصّصه الذي هو هنا (النحو). فالحب للعمل سبب فعّال في نجاح العامل، وحبّ الموضوع الذي تتحدّث فيه وتبذل له وقتك وجهدك سبب فعّال في الإقبال عليه،

والاستزادة منه، والحماسة له، والإبداع فيه أو في أسلوب عرضه. وشتّان ما بين اثنين:

أحدهما: فُرض العمل عليه فرضًا، وهو لا يُطيقه أو لا يهواه ولا يميل إليه، ولكنها الحياة والحاجة إلى الكسب، ثم هو لا يحبّ مادة درسه، ولكنها الظروف، وحساب الدرجات في الشهادة الثانوية، ومكاتب التنسيق والتسجيل الجامعية، هي التي ساقته إلى التخصّص باللغة العربية.. فكان ما كان.

وثانيهما: يحبّ التدريس ويرى فيه عملاً تربويًّا يحظى بحبه وتقديره، ويرى هو فيه عملاً يحقّق رغباته النفسيّة والفكرية، ويهوى العربية ويرى في تدريسها رسالة يقوم بها، وعملاً وطنيا وقوميا وإسلاميا يؤديه. ما أشقى من يعيش مع ما لا يحب! ويكسب رزقه مما لا يريد! وما أسعد من اتفق هوى نفسه مع عقيدة قلبه، ورسالة فكره، وكسب يده!

ونحن نحب العربية ونُعنى بها لأنها لغة القرآن، ولأننا نرى فيها الرابطة التي تربط بين أجيالنا حاضرًا، والتي تصلهم بعقيدتهم وتراثهم ماضيًا، والأداة التي تؤهلهم لمعرفةٍ أدقّ وفهمٍ أعمق وثقافة أوسع مستقبلاً.

٢- التمهيد النفسي بإشعار الطلاب قيمة ما يدرسون وحاجتهم إليه، وبيان الصلة الوثيقة بين اللغة من ناحية وعقيدة الأمة ووحدتها وقوميّتها من ناحية ثانية.

إن مدرّس العربية صاحب رسالة، إنه لا يعلّم إعرابًا وتصريف أفعال كما لو كان يعلّم لغة أجنبية، بل يعلّم لغة وأسلوب تفكير يصل المتعلّم بهما إلى فهمٍ أعمقَ لكتاب الله، ولتراث الأمة فينشأ مواطنًا منتميًا إلى أمة ذات عقيدة وأصالة وعراقة وتاريخ وحضارة.

ولولا صلة اللغة العربية بذلك كلّه لما رأيت أعداء الأمة والمغفّلين من أبنائها يتخذون منها وسيلة هزءٍ وسخرية في رواياتهم ومسرحياتهم.

٣- الربط الدائم بين ما ندرِّس من جهة وما نعدُّ الطالب له مستقبلاً من جهة أخرى.

٤– الربط الدائم بين علوم اللغة العربية وبيان أنها كلٌّ متكامل ووحدة لا نفرِّق بين أجزائها إلا تسهيلاً للدراسة.

٥– إعطاء القواعد العامة ليكون عند الطالب تصوُّر كامل (للخريطة) النحوية.

٦– تجنُّب استخدام الاصطلاحات إلا إذا كانت مقرونة بشرح واضح ولا نقرّر ما لا معنى له في أذهان الطلاب، وليس المدرِّس وحده مقياسًا للوضوح أو الفهم.

إن كثيراً مما يمرّ به المدرّس من أسماءٍ أو عنوانات نحوية لا يعرف الطلاب معناها، وعليه أن يشرحها لهم ويوضح دلالاتها كالتمييز والمفعول المطلق، وكقولنا في محل رفع، وغير ذلك مما نذكره غير ملتفتين إليه.. إنه لا يصحّ أن يحفظ الطلاب أسماءً أو مصطلحات لا يدركون حقيقة معانيها.

٧– الإكثار من الأمثلة المستخرَجة من النص أو المؤلَّفة، ويحسن أن تكون في أولها ممَّا يتصل بحياة الطلاب واهتماماتهم، ثمَّ نتدرَّج إلى الأمثلة الأدبية الجيدة، ونطلب إلى الطلاب أن يؤلِّفوا على غرارها ليألفوا تطبيق القاعدة النحوية التي تعلموها، وتتمرَّس ألسنتهم بالنطق الصحيح.

٨– الاستغناء ما أَمكن عن التفصيلات الجزئية، والشاذ والنادر وكلِّ ما لا يفيد في توظيف النحو لخدمة اللغة. وعلى المدرّس أن يفرّق بين ما يجب أن يعرفه هو، ولا حاجة إلى نقله إلى طلاّبه، وبين ما يجب أن يعلّمهم إياه ويشرحه لهم.

لقد اقترحتُ غير مرة على واضعي المناهج أن يحذفوا من مناهج غير المختصّين بالعربية ومن مناهج المدارس الإعدادية والثانوية ما لا حاجة إلى إعرابه، وأن يدرِّسوه على أنه أساليب قليلة ثابتة لا تتغيّر يمكن للطالب أن يقلّدها، وأن يصوغ على منوالها، دون الدخول في تفصيل إعرابها؛ كصيّغ التعجب، وما لا يؤثر إعرابه في

لفظه[٣]. كما يحسُن ألاّ نرسّخ في أذهان الطلاب الأمثلة النادرة، والشواهد الشاذّة، والآراء المفردة الغريبة، وكم يُخطئ المعلم الذي يعرض عضلاته أمام طلابه بذكر الغريب والمعقَّد والآراء المتباينة للمدارس النحوية المختلفة، أو يعرض لهم شيئًا من الألغاز النحوية ومسائلها....

إنه لا يجوز أن يبتعد النحو عن اللغة الحيّة البسيطة، بل يجب أن يكون معيار التعليم هو ما نستطيع أن ننقله بيسر وإفهام لا ماذا نعرف؟ وأن نشرح النص الأدبي شرحًا يشعر الطالب فيه بحاجته إلى معرفة قواعد اللغة لفهم النص، وبذلك نشعره بقيمة النحو في اللغة وفي سبيل تحصيلها، كما نشعره بقيمة اللغة نفسها.

كما ينبغي أن يعرف المدرّس الصعوبات المتوقّعة والأسئلة المحتملة وذلك من خلال خبرته الماضية وإعداده لدرسه ليكون مستعدا للإجابة عما يُسأل عنه وتوضيحه وضرب الأمثلة له، وما أشقى الطلاب الذين يبلون بمدرّس إذا سُئل أعاد ما كان قاله بلا زيادة ولا نقص وكأنه يكرّر ما حفظ!! مع أن التكرار غير الشرح والتوضيح.

٩- عليك أن تختار في شرح الدرس وتقرير القاعدة الطريقة الملائمة لموضوع الدرس، المناسبة للمستوى العقلي والثقافي أو التعليمي للطلاب.

فكثيراً ما كانت تدور المناقشات في مجالس المدرسين وجلسات الموجّهين أو المفتّشين الاختصاصين حول طرق التدريس، وأيّ الطريقتين الاستنتاجية أو التقريرية أجدى في الشرح وأعود بالنفع على الطلاب، وكثيراً ما كنا ننتقل في ضوء تلك التعليمات والتوجيهات من طريقة إلى أخرى.

والحق أنني وجدت أن تحديد إحدى الطريقتين واتخاذها مبدأً عاما، يشبه الفرض الذي أتعبّد به طوال العام، ليس أمرًا صحيحًا، ولا واجبًا مطّردًا؛ وانتهيت إلى أن

(٣) التجديد في قواعد العربية ومناهجها. مجلة مجمع اللغة العربية. م٨٤. ج١ ص٤٩.

الذي يحدّد الطريقة إنما هو أمران: الأول هو موضوع الدرس نفسُه، وموضوعات النحو تتفاوت صعوبة ويسرًا، غموضًا ووضوحًا، طولاً وقصرًا. والثاني: هو المستوى العقلي والعلمي للطلاب الذين أدرّسهم، فإذا كان موضوع الدرس سهلاً، وقواعده واضحة، لا بالنظر إليّ ولكن بالنظر إلى مستوى الطلاب، أخذت بالطريقة الاستنتاجية، وشاركني الطّلاب في استنتاج الجزئيات وصياغة الحكم أو القاعدة، وأما إذا كان الموضوع معقّدًا، وكان استنتاج قواعده غير ميسّر للطلاب، فلم أكن لأحرجهم بكثرة الأسئلة، ولا ليحرجوني باستمرار الصمت وعدم الإجابة، مما يشعرهم ويشعرني معهم بالصعوبة والمشقّة، وإنما كنت ألجأ في مثل ذلك إلى التقرير المباشر، أو إلى استنتاج أنفرد به من دونهم أو أحكام أقرّرها لهم. ولكني كنت في جميع الحالات أتدرّج في صياغة القواعد أو الأحكام، سواء أكانوا هم الذين استنتجوها، أم كنت أنا الذي استنتجت وقرّرت، حتى أصل بهم إلى صياغة القاعدة بصورتها النهائية التي أجهد لتكون مطابقة لصورتها في كتابهم المقرَّر، حتى إذا رجع أحدهم إلى كتابه وجد فيه صورة مطابقة لما تلقّاه في الدرس.

١٠- تخصيص وقت كافٍ للتطبيق العملي الشفهيِّ والكتابيِّ بعد كل درس أولاً، ثم بعد كل مجموعة دروس ينظمها موضوع واحد كالمنصوبات أو المرفوعات. ثم بعد كلِّ فترة زمنية يلجأ إلى تطبيق يتمرس الطلاب فيه بكل ما تعلَّموه، ويستفاد من التطبيق الكليِّ بإجراء موازنات بين المعاني النحوية في الجمل أو التراكيب، كاختلاف المعنى بين جملتين باختلاف المعنى النحوي للاسم المنصوب مثلاً، كالفرق بين معنى جملتين المنصوب في أولاهما مفعول مطلق وفي الثانية مفعول من أجله، وهكذا... ليتضّح في أذهان الطلاب أثر اختلاف الدلالات النحوية في التعبير عن المعاني المختلفة.

١١- إذا تدرَّجت من تمهيد إلى عرض للأمثلة فمناقشةٍ واستنتاج للمعاني النحوية ثم صياغةٍ لأحكامها فلا تنسَ أن تعود إلى قراءة القاعدة في الكتاب لشرح ما يحتاج فيها إلى شرح ولربطها بما قرِّر في الدرس.

كما لا تنسَ أن تجعل للتدريس الشفهي نصيبًا من الوقت، وإذا انتهى كل ذلك تركت للطلاب تدريبًا تحريريًّا يقومون به في بيوتهم.

أما الذين يعوِّلون في تدريسهم على الكتب القديمة كالألفية وشروحها، أو المغني وشروحه، أو غيرها من الكتب التي ابتعدت أساليب تعبيرنا عن أساليبها حتى باتت معقّدة أو صعبة في نظر طلابنا، والتي تدرّس في المعاهد الدينية والأقسام التخصصية والحلقات الخاصة، فينبغي إذا شرح الأساتذة موضوع درسهم وناقشوا شواهده، أو تدرّجوا في عرض الأمثلة والشواهد والمناقشة والاستنتاج وعرض الحكم النحوي أو القاعدة وصولاً إلى حكم بيّنوه وقرّروه، أو قاعدة صاغوها أو لخّصوها، ينبغي أن يعودوا إلى قراءة الدرس في الكتاب، لشرح ما يحتاج من ألفاظه إلى شرح، وللربط بين الشرح والمتن، ولإكساب طلابهم القدرة على فهم الأساليب القديمة، والتمرّس بالقراءة في كتب ذلك التراث النحوي الغنيّ.

ونختتم بما بدأنا به، وهو أننا نعلّم النحو لإتقان اللغة نطقًا وكتابة، فلا يمكن أن نربط النجاح في تدريس النحو أو نربط إتقان النحو بدرجة سلامة اللغة، لأننا في مجتمع يعلّم النحو ولا يفسح المجال الكافي لاستخدامه عمليا، إننا نعلّم قواعد لغة لا نستخدمها إلا لمامًا، وإذا كان النحو معينًا على سلامة اللغة فليس حفظه أو حفظ أحكامه وحده موصلاً إلى تلك الغاية.

اللغة مهارات تُكتسب بالممارسة ولا تكتسب بحفظ قواعدها، فأوجدوا المجتمع الذي يستخدم اللغة أصلاً ويحترمها ثم اسألوا عن مدى نجاح الدرس النحوي.

بين اللسانيات وعلوم اللغة

د. أحمد محمد قدّور(*)

١ – تمهيد

إنّ الباحث في اللسانيات وعلوم اللغة مدعوّ بدءًا إلى تجنّب موقفين شائكين يزريان بمسلك العالم. أولهما: محاولة الحطّ من جهود القدماء لتعظيم المحدثين، وإظهار ابتكاراتهم، وثانيهما: محاولة الإطراء المتخبط للقدماء، وانتقاء معطيات جزئية مجرّدة من سياقاتها لتسهيل ادعاء أن القدامى لم يتركوا للمحدثين شيئًا(١). ولا شكّ في أنّ الموقف الأول يسيء إلى العلم في مسيرته وإنجازاته حين ينظر إليه بمنظار زمني محدث، من دون مراعاة للحقائق الموضوعية المرتبطة بمعطيات الحياة والحضارة. كما أن الموقف الثاني ينتقص من إنجاز المحدثين، ويهدر الفروق بين الدرسَين القديم والحديث، بحجة أنّ القدامى قالوا كلّ شيء، ولم يتركوا للمحدثين مجالاً للقول. والحق أنّ الموقف الموضوعي الذي يبحث عن الحقائق ضمن أطرها العلمية وظروفها الزمانية ومجالات

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر: هنري فليش، التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب لابن جني، تعريب وتحقيق عبدالصبور شاهين، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، مج (٢٣)، سنة ١٩٦٨، ص٥٨.

توظيفها هو الذي يجنّب الباحث اتخاذ أيّ من الموقفين السابقين، بين مهوّن من شأن اللسانيات، أو معظّم لها، لايرى في غيرها من الدراسات اللغوية فائدة ترجى، لأنها قطب الرحى في كل دراسة علمية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن النظر إلى اللسانيات تحدّد لدينا منذ زمن ليس باليسير، وتجلّى في عدّها عامل «تحديث» لا عامل تهديم، ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من المناهج والعلوم الوافدة إلى علومنا وثقافتنا. ولذلك لم نجد بأسًا في إضافة هذا الدرس الحديث إلى علومنا اللغوية، لأنه ينطوي على فوائد لاتنكر(٢). ولا بدّ من التنبيه في هذا الصدد على موقف عام عبّرت عنه مراجع اللسانيات العامة، تجلّى في تجاهل إنجازات علمائنا في الدراسات اللغوية، أو التقليل من شأنها، أو نسبة الجيّد منها إلى الشعوب القديمة كالهنود من دون دليل مقبول. ونتج عن ذلك عدم إفساح أيّ مجال لدراساتنا القديمة في تاريخ اللسانيات العالمي بالطريقة الموضوعية التي ينادي بها أولئك الدارسون.

واستكمالاً لما جرى في ندوة «أهمية اللسانيات في اللغة العربية» التي عقدت في مجمع اللغة العربية بدمشق من حديث عن مناهج اللسانيات وتاريخها وأهم أعلامها نقف على جانب مهمّ هو الموازنة بين اللسانيات وعلوم اللغة العربية لدرء الكثير ممّا يعتري تلقي اللسانيات من غموض أو خلط(٣). والموازنة هنا تختلف عن مفهومي

(٢) انظر: أحمد محمد قدور، المدخل إلى فقه اللغة العربية، الطبعة الأولى ١٩٩١، جامعة حلب، ص١١، وما يليها.

(٣) عقدت ندوة اللسانيات المشار إليها في رحاب مجمع دمشق بتاريخ ٣٠ حزيران عام ٢٠١٠، وتحدّث فيها أحمد قدور (عضو المجمع)، ولبانة مشوّح (عضو المجمع)، وبسام بركة ونادر سراج من لبنان، وأدارها شحادة خوري (عضو المجمع)، وعلّق عليها أحمد حاجي صفر من جامعة دمشق. وانظر للوقوف على أصول اللسانيات، عبدالسلام المسدّي، اللسانيات وأسسها المعرفية، تونس ١٩٨٦، وانظر مقدمة كتابه قاموس اللسانيات، تونس ١٩٨٤م.

المقارنة (Comparison) والمقابلة (Contrastive) المعروفين في مناهج اللسانيات، لأن المقارنة تنصرف إلى منهج محدّد يقارن بين لغتين تنتميان إلى أسرة واحدة لبحث علاقات التشابه وتحديد أواصر القرابة، على حين أن المقابلة تنصرف إلى منهج آخر يُعنى ببحث علاقات التخالف (أو المخالفة) بين لغتين أو لهجتين لا تنتميان إلى أسرة واحدة لتسهيل عملية تعليم اللغات واللهجات لغير الناطقين بها. إنّ المقصود من الموازنة هنا هو الوقوف على «الفروق» بين أربعة علوم كليّة هي اللسانيات، وعلوم اللغة العربية، والفيلولوجية، وفقه اللغة.

٢– اللسانيات وعلوم اللغة العربية

يمكن للباحث إرجاع بدايات الوقوف على الفروق بين علومنا اللغوية جملة والعلوم الوافدة (اللسانيات مختلطة مع الفيلولوجية) إلى الأساتذة الأوائل في الجامعة المصرية (أُسِّست عام ١٩٢٥م). من هؤلاء جويدي في محاضراته عام ١٩٢٦، وبراجشتراسر في كتابه «التطور النحوي للغة العربية» عام ١٩٢٩، وولفنسون في كتابه «تاريخ اللغات السامية» ١٩٢٩م، وكراوس في محاضراته عام ١٩٤٤[٤]. وتابع علي عبد الواحد وافي في كتابيه «علم اللغة»و«فقه اللغة» الصادرين مطلع الأربعينيات النظر في الفروق المشار إليها، وجارى ما تعارفه الأساتذة في الجامعة المصرية، مع شروح وتفصيلات كانت أساسًا للدارسين اللاحقين. وقلَّ أن يخلو كتاب حديث في الدراسات اللغوية عامة من التطرق إلى موضوع الفروق بين اللسانيات وغيرها من الدراسات اللغوية والفيلولوجية وفقه اللغة العربية. وقد استوفيت الحديث عن جلّ هذا الموضوع في بحث بعنوان «فقه اللغة: المصطلح والأسس المعرفية»[٥].

لكنْ ينبغي التنويه بثلاثة كتب كادت تقتصر على درس الفروق المشار إليها

(٤) انظر: المدخل إلى فقه اللغة العربية (ط. عام ٢٠٠٦)، ص١٩–٢٣.

(٥) انظر البحث المشار إليه في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد (٥٩)، تموز وكانون الأول لعام ٢٠٠٠ (السنة الرابعة والعشرون)، ص٩٩–١٢٦، ثم ضمّ إلى كتابي المدخل إلى فقه اللغة العربية، جامعة حلب ٢٠٠٦.

سابقًا، أو بعضها. وهي كتاب «فقه اللغة في الكتب العربية» لعبده الراجحي، وكتاب «علم اللغة وفقه اللغة: تحديد وتوضيح» لعبد العزيز مطر، وكتاب «علم فقه اللغة العربية: أصالته ومسائله» لمحمد حسن جبل(٦).

ويمكن النظر إلى الفروق بين اللسانيات وعلوم اللغة العربية في المسائل الآتية:

١- إنّ اللسانيات علم أوربي حديث، عمره قرنان تقريبًا، إذ ترجع بداياته إلى اكتشاف اللغة السنسكريتية عام ١٧٨٦، وظهور المنهج المقارن مع مطلع القرن التاسع عشر على يد شليجل (ت١٨٢٩) وبوب (ت١٨٦٧) وغيرهما من أعلام اللسانيات، ولا سيما دوسوسير (ت١٩١٣) صاحب الكتاب الشهير في اللسانيات، وهو محاضراته أو دروسه التي نشرت عام ١٩١٦، وكان لها أثر بالغ في مسيرة هذا العلم(٧).

أما علومنا اللغوية فقديمة النشأة، فهي ترجع إلى القرن الثاني للهجرة مع الرواد أصحاب المؤلفات الراسخة كالخليل وسيبويه والمبرّد وأبي علي الفارسي وابن جني وابن فارس وغيرهم. وقد ظهر لدى هؤلاء نضج وابتكار تجلّيا في درس النحو والصرف والأصوات والمعجم وأصول النحو وفقه اللغة، فضلاً عن مسائل لغوية مفردة في الدلالة والغريب ونحو ذلك.

٢- واللسانيات علم عالمي، هدفه تصنيف اللغات البشرية ووصفها ووضعها في مجموعات وأسر، والبحث عن القوى الكامنة في اللغة بوصفها ملكة مشتركة، واستخلاص قوانين عامة لها لا ترتبط بلسان دون آخر(٨).

---

(٦) صدر كتاب الراجحي عام ١٩٧٤ في بيروت، وكتاب مطر في الدوحة عام ١٩٨٥، وكتاب جبل في القاهرة عام ٢٠٠٥.

(٧) انظر: أحمد محمد قدّور، مبادئ اللسانيات، ط. ٣، دار الفكر بدمشق ٢٠٠٨، ص١٧-٢١.

(٨) انظر: جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص٣٩ وما يليها، وقارن بدوسوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ص١٧.

أما علومنا اللغوية فتخصّ لغتنا أساسًا، وما لها من ارتباط وثيق بالقرآن الكريم، ولذلك برزت صلة هذه العلوم بالتفسير والإعجاز والقراءات وغريب القرآن والحديث، والمشترك اللفظي والبلاغة والنظم وغير ذلك. ولأجل ما تقدّم وصفت هذه العلوم بأنها علوم «آلة»، لأنها وسيلة للفقيه والمفسّر وكلّ من تعاطى علوم الشريعة وما يلحق بها من فروع.

٣- واللسانيات حين استكملت مسيرتها مع مطلع القرن العشرين وما تلاه اتضحت مناهجها وثمرات درسها. فهناك المنهج المقارن (مطلع القرن التاسع عشر)، والمنهج التاريخي (أواخر القرن التاسع عشر)، والمنهج الوصفي (مطلع القرن العشرين)، والمنهج التقابلي (منتصف القرن العشرين تقريبًا) ولكل من هذه المناهج حدود ومصطلحات دقيقة. وقد أثمرت هذه المناهج بحوثًا مبتكرة في تصنيف اللغات وتاريخها، ووقفت على الكثير من القوانين التي تحكم تطوّر اللغة، ووصفت الجمّ الغفير من لغات العالم ولهجاته المتعددة، وحفظت العديد من آثار اللغات المندثرة، واللغات البدائية من غير تفضيل لِلّغة على لغة بحجة الانتشار أو الرقي أو العصبية[٩].

أما مناهجنا فالمعروف منها هو المنهج الوصفي الذي جمعت على أساسه اللغة الفصحى، ووُضعت له حدود للزمان والمكان والمستوى اللغوي، ثم استُخلصت القواعد، وأعمل القياس وظهرت كتب الأصول والعلل. لكن معايير الخطأ والصواب سرعان ما تحكّمت في تطوّر اللغة، وتوقف جمع اللغة من الناس، وسيطرت النزعة المعيارية، واتجهت الدراسات اتجاهًا تعليميا، وعُني القوم بالتثقيف اللغوي ومسائل لحن العامة والخاصة، وفاءً بمكانة لغة القرآن والحديث وآثار السلف. لكن هذه المناهج لم تمنع اللغة الفصحى من استيعاب العلوم وتوليد المصطلحات ومسايرة تطور الحياة والحضارة، والانفتاح على المولّد والمعرّب والدخيل بالقدر المطلوب. وهكذا استمرّ نموّ

(٩) انظر: مبادئ اللسانيات، ص١٥- ٢١.

الثروة اللفظية والدلالية من جهة، وتحوّل الوصف العلمي لعناصر اللغة في أصواتها وبنائها وقواعدها النحوية إلى أقيسة تتجاوز الارتباط بالزمان والمكان من جهة أخرى، فصارت لغتنا مثلاً فريدًا بين لغات العالم قديمًا وحديثًا(١٠).

٤- واللسانيات تُعنى باللهجات، ولا تفضل اللغة المشتركة (أو الرسمية أو الفصحى) عليها، كما كان سائدًا في العصور السابقة. فاللهجات على اختلافها وتعدّدها تمثل روح اللغة وحيوية المجتمع بحسب الموقف اللساني الحديث(١١).

أما مناهجنا المعيارية فتتوقف عند الفصيح من الكلام، ولا تهتمّ باللهجات بعد عصر الاحتجاج، لأنها تهدّد وحدة اللغة وتراثها. ولذلك شرع اللغويون في محاولات جادّة لردّ العامي إلى الفصيح، والتنبيه على أغلاط الكتّاب والمتعلّمين فضلاً عن الناس في معاملاتهم ومحاوراتهم. ومعروف أن مصنفي كتب اللحن لم يقصدوا التعبير عن أيّ استقلال للهجات الأمصار في المشرق والمغرب على حدّ سواء. كما لم يقدِّموا مادة تصلح لاستخلاص شيء من ذلك، وإن لم يقصدوه. والحق أن هناك عوامل قلّلت إلى حدٍّ بعيد من نشوء لهجات مستقلة منفصلة عن الفصحى، وهي القرآن الكريم والتراث الأدبي ومعيارية علوم اللغة واستمدادها قوّة تشبه معايير الحلال والحرام. وقد عملت هذه العوامل على إبقاء عناصر الثبات والاشتراك جامعة بين الأمصار العربية، وإن كانت بعيدة عن مركز انتشارها، أو منعزلة عمّا سواها، مع تطاول الزمان وتقلّب الدول(١٢).

(١٠) انظر: مازن المبارك، «العربية هوية ونسب»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٨٥)، الجزء الثاني نيسان ٢٠١٠، ص٣٤٩.

(١١) انظر: مبادئ اللسانيات، ص١٦.

(١٢) انظر: أحمد محمد قدّور، «تراث لحن العامة مصدراً من مصادر المعجم التاريخي»، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد (٤٠)، كانون الثاني وحزيران لعام ١٩٩١ (السنة الخامسة عشرة)، ص٩٠- ٩١.

٥– واللسانيات لها فروع تطبيقية كثيرة، كاللسانيات الاجتماعية (أو علم اللغة الاجتماعي)، واللسانيات النفسية (أو علم اللغة النفسي)، ونحو ذلك كاللسانيات الجغرافية والحاسوبية والإنثرولوجية والتربوية والعصبية والبيولوجية والرياضية، إضافة إلى الأسلوبية وأمراض الكلام وتعليم اللغات والترجمة وصناعة المعجم وغيرها(١٣).

أما علومنا فترصد الظواهر اللغوية ضمن الأطر الأدبية أو التطبيقية كالتفسير والبلاغة والإعجاز، أو الأصول والمصطلحات، ولا تمتدّ مثل ذلك الامتداد في اللسانيات، التي صارت فروعها التطبيقية محطّ أنظار الدارسين في علوم أخرى لم يكن لها باللغة صلة من قبل.

٦– واللسانيات استطاعت اكتشاف الكثير من «أصول» العربية التاريخية، ووصف أسرتها التي دعيت بالسامية– الحامية، **وهي العروبية حقا**، وتوصّلت إلى تحديد صلات القرابة والتشابه الجامعة لتلك اللغات المنسوبة إلى العروبة فعلاً. وقد ورثت اللسانيات الفيلولوجية، وأفادت من علم الآثار للوقوف على «المواد» اللغوية الضائعة أو المندثرة أو الموزعة في أمكنة متباعدة، وقراءتها وتصنيفها ورسم خطوط تطوّرها عبر الزمن(١٤).

أما علومنا فلم تقف على مثل ذلك، لعدم توفُّر أدوات الكشف والتنقيب الأثري، وغياب الاهتمام بالدراسات المقارنة، إلا ما ورد من عبارات مجتزأة أو مقارنات عابرة لم تستطع تقديم أدلة علمية على وجود «أسرة» لغوية عروبية.

---

(١٣) انظر: عبد السلام المسدّي، قاموس اللسانيات، ص١٥٥، ومحمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، ص١٥٥– ١٥٧، وعاطف مدكور، علم اللغة بين القديم والحديث، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٦، ص٥٩ وما يليها.

(١٤) انظر: قدّور، المدخل إلى فقه اللغة العربية، ص٣٧ وما يليها.

٧- واللسانيات لا ترتبط بتراث أو دين أو قوم، لأنها –كما تقدّم – علم عالمي يهتم بالملكة اللغوية، ويسعى إلى وصف اللغات الإنسانية والكشف عن قوانين تطوّرها، ولا يحدّه حدّ من قداسة ونحوها.

أما علومنا فهي تخدم لغتنا التي هي لسان قرآننا، بل إن هذه العلوم نشأت أصلاً خدمة للدين ومحافظة على تراث القوم ومآثرهم. ولذلك نهجت علومنا نهجًا معياريًّا لكيلا تنفصل اللغة عن القرآن، الذي يمثّل لها مادة «حية» في دوام قراءته ودرسه والتعبّد بآياته.

٣- الفيلولوجية وفقه اللغة

الفيلولوجية (Philologie) علم أوربي سبق اللسانيات ومهّد لها واشترك معها في بعض المجالات. وترجع الفيلولوجية إلى عام ١٦٩٠، ثم ١٧٧٧، ثم ١٨١٨ عندما استقرت دلالاتها إلى حدّ بعيد. وصارت تعني دراسة النصوص القديمة من حيث القواعد ومعاني المفردات، وما يتصل بذلك من شروح وإشارات تاريخية وجغرافية. فكان عنصر القدم من أهمّ عناصرها. وكان هدف الفيلولوجية من دراسة النصوص إعادة تشكيل اللغات المنقرضة، واتخاذ اللغات المدروسة وسيلة إلى غاية أخرى هي الحضارة. ومع أن الفيلولوجية اتجهت نحو الاهتمام بالآثار والكتابات والنصوص القديمة، فقد بقيت مختلطة ببحوث اللسانيات حتى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وكذلك بقيت التسميات الفيلولوجية السابقة للسانيات مستعملة في معظم الجامعات الغربية، نحو «الفيلولوجية المقارنة»، وغيرها. مع أنّ مضمونها ومنهجها يمتان إلى اللسانيات حتمًا(١٥). وفي ضوء ما تقدّم يمكن تفسير ما وقع فيه أوائل الأساتذة في الجامعة المصرية حين اقتبسوا مباحث لسانية تخصّ اللغات القديمة،

(١٥) انظر: المرجع السابق، ص٢٢- ٢٣.

ونسبوها إلى الفيلولوجية التي ترجمت ترجمة حرفية إلى «فقه اللغة»، والتبست بفقه اللغة العربية. وقد أثار ذلك جملة من الآراء المتباينة حول صواب هذه الترجمة من عدمه، وحول صلاحها لكي تعم الدراسات اللغوية على اختلافها(١٦).

أما فقه اللغة عندنا فمعرفة خاصة باللغة العربية وحدها، نشأ في القرن الرابع للهجرة قريبًا من أصول النحو. وقد دلّت آثاره الرئيسة ككتاب «الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها» لابن فارس (ت٣٩٥)، وكتاب «الخصائص» لابن جني (ت٣٩٢هـ)، وكتاب «فقه اللغة وسرّ العربية» للثعالبي (٤٢٩هـ)، وكتاب «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» للسيوطي (ت٩١١هـ)، وبعض كتب اللغة والأصول الأخرى.. دلّت جميعًا على قصد واضح لبحث أصول اللغة جملة، وتاريخها، وخصائصها العامة، وبيان أسرار اللسان العربي وطرق العرب في بيانها، والوقوف على دلالات الألفاظ، وكشف ما فيها من دقة وإرهاف وإصابة للغرض. وواضح أنّ هذا النحو من المعارف اللغوية يختلف عن النحو والصرف والأصوات وتأليف المعاجم ونحو ذلك من مباحث لغوية. وقد أشار ابن جني إلى مثل ذلك صراحة، وراح ينشئ كتابه «الخصائص» على أسس أصول النحو وعلم الكلام وأصول الفقه لبيان خصائص اللغة العربية، وما ضمّته من مظاهر الإتقان والصنعة(١٧).

ولذلك كلّه نرى أنّ فقه اللغة عندنا يختلف أساسًا عن علوم اللغة من النحو والصرف وغيرهما، كما أنه يختلف عن الفيلولوجية واللسانيات اختلافًا أكبر، لتباين

(١٦) انظر: محمد أبو الفرج، مقدمة لدراسة فقه اللغة، ص٦، ١٤، ومحمد مصطفى رضوان، نظرات في اللغة، ص١٦-١٧، ومحمود فهمي حجازي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، ص٢٠، وتمام حسان، الأصول، ص٢٧١.

(١٧) انظر: ابن جني، الخصائص، مقدمة المحقق، ١/٤٠-٤١، والكتاب نفسه ١/٣٢، ٦٧، ٧٧، ١٦٣، و ٢/١٢٥، ١٣٣.

المبادئ وتناقض المناهج. ولا نرى فائدة تُرجى من البحث عن نقاط الاتفاق بين فقه اللغة وهذين العلمين الأجنبيين كما فعل بعض المحدثين(١٨). ولا بدّ دفعًا لأي التباس من الوقوف عند حدود المصطلحات المستعملة في هذا الصدد. فالفيلولوجية ينبغي أن تستعمل دخيلة دون ترجمة منبهة على الأصل والفرق. وفقه اللغة أو فقه اللغة العربية معرفة خاصة باللغة العربية وحدها، وهو في النتيجة مساوٍ لعلم أصول اللغة قياسًا على علم أصول النحو، مع قصد لبيان خصائص العربية ومراحل تطوّرها وتوجيه الاعتناء بها. أما استعمال مصطلح «فقه اللغة» للدلالة على الفيلولوجية أو اللسانيات وفروعها (كالدراسة المقارنة) فغير مقبول(١٩).

وليس مقبولاً كذلك أن يبحث أحد من الدارسين عن مصطلح بديل لفقه اللغة بحجة قدمه، أو عدم وفائه بالمضامين الجديدة، أو تشعّب مسائله التاريخية والدلالية في علوم ومباحث تعليمية. إنما ينبغي المحافظة عليه ورفده بالجديد، ورسم حدوده، وبيان موقعه من علوم اللغة، على نحو ما فعل تمام حسّان في كتابه «الأصول»(٢٠).

٤– أهمية اللسانيات للدرس اللغوي العربي

إنّ منطق التجديد الذي يحقّق نهضة الأمة يفرض أمرين مهمّين في وقت معًا، هما: الأول تحويل عناصر «التراث» من زمن إلى زمن، لتتفاعل مع الحاضر وتسهم معه في صنع المستقبل وفقًا لما تحمله من طاقة وحيوية وجدوى، وهو ما يعبّر عنه عادة بمصطلح «الإحياء»، والثاني تلقي العلوم والمعارف والمناهج الوافدة على أساس الرفد والإغناء من دون عُقَد نقص، أو نوازع استعلاء. ويوضح هذا المنطق ما أشرنا إليه في

(١٨) انظر: كتاب فقه اللغة في الكتب العربية لعبده الراجحي (مصدر سابق).

(١٩) انظر: المدخل إلى فقه اللغة العربية، ص٢٤– ٢٥.

(٢٠) انظر: تمام حسان، الأصول، ص٢٦٣– ٢٧٥.

مطلع هذه المقالة من وجهتي نظر أو موقفين إزاء اللسانيات وعلوم اللغة. إذ لا يجوز أن تبقى هذه المسالة نهبًا موزعًا بين وجهتي نظر بسيطتين ومفرطتين في الحماسة(٢١).

ومع أنّ ما أثير حول اللسانيات من آراء متناقضة استمرّ زمنًا ليس باليسير (من آخر ستينيات القرن الماضي، إلى نهاية التسعينيات)، وما برز من أزمات أو عقبات لم يكن سهلاً، فإن اللسانيات اتخذت من خلال الاقتباس والترجمة والتأليف والتوظيف سبيلها إلى علومنا اللغوية عبر المصطلحات والمناهج والمفاهيم «الإبستيمولوجية» والموادّ العلمية (على صعيد الدراسة اللغوية الخالصة) والعلوم الجديدة، ولا سيّما في المجالات التطبيقية المتعدّدة.

ويمكن بالنظر إلى المجالات العلمية الإشارة إلى ما أفادته علومنا من اللسانيات حقيقة، من دون التوسّع في المسائل الخلافية ووجهات الرأي النظرية.

أما على صعيد المناهج العلمية، فيلاحظ الباحث أنّ أساتذة اللغة الذين درسوا في الغرب اقتبسوا المنهج الوصفي السائد في اللسانيات، وأرادوا فرضه على الدرس العربي قديمه وحديثه، فأحدثوا مشكلة الانقسام بين المعيارية والوصفية، وما لابس ذلك من خلط منهجي وتحريف مبدئي تولدت عنهما مجموعة من البحوث والمقالات، التي لم تنصف العربية وعلومها ولم تخدم اللسانيات وتسهّل اقتباسها(٢٢).

(٢١) اقتباس بتصرف من كتاب: «القدس» لحسام الخطيب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٠، ص١٦٣– ١٦٧، وكلام أستاذنا الخطيب عامّ يشمل التراث ومسائله.

(٢٢) انظر: عبدالسلام المسدّي، اللسانيات وأسسها المعرفية (مصدر سابق)، ص١٣– ١٤.

وربما كان موقف تمام حسان– وهو أحد روّاد الدراسات اللغوية الحديثة– من هذه المشكلة هو الذي يضعها في مكانها الحقيقي(٢٣). إذ إنّ اختلاف موقف المتعلم والمعلّم من اللّغة، عن موقف الباحث أو العالم اللغوي هو الذي يخلّص المرء من ذلك التناقض الموهوم. فالمتكلم لابدّ أن يراعي معايير اللغة سليقة أو تعلمًا، وليس له أن يخرج عنها، لأن المواضعة والعقد الاجتماعي والسلوك تتحول إلى تقليد محفوظ وعادة متبعة. وفي ضوء هذا الفهم يفسّر موقف المعلّم الذي يحرس هذه المعايير ويلقنها للأجيال، استمرارًا للتواصل وجمعًا على الأسس ومراعاة للخصائص. وليس في موقف المتعلم أو المعلّم ما هو مطلوب غير الذي تقدم. أما الباحث أو العالم فيفترض فيه أن يراعي الوصف المحايد، إذ يقوم عمله على الملاحظة والاستقراء واستخلاص القواعد التي تستنتج ولا تفرض. وليس له أن يحكم على أيّ شيء من ذلك بمعايير القبول والرفض أو الخطأ والصواب. لكنّ تطبيق هذين الموقفين على اللغة العربية وعلومها لابدّ أن يظهر فروقًا يجب أن تراعى. إذ إن هذه اللغة –كما سبقت الإشارة – تمثّل حالة فريدة بين اللغات، وذلك بارتباطها بالقرآن الكريم. ولذلك سرعان ما اتحد عمل المعلّم والعالم إزاءها، وصار البحث منصبا على الجائز وغير الجائز، وعلى وضع شروط وضوابط فرعية متعددة تقيّد الكلام العربي الفصيح.

ولسنا نقول في هذا الصدد إنّ عمل علمائنا لم يكن علميا، لأنهم اقتصروا على الفصيح وحده، ولأنهم كانوا معياريين، واللسانيات تنبذ أيّ موقف معياري، وتمسك عن إصدار الأحكام وعن «التقييم» مدحًا أو ذما، وعن التقويم خطأ أو صوابًا. بل نقول: إنّ عملهم العلمي كان مراعيًا للغتهم وظروفها والغاية منها في إطار المجتمع الإسلامي، وإنّ ما أنجزوه فاق كلّ ما أنجزته الشعوب القديمة في دراسة لغاتها والوقوف

(٢٣) انظر: كتابه، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص٢٩ وما يليها.

على خصائصها والحفاظ على آثارها. والباب مفتوح — وينبغي أن يبقى كذلك — لدراسات وصفية تتناول مصادر اللغة الفصحى قديمًا وحديثًا لغايات علمية صرفة. أما التوظيف العملي فينبغي أن يبقى في إطار معايير اللغة وقواعدها وأقيستها، كلّما كان هناك حديث جدّي في أي مجال من مجالات الحياة، أو كتابة في الصحف والنشرات، أو بحث في العلوم والمصطلحات، أو إبداع في الأدب وفنونه. أما بقية المناهج اللسانية، كالمنهج التاريخي والمقارن والتقابلي فلم تلق مثل تلك المواجهة بين الوصفية والمعيارية. ولا شكّ في مبلغ الفائدة التي تولّدها تطبيقات المنهج التاريخي التي ترصد تطور اللغة عبر الزمن، وتكشف حلقات مهمّة منه، لا يجوز أن يمرّ بها الباحث من غير تأنٍ أو فحص دقيق، وكذلك يمكن أن يقال عن المنهج التقابلي الذي توظَّف تطبيقاتُه في فن تعليم اللغات لغير الناطقين بها، وهو أحد فروع اللسانيات التطبيقية التي تعود على درسنا بالمزيد من التوسّع، وتَسُدُّ حاجات ماسة جديدة في حياتنا.

أما المنهج المقارن الذي رأينا نشأته المبكرة في الدرسين الفيلولوجي واللساني فلا يماري أحد فيما قدّمه من مواد علمية وطرق منهجية، تضاف إلى علومنا اللغوية وتكمل ما فاتها. ومعروف أنه منذ مطلع القرن العشرين بدأت تترجم إلى العربية المواد المتعلقة باللغات السامية، أي العروبية، وكتاباتها وأبرز ماكشف من نقوشها. ومن أوائل ذلك «تاريخ اللغات السامية» لولفنسون الذي ألّفه بالعربية، وكتاب «فقه اللغة» لعلي عبد الواحد وافي الذي عرّف فيه باللغات السامية وفروعها كالأكادية والكنعانية والآرامية واليمنية والحبشية ولغاتها ولهجاتها. وبرز من هذا النحو آثار لجويدي وبروكلمان ونولدكه وموسكاتي وغيرهم، ومؤلفات للسيد يعقوب بكر وحسن ظاظا وإبراهيم السامرائي ومحمود فهمي حجازي، ومَن تبعهم. فضلاً عن مؤلفات

خاصة بالآثار وتاريخ الوطن العربي والحضارات القديمة[٢٤]. وقد أضاف هذا الدرس المقارن اختصاصًا لغويًّا جديدًا هو «اللغات السامية» أو العروبية التي صارت تدرّس في الجامعات العربية وتوضع فيها الرسائل العلمية. ولا شكّ في أنّ الدرس المقارن عاد على المعرَّب عندنا بأعظم الفوائد، لأنه بيَّن أصوله ومصادره، وأخرجه من دائرة الروايات والظنون[٢٥]. كما عاد على تاريخ اللغة العربية وأصولها القديمة بالكثير من المعلومات الموثوق بها.

وتنفرد المصطلحات بجانب مهمّ من جوانب الإفادة من اللسانيات. فقد بدأت المصطلحات الجديدة تظهر منذ مطلع الأربعينيات مع كتابي علي عبد الواحد وافي بطرق شتى، منها الدخيل والمعرّب والمولّد حديثًا[٢٦]. ومع أن مصطلحات اللسانيات مثلت مشكلة من مشكلات الدرس اللساني عندنا، فإن ما ظهر من معاجم خاصّة بها قلّل من تبعات هذه المشكلة، ودفع بها نحو الحلّ تدريجًا. وهكذا جاءت معاجم

(٢٤) من ذلك ما وضعه جويدي من كتاب (١٩٢٩) بعنوان: مختصر علم اللغة العربية الجنوبية، وما نشره خليل يحيى نامي من نقوش سامية وبحوث في أصل الخط العربي (١٩٣٤، ١٩٤٣)، وما ألفه عبد المجيد عابدين عن الأمثال ومقارنتها بالآداب السامية (١٩٥٦)، وما ترجمه رمضان عبد التواب، ككتاب اللغات السامية لنولدكه (١٩٦٣)، وكتاب فقه اللغات السامية لبروكلمان (١٩٧٧). وكذلك ترجمة السيّد يعقوب بكر لكتاب موسكاتي بعنوان الحضارات السامية القديمة (١٩٨٦). ومن المؤلفات الأخرى نذكر كتاب الساميون ولغاتهم لحسن ظاظا، وفقه اللغة المقارن لإبراهيم السامرائي، وعلم اللغة العربية لمحمود فهمي حجازي، ودراسات في فقه اللغة العربية للسيد يعقوب بكر وغير ذلك كثير.

(٢٥) ينظر في هذا الصدد ما صنعه السيد عبد الرحيم في تحقيقه لكلمات كتاب المعرّب للجواليقي.

(٢٦) هما كتاب علم اللغة وكتاب فقه اللغة الصادران مطلع الأربعينيات.

المصطلحات اللسانية تقعيدًا لتطور هذا العلم الوليد، وسعيًا إلى تلافي ما يعانيه من قصور. وقد انطلق معظم هذه المعاجم انطلاقًا صحيحًا، إذ عمد إلى الوصف والجمع والتصنيف قصدًا إلى التوحيد. ولا يماري أحد في أهمية المصطلحات اللسانية الجديدة التي أضيفت إلى مصطلحاتنا اللغوية عبر وسائل التعريب والاشتقاق والتوليد الدلالي، وصارت جزءًا من أدوات العلم المتداولة لدى الباحثين في مختلف فروع اللسانيات النظرية والتطبيقية. ويمكن للباحث أن يذكر عشرات بل مئات المصطلحات التي تستعمل في اللغة العربية حديثًا من دون تلكؤ أو تردّد. ومن هذا النحو مثلاً بتنا نقول: علم الأصوات النطقي، والمخبري، والفيزيائي، والسمعي، والصوامت والصوائت، ومستويات اللغة، والحقول الدلالية، ونظرية السياق، والأسرة اللغوية، وصناعة المعجم، والقواعد التوليدية والتحويلية، وسياق الموقف، والعلاقات الدلالية، والبنية العميقة والبنية السطحية، والألفبائية الصوتية، والرمز اللغوي، واللواحق والسوابق وغيرها، كالأسلوبية وعلم النص والتلقي، والسيميائية، والبنيوية والتفكيكية والتناصّ، ونحو ذلك. ونقول: الفونيم والمورفيم والألفون، كما نقول: وحدة صوتية ووحدة صرفية وصورة صوتية(٢٧).

إنّ ما أضافته المصطلحات اللسانية إلى درسنا صار رافدًا من روافد المعجم العربي الحديث، وشاهدًا على تطوّر اللغة وتلقي العلوم الوافدة. فقد شرع مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ عام ١٩٦٢ في إصدار مجموعات من المصطلحات اللغوية في فروع الدراسات اللغوية ولا سيما علم الأصوات. كما عمد المؤلفون من أهل الاختصاص إلى تأليف معاجم للمصطلحات الجديدة في اللسانيات، في المغرب والمشرق على حدّ

(٢٧) انظر حول مشكلات المصطلح اللساني كتابي: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ص١١–٣٧.

سواء. نذكر من هؤلاء محمد رشاد الحمزاوي وعبدالرسول شاني ومحمد علي الخولي وعبد السلام المسدّي وبسام بركة ورمزي منير البعلبكي(٢٨).

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ عمل مجامع اللغة في هذا الصدد، على أهميته، لم يحقق الفائدة المرجوة منه، لأن مراكز البحوث والجامعات لا تولي المصطلح العلمي عامة ما يستحقّه، ولا تبادر إلى استخلاص ما أثمرته الجهود المضنية للّغويين وأصحاب الاختصاصات العلمية. ولذلك بقيت الجهود تضيع في التجاهل أو التكرار في غياب فاعلية جهات التنسيق أو العمل المشترك، والافتقار إلى آلية لِعمل«مكنز» مصطلحات معتمدة يوضع على الشابكة، ويرفد بكل جديد.

أما ما أضافته اللسانيات على صعيد الأطر العلمية والإبستمولوجية، وتحديث بعض علومنا اللغوية فهو من الأهمية البالغة بمكان. وأول مايذكر في هذا الصدد استعارة النماذج (Paradigmes) اللسانية لإعادة تشكيل بعض علومنا اللغوية التي كانت تحفل بالمعطيات العلمية، من دون أن تصل إلى حدّ يصحّ فيه أن تدعى علومًا مضبوطة. مثال ذلك: الدلالة والأصوات والمعجم والمصطلح. إذ إنّ كلّ واحد من هذه المعارف يحتاج إلى أطر ونماذج جديدة لوضع المعطيات القديمة وضعًا يجعلها علومًا بالمعنى الدقيق لمصطلح العلم. وعلى هذا النحو جرت دراسات وجهود كثيرة لإنشاء علوم للدلالة، والأصوات بفروعها، ودراسة المعجم والمصطلح وقضاياه.

(٢٨) أصدر مجمع القاهرة مصطلحات لغوية عام ١٩٦٢، ومصطلحات لعلم الأصوات عام ١٩٦٥ بداية، وصنّف الحمزاوي معجمًا للمصطلحات اللغوية الحديثة عام ١٩٧٧، كما جمع شاني ما سمّاه معجمًا لعلوم اللغة عام ١٩٧٧ أيضًا، أما الخولي فقد أصدر معجم علم اللغة النظري عام ١٩٨٢، ومعجم علم اللغة التطبيقي عام ١٩٨٦، كما أصدر معجم علم الأصوات عام ١٩٨٢. وأصدر المسدّي قاموس اللسانيات عام ١٩٨٤، وبركة قاموس اللسانية عام ١٩٨٥، والبعلبكي معجم المصطلحات اللغوية عام ١٩٩٠.

وبذلك تصبح علومنا اللغوية كافة علومًا مضبوطة كالنحو والصرف تمامًا[٢٩].

ويتجاوز أثر اللسانيات تلك الإضافة على أهميتها إلى إحداث علوم جديدة، نحو اللسانيات العامة (أو علم اللغة العام)، وتاريخ اللسانيات (أو تاريخ علم اللغة العالمي)، ومعظم فروع اللسانيات التطبيقية، وأبرزها اللسانيات الاجتماعية (أو علم اللغة الاجتماعي)، واللسانيات النفسية (أو علم اللغة النفسي)، واللسانيات الجغرافية (أو علم اللغة الجغرافي)، واللسانيات التربوية (أو علم اللغة التربوي). ومن هذا النحو من الفروع المستقرّة: علم اللهجات وعلم أمراض الكلام وعلم النصّ والأسلوبية والترجمة وفنّ تعليم اللغات[٣٠].

وهكذا يتبين موقع اللسانيات من علومنا، إذ أضافت اللسانيات إلى هذه العلوم الشيء الكثير من دون أن تُلغي شيئًا قديمًا لقدمه. أما ما ورد في سياق المراجعة وإعادة النظر في المسائل العلمية فأمر طبيعي يجري في كل العلوم الحيّة. على أن الأمل معقود على تكييف (Adaptation) المعطيات اللسانية حتى لا تبقى اللسانيات علمًا أجنبيا

(٢٩) يذكر في هذا الصدد ما ألفه إبراهيم أنيس من كتاب دلالة الألفاظ عام ١٩٥٨ وكتاب الأصوات اللغوية عام ١٩٤٧، وألفه علي القاسمي في كتابه مقدّمة في علم المصطلح عام ١٩٨٥، والحمزاوي في كتاب المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها عام ١٩٨٦، وفي كتاب من قضايا المعجم العربي قديمًا وحديثًا ١٩٨٣، وما وضعه المسدي في مقدمة كتابه قاموس اللسانيات من مقدمة في علم المصطلح عام ١٩٨٤، وما ألفه أحمد مختار عمر في كتاب علم الدلالة ١٩٨٢، ونحو ذلك ممّن نحا هذا النحو التجديدي ككتاب الأسس اللغوية لعلم المصطلح لمحمود فهمي حجازي وغيره.

(٣٠) انظر: المسدي، قاموس اللسانيات، ص١٥٥، والخولي، معجم علم اللغة النظري، ص١٥٥– ١٥٧، وعاطف مدكور، علم اللغة بين القديم والحديث، ص٤٢– ٥٢، وص٥٩ وما يليها.

لايتعدى دورنا فيه حدود الترجمة والاقتباس. وربما تحسن الإشارة هنا إلى أثر درس العربية في ضوء اللسانيات، وهو كتاب «اللغة العربية معناها ومبناها» للعلامة تمّام حسان، وهو مبني على معرفة ووعي بإنجازات علمائنا في كلّ مجال درسي من مجالات العربية، وفهم واضح لمناهج الدرس اللساني ومقاصده ومدى ما ينطوي عليه من فائدة، ومن هذا النحو جاء كتاب «التفكير اللساني في الحضارة العربية» لعبد السلام المسدّي الذي وقف فيه على موادّ تراثية مختلفة وصنفها تصنيفًا لسانيا حديثًا لتقريب الشقة بين القديم والحديث، والإسهام في مسيرة اللسانيات العالمية بالتعريف بالكثير من جهود علمائنا وما حققته من سبق(٣١).

والخلاصة هي أنه لا خوف على علومنا الموروثة كالنحو والصّرف، ولا تجاوز لوظيفتها في المحافظة على العربية الفصحى، ولا خوف على المعطيات والمعارف اللغوية الأخرى مادام الموقف من اللسانيات موقفًا علميا واعيًا، عماده الإغناء والتوسّع والتصحيح، مع بقاء الأسس التي أرستها علومنا راسخة، والوظائف التي نهضت بها مستمرّة. وفي الحق أن ما بعثته اللسانيات في علومنا من عوامل نهوض ليس قليلاً، لكنّ الحديث عن نهضة لغوية حقيقية مازال بعيدًا. إنّ واقع لغتنا ومستوى علومنا ما هو إلا تعبير عن وعينا، وامتلاكنا للقدرة العلمية التي تتجلى في البحث العلمي والتعليم العالي. ولن يتحقق شيء ذو بال من هذه القدرة ما لم تتفق الجامعات ومراكز البحوث المعنية ومجامع اللغة العربية على «سياسة» لغوية محدّدة تعطي اللغة مكانتها في بناء الحضارة والحفاظ على الهوية وبلوغ التحديث المطلوب.

(٣١) انظر: كتاب اللغة معناها ومبناها لتمام حسّان، القاهرة ١٩٧٣، وكتاب التفكير اللساني للمسدّي، تونس ١٩٨١. وقليلة هي الكتب التي نحت هذا النحو الواضح العميق.

الأفعال الرباعية
نشوؤُها واستعمالها

د. ظافر يوسف(*)

تُقسم الأفعال في العربية إلى مجردة ومزيدٍ فيها. والمجردة إما ثلاثية وإما رباعية. وكل منها ينتهي بالزيادة إلى ستة أحرف.(١)

والأبنية الأساسية للأفعال، المجرَّدة والمزيدة، تسعة عشر بناء،(٢) يُضاف إليها مختلف فيه من الأبنية المُلحقة بها، علمًا أن الإلحاق لا يكون إلا بالرباعي مجرَّدًا أو مزيداً، أما الثلاثي فلا تُلحق به الأبنية الفعلية.

فالأفعال الرباعية إذن نوعٌ قائم بذاته، ولها استعمالاتها الخاصة، ووظائفها الدلالية، ومعانيها المعجمية، وحضورها المستقلّ في اللغة.

(*) أستاذ النحو والصرف واللغات السامية في جامعة حلب.

(١) ابن عقيل، بهاء الدين: شرحه على ألفية ابن مالك. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت ٢٠٠٥، ٢: ٥٤٩.

(٢) ابن القطاع الصقلّي: أبنية الأسماء والأفعال والمصادر. تحقيق: الدكتور أحمد محمد عبد الدايم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٩، ص٣٣٥؛ وابن يعيش: شرح المفصل، مكتبة المتنبي، القاهرة، دون تاريخ، ٧: ١٥٢؛ والرضي، رضي الدين الأستراباذي: شرح شافية ابن الحاجب. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ورفاقه، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥، ١: ٦٧؛ وابن عقيل ٢: ٥٤٩؛ والسيوطي: المزهر، تحقيق: محمد جاد المولى ورفاقه، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت ١٩٨٧، ٢: ٤٠.

وفي هذا البحث سأتناول الأفعال الرباعية، المجرَّدة والمزيدة، وما يُلحقَ بها، حيث أعرضُ أولاً أبنيتها وأبنية الأفعال المُلحَقة بها، ثم أتحدَّث عن نشأتها واشتقاقها، وأخيراً أتحدَّث عن وظائفها التي تؤدِّيها في اللغة.

أبنية الأفعال الرباعية

للأفعال الرباعية أربعة أبنية أساسية، وعدد مُختَلَفٌ فيه من الأبنية الملحقة بها. وفيما يلي عرض لكلٍّ منها.

أولاً– الأبنية الرباعية الأساسية:

وهي أربعة أبنية، واحد منها للأفعال المجرَّدة هو « **فَعْلَل** ». أما المزيدة فهي إما مزيدة بحرف واحد، ولها بناء واحد هو « **تَفعلَل** »، وإما مزيدة بحرفين ولها بناءان هما « **افْعَلَلَّ** » و« **افْعَنْلَلَ** ».

١– « **فَعْلَل** »:(٣) وهو رباعيٌّ مجرَّد، يُستعمل لازماً ومتعدِّياً. وهذا البناء ليس له معانٍ وظيفية يختص بالدلالة عليها، كما هو الشأن في الأبنية المزيدة، لذلك تقتصر دلالة أفعاله على الحدث الذي تتضمَّنه فقط، وليس لها دلالات إضافية أخرى.

والأفعال التي تنتمي إلى هذا البناء يُمكن تصنيفها في مجموعات دلالية، تبعًا لدلالة الحدث الذي تتضمنه، على النحو التالي:

أ– إذا كانت أفعال هذا البناء لازمة فالغالب عليها أن تكون دالّةً على **إقامة** نحو «عَسكَرَ»، أو **نَظَرٍ** نحو « حَملَقَ »، أو **سُلُوك** نحو « عَربَدَ »، أو **صوت** نحو «زَغرَدَ».

ب– وإذا كانت تلك الأفعال متعدِّية فالغالب عليها أن تكون دالةً على **تَحريك شيء** نحو: دَحرَجَ وبَعثَرَ وزَعزَعَ وقَلقَل وزَحلَق، أو تكون دالّة على **تلوين شيء** نحو:

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل ٧: ١٦٢؛ وابن عصفور: الممتع في التصريف، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط١، المكتبة العربية، حلب ١٩٧٠، ١: ١٨٠؛ والرضي: شرح الشافية ١: ١١٣؛ وقباوة: تصريف الأسماء والأفعال، ط٣، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٨، ص ٩٥.

بَرقَشَ وعَندَمَ وعَظلَمَ.(٤)

٢– « **تَفَعْلَل** »:(٥) وهو رباعي مزيد بالتاء، لا يأتي إلا لازماً، لأنه مُطاوع للفعل الذي دخلت عليه التاء، والذي يكون قبل دخولها متعدِّياً إلى مفعول به واحد، نحو: دَحرَجتُهُ فتَدَحرَجَ، وبَعثَرتُهُ فتَبَعثَرَ. وإذا كان الرباعي المجرد لازماً، نحو: زَقزَقَ وقَرقَرَ فلا تدخله تاء المطاوعة. فوجود الأفعال التي تنتمي إلى هذا البناء مرتبط بوجود أفعال رباعية مجرَّدة متعدِّية **حقيقة أو تقديراً**.

٣– « **افعَلَلَّ** »:(٦) وهو رباعي مزيد بالهمزة والتضعيف، لا يأتي إلا لازماً، لأنه في الرباعي نظير« افْعَلَّ » في الثلاثي،(٧) نحو: اطمأنَّ واقشَعَرَّ واضمَحَلَّ.

٤– « **افعَنْلَلَ** »:(٨) وهو رباعي مزيد بالهمزة والنون، لا يُستعمل إلا لازماً، لأنه في الرباعي نظير « انفَعَلَ » في الثلاثي، إذ المراد به المطاوعة،(٩) نحو: احرَنجَمَ وافرَنقَعَ.(١٠)

والذي يُلاحظ على الأبنية الأربعة السابقة ما يلي:

١– أكثرها استعمالاً في اللغة هو «**فَعْلَل**»، يليه في الاستعمال مُطاوِعُه

(٤) برقَشَ الشَّيءَ: نقَشَه بألوان شتى. وعَندَمَ الشيءَ: صَبغَه بعصارة العَندم، والعندم: شجرٌ ذو لحاء أحمر. وعَظلَمَ الشَّيءَ: صبَغَه بالعِظْلم، والعِظلم: شَجَرٌ عصارته خضراء إلى الكُدرة.

(٥) ابن القطاع: الأبنية ص٣٣٩؛ والرضي: شرح الشافية ١: ١١٣؛ وابن عصفور: الممتع في التصريف ١: ١٨١.

(٦) ابن القطاع: الأبنية ص ٣٣٩؛ والزمخشري: المفصل ص٢٨٢؛ والرضي: شرح الشافية ١: ١١٣؛ وابن عصفور: الممتع في التصريف ١: ١٩٦.

(٧) ابن يعيش: شرح المفصل ٧: ١٦٢.

(٨) ابن القطاع: الأبنية ص٣٣٩؛ والزمخشري: المفصل ص٢٨٢؛ والرضي: شرح الشافية ١: ١١٣؛ وابن عصفور: الممتع في التصريف ١: ١٨٥.

(٩) ابن يعيش: شرح المفصل ٧: ١٦٢.

(١٠) احرَنجَمَ القومُ: ازدحموا. وافرَنقَعَ القومُ: تَفَرَّقوا.

«**تَفَعْلَل**»، ثم «**افْعَلَلَّ**»، وأخيراً «**افعَنْلَلَ**».

٢- البناء الثالث « **افْعَلَلَّ** » جاءت عليه أفعال قليلة، بعضها ما يزال مُستعمَلاً حتى الآن مثل: اطمأنَّ واقشعَرَّ، ويتَّصف عمومًا بقلة الاستعمال. أما الأبنية الفعلية التي أُلحقت به فتُوصَف بالغرابة والنُّدرة.

٣- البناء الأخير « **افعَنْلَلَ** » من الأبنية النادرة، إذ لم تجئ عليه إلا أفعال قليلة سُمعت عن العرب، ولم يكن له حضور في الاستعمالات اللغوية في عصور التوليد، ولم يُوظَّف في مجال العلوم والمصطلحات، وكذلك الشأن في الأبنية التي أُلحقت به.

٤- الأبنية الثلاثة الأخيرة هي أبنية تابعةٌ للمجرَّد « **فَعْلَل** »، لأنها تستمدُّ دلالتها منه، مُضافًا إليها معنى المطاوعة الذي تدلُّ عليه أحرف الزيادة.

٥- البناء الرباعي المجرَّد « **فَعْلَل** » هو أصل الأبنية الرباعية المزيدة، وذلك لأن الزيادات على هذا البناء لا تُفيد إلا معنى المطاوَعة غالباً، أما الدلالة الأساسية للأفعال المزيدة فمرتبطة حقيقةً أو تقديراً بالرباعي المجرَّد.

ثانيًا- أبنية الأفعال الرباعية المُلحَقة:

يُعرَّف **الإلحاق** بأنه:[١١] زيادة حرف أو حرفين في بنية الكلمة، سواء كانت أم فعلاً، لتصير بتلك الزيادة موازنة لغيرها من الناحية الشكلية، أي في عدد الحروف وترتيب الحركات والسكنات. والغرض من زيادة الإلحاق، في رأي النحاة، التوسع في اللغة، لا إفادة معنى جديد.

ويُلحق ببناء « **فعلَل** » أبنية كثيرة أصلها من الثلاثي، وأشهرها:[١٢]

(١١) ابن يعيش: شرح المفصل ٧: ١٥٥؛ والرضي: شرح الشافية ١: ٥٢؛ وقباوة: تصريف الأسماء والأفعال ص ١٠٦-١٠٧.

(١٢) ابن يعيش: شرح الملوكي في التصريف ص ٦٥ ؛ وابن الناظم: شرح لامية الأفعال ص ٧٤- ٨٤ ؛ والرضي: شرح الشافية ١: ٦٧- ٦٩ ؛ وقباوة: تصريف الأسماء والأفعال ص ٧٤.

– « **فَعْلَلَ** » نحو: جَلبَبَ وشَمْلَلَ. وهما مُلحَقان بـ « دَحرَجَ »، إذ إن إحدى اللامين زائدة، لأن هذين المثالين هما من الجَلب والشَّمل. وزيادة اللام فيهما لم تكن لإفادة معنى، وإنما للإلحاق فحسب. وهذا البناء، شأنه شأن الرباعي المجرد، منه المتعدي نحو: جَلبَبْتُهُ إذا ألبَستُهُ الجلبابَ، ومنه اللازم نحو: شَمْلَلَ شَمْلَلَةً إذا أسرع.(١٣)

– «**فَيْعَلَ**» نحو: سَيطَرَ وهَيمَنَ وبَيطَرَ. وهو ملحق بـ« دَحرَجَ » بزيادة الياء بعد الفاء، ويكون مثله متعدياً نحو: بَيطَرَ الدّابّةَ، ولازماً نحو: سَيطَرَ.

– «**فَوْعَلَ**»: وهو ملحق بـ «دَحرَجَ» بزيادة الواو بعد الفاء. ويكون متعدِّياً نحو: صَومَعْتُهُ إذا سَوَّيتُ له صَومَعةً، ولازماً نحو: حَوقَلَ الرَّجلُ إذا كَبِرَ وعَجَزَ عن الجِماع.

– «**فَعْوَلَ**»: وهو ملحق بـ «دَحرَجَ» بزيادة الواو بعد العين. ويكون متعدِّياً نحو: عَنوَنتُ الكتابَ، ولازماً نحو: هَروَلَ.

وهناك أبنية أخرى ملحقة بـ «دَحرَجَ»، ولكن لا يُعتدُّ بها، « لغرابتها وكونها من الشواذ».(١٤)

ويُلحق ببناء « **تَفَعْلَل** » أبنية كثيرة أصلها من الثلاثي، وأشهرها: (١٥)

– « **تَفَعْلَلَ** » نحو: تَجَلبَبَ وتَمَعدَدَ. (١٦)

– « **تَفَوْعَلَ** » نحو: تَجَورَبَ وتَكَوثَرَ. (١٧)

---

(١٣) ابن منظور: لسان العرب (جلب) و(شمل). ويُقال: شَمْلَلَ النَّخلةَ، إذا أخذ ما بقي عليها من التمر. فهو متعدٍّ.

(١٤) يُنظر الرضي: شرح الشافية ١: ٦٩.

(١٥) ابن يعيش: شرح المفصل ٧: ١٥٥– ١٥٦؛ والرضي: شرح الشافية ١: ٦٧– ٦٨؛ وقباوة: تصريف الأسماء والأفعال ص ١٠٠.

(١٦) تمعدَد: تكلَّم بكلام مَعَدّ.

(١٧) تجورَبَ: لبس الجَورَب. وتَكَوثَر الغبارُ إذا كثُر.

– « **تَفَيْعَلَ** » نحو: تَشَيطَنَ وتَفَيهَقَ. (١٨)

– « **تَمَفْعَلَ** » نحو: تَمَسكَنَ وتَمَندَلَ. (١٩)

وهناك أبنية أخرى مثل « **تَفَعْنَلَ** »: تَقَلنَسَ، و« **تَفَعْلَتَ** »: تَعَفرَتَ.

ويُشار إلى أن التاء في هذه الأبنية ليست حرف إلحاق، لأنها دخلت هذه الأبنية للمطاوعة، كما دخلت نحو: تَدَحرَجَ وتَبَعثَرَ. وإنما أحرف الإلحاق هنا هي نفسها التي أُلحقت بها هذه الأبنية، حين كانت مجردة من التاء، بالرباعي المجرد «**فَعْلَلَ**». (٢٠)

وذهب بعضُ النحاة إلى أن « **تَفاعَلَ** » نحو: تَجاهَلَ وتَجاوَزَ، و«**تَفَعَّلَ**» نحو: تَعَلَّمَ وتَمَرَّدَ، هما ملحقان بـ«تَدَحرَجَ»، لكن المشهور أن هذين البناءين ليسا ملحقَين بـ«تَدَحرَجَ». قال ابن يعيش: «وكذلك تَغافَلَ ليست الألف للإلحاق، لأن الألف لا تكون حشواً مُلحِقة، لأنها مَدَّةٌ محضة، فلا تقع موقع غيرها من الحروف، إنما تكون للإلحاق إذا وقعت آخراً لنقص المدّ فيها، مع أن حقيقة الإلحاق إذا وقع آخراً إنما هو بالياء، لكنها صارت ألفاً لوقوعها موقع متحرِّك وقبلها فتحة. و«تَكَلَّمَ» كذلك تضعيف العين لا يكون مُلحِقاً». (٢١)

وعلى هذا يمكن الحكم على هذين البناءين بأنهما من الأبنية الأساسية التسعة عشر، وليسا مُلحَقَين بـ « تَدَحرَجَ ».

---

(١٨) تفيهق في كلامه: تنطَّع فيه.

(١٩) تمسكن: تشبَّه بالمساكين. وتمندَل: تمسَّحَ بالمنديل. وقيل: إن نحو: تمسكن وتمندل أصلهما: تَسَكَّنَ وتَنَدَّلَ، فزيدت فيهما الميم من قبيل الغلط. وعلى هذا فهما على وزن « تَفَعَّل». يُنظر ابن يعيش: شرح المفصل ٧: ١٥٦ ؛ والرضي: شرح الشافية ١: ٥٧– ٥٨.

(٢٠) ابن يعيش: شرح المفصل ٧: ١٥٦.

(٢١) ابن يعيش: شرح المفصل ٧: ١٥٦. ويُنظر الرضي: شرح الشافية ١: ٥٨ و٦٨.

ويُلحق بـ « **افْعَلَلّ** » بناءان هما: (٢٢)

– « **افْوَعَلَّ** » نحو: اكوَهَدَّ واكوَأَلَّ. (٢٣)

و– « **افْعَلَلَّ** » نحو: ابيَضَضَّ واسوَدَدَّ.

ويُلحق بـ « **افعَنْلَل** » عدة أبنية أهمها بناءان هما: (٢٤)

« **افْعَنلَلَ** » كاقعَنسَسَ واسحَنكَكَ. (٢٥)

– و« **افْعَنْلَى** » كاسلَنقَى واحرَنبَى. (٢٦)

والذي يُلاحظ على الأبنية الرباعية الملحقة أنها تُشبه الأبنيةَ التي أُلحقت بها من حيث كثرة الاستعمال وقلته ونُدرته، فالأبنية الملحقة بالرباعي المجرد « **فَعْلَلَ** » هي الأكثر استعمالاً في اللغة، تليها الأبنية الملحقة بمطاوعه «**تَفَعْلَلَ**»، أما الأبنية الملحقة بـ «**افْعَلَلّ**» و«**افعَنْلَل** » فهي من الغريب النادر، وليس لها حضور في الاستعمال.

العلاقة بين الأفعال الرباعية والأفعال الثلاثية المجردة

كثرت الدراسات والأبحاث التي تناولت نشوء الأفعال الرباعية، وقد ذكر الدكتور أحمد عبد المجيد هريدي في كتابه «نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية» أن عددها بلغ أكثر من مئة وخمسة عشر كتاباً.(٢٧) فإذا أخذنا بالحسبان أن الكتاب المذكور

(٢٢) ابن يعيش: شرح الملوكي في التصريف ص ٩٠ ؛ والرضي: شرح الشافية ١: ١١٣.

(٢٣) اكوَهَدَّ الفرخُ: ارتَعَدَ إلى أمه لتَزقّه. واكوَأَلَّ: كان قصيراً في غلظ وشدّة.

(٢٤) ابن يعيش: شرح الملوكي ص ٩٠ ؛ والرضي: شرح الشافية ١: ١١٣.

(٢٥) اقعَنسَسَ: رجع وتأخَّر. واسحَنكَكَ الليل: اشتدَّت ظلمتُهُ.

(٢٦) اسلَنقَى: نامَ على ظهره. واحرَنبَى الديكُ: انتَفَشَ ريشُهُ وتَهَيَّأ للقتال.

(٢٧) هريدي، الدكتور أحمد عبد المجيد: نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية، مكتبة الزهراء، القاهرة ١٩٨٨، ص٥.

نُشر في عام ١٩٨٨ استطعنا أن نتصوَّر مدى كثرة الدراسات التي تصبُّ في هذا الموضوع.

وتتلخَّص اتِّجاهات تلك الدراسات في محاولة ردّ الأفعال الرباعية إلى أصول ثلاثية، كما فعل أديب عباسي[٢٨] في دراسته لأصول الفعل الرباعي، حيث عرض ستين فعلاً رباعيا، ذاهبًا إلى أنها تعود إلى أصول ثلاثية، لاشتراكها معها في المعنى الأساسي.

ففي رأيه أن الفعل «دحرَج» أصله: دَحَر، وأن الفعل «زلزَل» أصله: زلَّ، وأن «برَقَشَ» أصله: رقَش، وأن «اشْمأزَّ» أصله: شمأزَ وهذا الأخير يُرَدّ إلى: شَمَز، وأن «افرَنقَع» أصله: فرقَع وهذا أيضًا يُردّ إلى: فرق.[٢٩]

وقد سلك هذا المسلك عمر يوسف عكاشة حسن في رسالته للماجستير بعنوان: «الفعل الرباعي في لسان العرب»، حيث ردَّ (٦٠٤) أفعال من أصل (٨٠٤) إلى أصول ثلاثية. ومما جاء عنده مثلاً أن: «بَلسَمَ» أصله: بَلَس، لدلالتهما على السكوت، و«قَرشَمَ» أصله: قرَشَ، لدلالتهما على الكسب والجمع، و«بَلعَم» أصله: بَلَع، لأنهما يدلان على البلع.[٣٠]

وأصحاب هذا الرأي ربما تأثروا بآراء بعض الباحثين من أمثال: جرجي زيدان، والأب مرمرجي الدومنكي، وعبد الله العلايلي، الذين ذهبوا إلى أن الأفعال الثلاثية تعود إلى أصول ثنائية.

---

(٢٨) أديب عباسي: اسم استعاره كاتب المقالة. والغالب أنه من فلسطين، لورود المقالة منها. يُنظر: نشوء الفعل الرباعي في العربية ص٦٨.

(٢٩) مجلة المقتطف، الجزء١ من المجلد ٩٧ لعام ١٩٤٠، بحث بعنوان: أصول الفعل الرباعي لأديب عباسي ص ٨٠.

(٣٠) عكاشة حسن، عمر يوسف: الفعل الرباعي في لسان العرب دراسة تأصيلية (رسالة ماجستير) ص١١١ و١١٢.

فجرجي زيدان صرَّح في مواضع كثيرة بأن الأصول الرباعية مزيدة، والأصل فيها ثلاثي، وأن الثلاثي مزيد أيضاً، والأصل فيه ثنائي غالباً. (٣١)

وإلى ذلك ذهب الدومنكي الذي رأى أن «الثنائية، لا الثلاثية أو الرباعية، هي مبدأ الاشتقاق في اللغة العربية». (٣٢) وإلى أبعد من ذلك ذهب العلايلي حيث رأى أن اللغة العربية بدأت أحادية، ثم تطورت إلى الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية والسداسية. (٣٣)

فآراء كثير من الباحثين إذن تصبُّ في أن الأفعال الرباعية نشأت من أصول ثلاثية، وأن الأفعال الثلاثية نشأت من أصول ثُنائية، وبعضهم غالى في ذلك فذهب إلى اعتبار أن البناء الأحادي هو الأصل.

ولعلَّ النظر في هذه الآراء يقود الباحث إلى رفضها، لأنَّها لا تستند إلى أدلة استعمالية أو منطقية، وما أتوا به من تشابه المعاني بين الثلاثي والرباعي لا ينهضُ دليلاً على أن أحدهما أصل للآخر، لأن التشابه في المعاني موجود بين الأفعال الثلاثية ذاتها، فمما أورده عمر يوسف عكاشة دليلاً على أن الثلاثي أصل للرباعي قوله: «قرصَب وقَصَب يتطابقان في الدلالة على القطع، وقَرضَبَ وقَضَبَ يتطابقان في الدلالة على القطع، وقرطَمَ وقَطَم يتطابقان في الدلالة على القطع». (٣٤) فقد جعل كلَّ فعل ثلاثي أصلاً للفعل الرباعي الذي يُشاركه في الحروف، مُستنداً إلى المُطابقة في الدلالة.

---

(٣١) جرجي زيدان: الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية. مراجعة: مراد كامل، ط٢، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٢، ص ٩٨– ٩٩.

(٣٢) الدومنكي، الأب مرمرجي: هل العربية منطقية. لبنان ١٩٤٧، ص ١٥٠.

(٣٣) العلايلي، عبد الله: مقدمة لدرس لغة العرب، المطبعة العصرية، مصر، دون تاريخ، ص ١٥٤. ويُنظر في هذه الآراء: عكاشة حسن، عمر يوسف: الفعل الرباعي في لسان العرب ص٢٤– ٢٨.

(٣٤) عكاشة حسن، عمر يوسف: الفعل الرباعي في لسان العرب ص ٧٨.

والحقيقة التي تظهر لدى مراجعة هذه الأفعال، في لسان العرب، هي أن المُطابقة الدقيقة في الدلالة غير مُتحقِّقة، ولو فرضنا أنها موجودة بين الثلاثي والرباعي فهذا لا يعني أن أحدهما أصل للآخر، لأن الأفعال الثلاثية التي أوردها الباحث وهي: قَصَب وقَضَبَ وقَطَم تدلُّ كلُّها على معنى القَطع، فهل هذا يعني أن أحدها أصل لغيره؟

والذي أعتقده أن الذي دفع الباحثين إلى القول بأن الأفعال الثلاثية أصل للرباعية عدّة أمور منها:

١- ما يُنسَب إلى الكوفيين من القول بأن ما زاد على ثلاثة أحرف ففيه حرفٌ زائد أو أكثر، على حين أن البصريين يعدُّون كلاً من الثلاثي وغيره ضرباً قائمًا بذاته.[٣٥] فلا حجّة للتأثر بهذا الأمر في مسألة الأصل والفرع فيما بين الثلاثي والرباعي.

٢- الأمر الثاني هو تعريف القدماء للإلحاق بأنه: زيادة حرف أو حرفين في بنية الكلمة، سواء كانت اسماً أم فعلاً، لتصير بتلك الزيادة موازنة لغيرها من الناحية الشكلية. فهذا التعريف قد يُفهَم منه أن الرباعي المُلحَق كان في الأصل ثُلاثيا، إلا أن هذا لا يصدق إلا في نحو «ضربَبَ» و«خَرجَجَ» المأخوذَين من: ضرَب وخرَج، قال ابن يعيش: « وهذا القبيل من الإلحاق مطَّرد مقيس، حتى لو اضطرَّ شاعر أو ساجع إلى مثل: «ضربَبَ» و«خَرجَجَ» لجاز له الاستعمال».[٣٦] وواضح أن هذا النوع من الإلحاق اضطراري يُلجَأ إليه في الشعر أو السَّجع، لدوافع لفظيه لا علاقة لها بالمعنى. أما زيادة الإلحاق في نحو: سَيطَر ودهوَر فواضح أنها تفيد معنًى، لأن سيطر ودهور لا يُطابقان تمامًا كلاً من: سَطَر ودَهَر، وكذلك زيادة الإلحاق في نحو «جَلبَب» ليست

(٣٥) الأنباري، أبو البركات: الإنصاف في مسائل الخلاف ٢: ٧٩٣ و٧٩٤.

(٣٦) ابن يعيش: شرح الملوكي في التصريف ص ٦٤- ٦٥.

كالزيادة في «ضَرْبَب»، لأن جلَبَ لا يدلُّ على إلباس الجِلباب الذي هو معنى جلبَبَ، على حين أن ضَرَب وضَرَبَب يدلان على الضرب ذاته.

٣- والأمر الثالث هو مشكلة الالتزام بالوزن الصرفي المؤلف من ثلاثة أحرف أصلية هي «**فعل**»، الذي لا يفي بمحاكاة الكلمات ذات الأصول الزائدة على ثلاثة أحرف، دون الأخذ والرَّد والاجتهاد.

٤- والأمر الرابع هو أن أصحاب المعاجم وضعوا كثيراً من الكلمات الرباعية تحت أصول ثلاثية، ولم يُفردوا لها أصولاً خاصة بها، معتدِّين بتشابه الحروف، وهذا ليس عيبًا في المعاجم، لكن التشابه الشكلي في الحروف لا يعني أن الثلاثي الذي أُدرجت تحته المادة الرباعية هو أصل لها، لاختلاف الدلالة أو لوجود فرق على الأقل بين المادتين.

مما سبق يُمكن القول بأن الأفعال الرباعية أصل قائم بذاته، وليست الأفعال الثلاثية أصلاً لها، وإن كانت أحياناً تُقاربها في الدلالة. ويُؤيِّد ذلك الواقع اللغوي والتوظيف الدلالي والفروق في المعاني.

دلالات الأفعال الرباعية وتوظيفها

مرَّ سابقًا أن الأفعال الرباعية التي لها حضور واسع في الاستعمال اللغوي هي التي تجيء على بناء «**فَعْلَلَ**» سواء كانت أساسية أم مُلحَقة، وإليها تستند الأفعال التي تنتمي إلى غير هذا البناء.

وظهر في بداية البحث أن الأفعال التي تنتمي إلى بناء «**فَعْلَلَ**» يغلب عليها، إذا كانت لازمة، أن تكون دالةً على **إقامة** أو **نَظَرٍ** أو **سُلُوك** أو **صوت**، وإذا كانت متعدِّية فالغالب عليها أن تكون دالةً على **تَحريك شيء** أو على **تلوين شيء**.

وانطلاقًا من هذه الدلالات الأصلية اتَّسَع استعمالُ الأفعال الرباعية، وخاصة في العصر الحديث، فوُظفت في ميادين العلوم كافة للتعبير عن معانٍ جديدة، أوجدها التطوُّر العلمي المتسارع.

وساعد على ذلك الإمكانات الاشتقاقية الكبيرة للأفعال الرباعية، وكثرة الألفاظ التي يُمكن توليدها من تقليب الحروف التي تُوازن البناء. فعلى بناء «**فَعْلَلَ**» مثلاً يُمكن توليد مئات الألوف من الأفعال يُحسَب عددها، على اعتبار ألا يُكرَّر الحرف في صيغة واحدة، على النحو: ٢٨×٢٧×٢٦×٢٥ = ٤٩١٤٠٠، ووجود هذه الأفعال يعني بالضرورة وجود ما يرتبط بها من مصادر ومشتقات. وهذا يُمكن تصوُّر العدد الكبير من الألفاظ التي يُمكن توليدها.

وقد درس كثير من الباحثين الأفعال الرباعية، لكنهم شغلوا أنفسهم بالنواحي اللفظية، كادعاء ربطها بأصول ثنائية أو ثلاثية، أو بأسماء دخيلة، أو بمصطلحات علمية. فمما ذكروه مثلاً أن الأفعال في قولنا: حَمحَم الفرسُ، وزمجرَ الأسدُ، وقَعقَع الرَّعدُ، وتأتأ الرجلُ، نشأت من محاكاة الأصوات في الطبيعة، وأن مَغنَطَ وكَهرَبَ نشأت من أسماء دخيلة، إلى غير ذلك.(٣٧)

والذي يبدو لي أنهم لو سلَّموا بأن المصدر هو الأصل الذي اشتُقَّ منه الفعل لما كان من حاجة إلى البحث في النواحي اللفظية، فالفعل «مَغنَط» مثلاً يُقال فيه إنه لم يُشتقّ من المغناطيس مباشرةً، وإنما اشتُقَّ من خاصيّته، فبعد أن عُرفَت خواصُّ المغناطيس عُرِفت « المَغنطة » وهي المصدر المعبِّر عن إكساب المعدن صفة المغناطيس، ومنه اشتُقَّ الفعل. وهكذا يُقال في جميع الأفعال التي نُسِب وجودُها إلى أسماء دخيلة، أو التي قيل إنها نشأت من محاكاة الأصوات في الطبيعة، أي إن الفعل: « تأتأ » مثلاً اشتُقّ من معنى « التأتأة » الذي يعبِّر عن صورة معيَّنة من صور عُسر النطق.

(٣٧) تنظر مجلة المقتطف، الجزء١ من المجلد ٩٧، ص٨٤.

هذه هي سنّة اللغة في وضع المصادر أولاً، ومن ثم اشتقاق الأفعال منها. فما عرفه العرب ولاحظوه، من خصائص الأشياء وظواهر الطبيعة وأفعال الكائنات، وضعوا له لفظًا يُعبِّر عنه، وسُمِّي هذا اللفظ بالمصدر، وما لم يعرفوه إلا في أزمنة تالية وعصور لاحقة فالمجال اللفظي الاشتقاقي كفيل بالتعبير عنه، سواء وُجد في البيئة العربية أم في بيئات غير عربية.(٣٨)

فالأَوْلى الحديث عن دلالة الأفعال الرباعية ووظائفها، لا عن تكوينها اللفظي، وأن يُكتَفى من ذلك بالقول إنها نشأت كما نشأت أخواتها الثلاثية، وذلك بالاشتقاق من المصادر التي تُعبِّر عن معانٍ يختزنها العقلُ، بعد أن يقوم بتجريد معطَيات الحواس والتخيُّل.

والأفعال الرباعية في الواقع اللغوي الحاضر وُظِّفَت للتعبير عن معانٍ ودلالات كثيرة، معظمها مرتبط بمجالات العلوم والاكتشافات، ومنها:

١– التعبير عن التفاعلات الكيميائية مثل: هَدرَج المادّةَ، أي فاعَلَها مع الهدروجين، وأكسَدَها إذا فاعَلها مع الأكسجين، ومنه: كبرَتَ وكَربَن ونَترَج ... وهذه الوظيفة تُردُّ إلى الدلالة الأصلية وهي تلوين الشيء.

٢– التعبير عن استعمال المخترعات الحديثة، مثل: تَلفَنَ وكَهرَبَ ... وهذه الوظيفة تُردُّ إلى الدلالة الأصلية وهي تحريك الشيء.

---

(٣٨) من الباحثين من يرى أن أسماء الذوات هي الأصل في الاشتقاق. أي إن الفعل «مَغنَطَ» مثلاً مشتق من المغناطيس في رأيهم، وليس من المغنطة. وهذا الرأي جدير بالاهتمام، لأنه لولا المغناطيس لما عُرِفَت المغنطة. وما أثبَتُّه لا يلغي هذا الرأي، إذ ذكرتُ أن الاشتقاق يكون من المصادر التي تُعبِّر عن معانٍ يختزنها العقلُ، بعد أن يقوم بتجريد معطَيات الحواس والتخيُّل. أي إن المغناطيس مثلاً وُجد أولاً في عالم الحسّ، ثم عُرف معنى المغنطة وما يرتبط به من مشتقات وأفعال. يُنظر في الاشتقاق من أسماء الذوات: خسارة، الدكتور ممدوح: علم المصطلح، ط١، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٨، ص ١٠٢.

٣- التعبير عن سلوك مثل: ترهبَن وتصعلَكَ ...

٤- التعبير عن الانتساب مثل: تفرنَسَ وتأمرَك ...

٥- التعبير عن الأصوات مثل: بَسبَس وخَشخَشَ وطَقطَق ....

٦- التعبير عن جملة محكية مثل: بسمَلَ وحَمدَل...

الخاتمة

عرضتُ فيما تقدَّم أبنيةَ الأفعال الرباعية والأبنية الفعلية الملحقة بها، ثم تحدَّثتُ باختصار عن آراء الباحثين في أصل نشأتها، وعرضتُ أخيراً لدلالاتها ومجالات استعمالها في التعبير القديم والحديث.

واتَّسم البحث عامة بالاختصار، إذ لم أجد فائدة في الحديث المفصَّل عن آراء الباحثين في أصل الأفعال الرباعية، بل اكتفيتُ بإشارات مُجمَلة لخَّصتُ فيها تلك الآراء، ثم أتبعتها بالتعليق والدراسة. وانتهى البحث إلى جملة من النتائج هي:

١- الأفعال الرباعية نوع قائم بذاته، وليس مأخوذًا من الأفعال الثلاثية، وأن وجود التشابه في الحروف بين الأفعال الرباعية والثلاثية لا ينهض دليلاً على أن الأفعال الثلاثية أصل اشتُقَّت منه الأفعال الرباعية.

٢- البناء الرباعي المجرَّد « **فَعْلَل** » هو أصل الأبنية الرباعية المزيدة، وذلك لأن الزيادات في الأفعال الرباعية لا تُفيد إلا معنى المطاوَعة، أما الدلالة الأساسية للأفعال المزيدة فمرتبطة حقيقةً أو تقديراً بالرباعي المجرَّد.

٣- القول بأن الأفعال تطوَّرت من البنية الأحادية أو الثنائية إلى الثلاثية فالرباعية لا دليل عليه، ولا يعدو حدَّ الافتراض الذي لا يدعمه الواقع اللغوي.

٤- القول بأن الأفعال الثلاثية هي أصل الأفعال الرباعية لا يمكن التسليم به، وأن الأمثلة التي جاء بها أصحاب هذا القول لا تكفي لإثبات حقيقته.

٥- معظم الباحثين الذين ذهبوا إلى أن الأفعال الثلاثية أصل للأفعال الرباعية تأثروا بالنواحي اللفظية، والاشتراك في الحروف، وتجاهلوا الفروق المعنوية والدلالية.

٦- اتَّسع استعمال الأفعال الرباعية في العصر الحديث للتعبير عن منجزات العلوم واستعمالها، والاكتشافات العلمية الواسعة، والعناصر الجديدة التي عُرفت في هذا العصر وما يتصل بها من تفاعلات وخواصّ.

٧- الأفعال الرباعية ذخيرة لغوية ضخمة، يُمكن أن يستفيد منها الباحثون والعلماء في مجال المصطلحات، والتعبير عن الاكتشافات والمنجزات العلمية.

المصادر والمراجع

- الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد: **الإنصاف في مسائل الخلاف**. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، دون تاريخ.
- جرجي زيدان: **الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية**. مراجعة: مراد كامل، ط٢، دار الحداثة، بيروت١٩٨٢.
- خسارة، الدكتور ممدوح: **علم المصطلح**. ط١، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٨.
- الدومنكي، الأب مرمرجي: **هل العربية منطقية**. لبنان ١٩٤٧، ص ١٥٠.
- الرضي، رضي الدين الأستراباذي: **شرح شافية ابن الحاجب**. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ورفاقه، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥.
- السيوطي: **المزهر**. تحقيق: محمد جاد المولى ورفاقه، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت ١٩٨٧.
- ابن عصفور: **الممتع في التصريف**. تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط١، المكتبة العربية، حلب ١٩٧٠.
- ابن عقيل، بهاء الدين: **شرحه على ألفية ابن مالك**. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت ٢٠٠٥.
- عكاشة حسن، عمر يوسف: **الفعل الرباعي في لسان العرب دراسة تأصيلية**. رسالة ماجستير في الجامعة الأردنية، عام ١٩٩٥.

- العلايلي، عبد الله: **مقدمة لدرس لغة العرب**. المطبعة العصرية، مصر، دون تاريخ.
- قباوة: **تصريف الأسماء والأفعال**. ط٣، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٨.
- ابن القطاع الصقلّي: **أبنية الأسماء والأفعال والمصادر**. تحقيق: الدكتور أحمد محمد عبد الدايم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٩.
- ابن منظور، محمد بن مكرم المصري: **لسان العرب**. ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٢.
- ابن الناظم، بدر الدين محمد بن عبد الله بن مالك: **شرح لامية الأفعال**. تحقيق: محمد أديب جمران، ط١، دار قتيبة، بيروت ودمشق ١٩٩١.
- هريدي، الدكتور أحمد عبد المجيد: **نشوء الفعل الرباعي في اللغة العربية**. مكتبة الزهراء، القاهرة ١٩٨٨.
- ابن يعيش: **شرح المفصل**. مكتبة المتنبي، القاهرة، دون تاريخ.
- **شرح الملوكي في التصريف**. تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط٣، دار الملتقى، حلب ٢٠٠٥.
- **مجلة المقتطف**، الجزء١ من المجلد ٩٧ لعام ١٩٤٠، بحث بعنوان: أصول الفعل الرباعي لأديب عباسي.

«عرار» الناقد الشاعر
من «الروح الشعريّة» إلى «الإيماءة الدلاليّة»

د. جمال محمد مقابلة(*)

إنّ الصورة البارزة للشاعر الأردنيّ مصطفى وهبي التل الملقّب بـ«عرار» هي صورة الشاعر، ولم يكن هناك من التفات يذكر إلى أدبه غير الشعريّ، من مثل نصوصه القصصيّة والإبداعيّة، أو إلى نقده الأدبيّ، أو دراساته الاجتماعيّة، أو ترجماته الأدبيّة؛ فقد طغت شعريّته على جوانب أخرى كثيرة في شخصيّته، فكثر الحديث عن شعره، ولم يلتفت الدارسون – إلاّ منذ عهد قريب – إلى جوانب جديرة بالاهتمام في تكوين هذا الرجل النابه والنابغ، الذي يكاد يكون عبقريًّا في قدرته على رسم حدود شخصيّته الإنسانيّة، وفلسفته الفنّيّة والوجوديّة العميقة للعالم من حوله، في مرحلة حرجة من تاريخ العرب الحديث، ومن تاريخ الدولة الأردنيّة التي كان أحد رجالاتها في طور التأسيس. فهو بهذا المفهوم الثقافي العام يعد – إلى جانب كونه شاعرًا كبيرًا– أديبًا ملتزمًا، أو مثقّفًا عضويًّا بحسب تعريف المفكر الإيطالي (أنطونيو غرامشي) للمثقّف الملتزم بقضايا الواقع، وللفنّان الذي يلتحم بقضيّته الوطنيّة أو القوميّة أو الإنسانيّة، ويحقّق ذاته من خلالها. وربما كان المفهوم الرومنسيّ للعبقريّة ينطبق على كثير من جوانب حياة عرار، فقد كان الفيلسوف الألماني (فريدريك نيتشه) يصرّ «على استحالة

(*) باحث وأستاذ جامعي من الأردن.

توقّع ظهور عمل متميّز (وهو الشيء الوحيد ذو القيمة) من شخص ما يعيش حياة برجوازيّة نمطيّة»[١]، لذا كان عرار باحثًا عن الحريّة الشاملة، التي يرى أنّ من واجبه ومن مظاهر امتيازه أن يستثمرها، وقد عانى في سبيل ذلك معاناة شديدة، وهذا ما جعله مثل كثير من المبدعين يعيش في غرابة أطوار وأحوال تغاير حياة الآخرين[٢]، ويخرق قواعد المجتمع صونًا لفنّه، ونقدًا لتناقضات الواقع القائمة فيه، فما يحسب لعرار الفنان من الفعل والسلوك الدال على الإبداع ، هو ذاته ما قرأه البعض فيه قراءة أخرى بأنّه الشاعر اللاّمنتمي[٣].

وقد أصدر الدكتور زياد الزعبي في الذكرى المئويّة لميلاد عرار الكتاب الأول من كتاباته النثريّة تحت عنوان «على هامش العشيّات»، وقدّم له بدراسة عن فنّ القصّة لديه، ومن ثم أثبت له عددًا من النصوص القصصيّة، فالنصوص النقديّة، فالدراسات الاجتماعيّة، فالنصوص الإبداعيّة[٤]؛ ليؤكّد هذا البعد الشمولي في ثقافته وشخصيّته، إلاّ أنّه مع ذلك قدّمها، من العنوان، في سياق تابع لشخصيّته الشعريّة، حين وصف هذه الكتابات – على أهميّتها – بأنّها تقع على هامش الديوان الشعريّ المعروف بـ«عشيّات وادي اليابس»[٥]. فلم يستطع زياد الزعبي أن يُخرج هذه الكتابات من عباءة عرار الشعريّة، ربما إيمانًا منه بسطوة شاعريّته، أو رفعًا منه لهذه الأعمال إلى

(١) العبقريّة، تاريخ الفكرة، تحرير بنيلوبي مرَّي، ترجمة محمد عبد الواحد محمد، عالم المعرفة (٢٠٨) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٦، ص٢١.

(٢) انظر: العبقريّة، تاريخ الفكرة، ص ٢١.

(٣) عرار الشاعر اللامنتمي، أحمد أبو مطر، ط٢، دمشق ١٩٨٧.

(٤) على هامش العشيّات: كتابات عرار النثريّة (١)، جمع ودراسة د. زياد صالح الزعبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت ١٩٩٩.

(٥) عشيّات وادي اليابس، تحقيق وتقديم زياد صالح الزعبي، دائرة الثقافة، ط١، عمان ١٩٨٢.

مستوى من الخطورة تجعلها لصيقة بالشعر، حتّى إن اكتفت بأن تكون محضَ هامشٍ عليه.

ولمّا كان موضوع بحثي هو النقد لدى عرار، فسأكتفي بتسليط الضوء على دراسته المهمّة، حسب رأيي، وهي التي جاءت تحت عنوان «الروح الشعريّة»، فهي مقالة نقديّة على درجة عالية من الأهميّة في تحديد جوهر الشعر ومعناه، وبيان علاقته بالفنون الجميلة الأخرى مثل: الرسم والتصوير والموسيقا والرقص، ومدى ما بينها جميعًا من تداخل وانسجام والتقاء في الطبيعة الجوهريّة للفنّ، وصلة الشعر الفصيح بالشعر البدوي، وأنّهما يلتقيان إبداعيا في أسّ واحد مشترك، إذا كان أيّ منهما يصدر عن شاعر فنان. وقد حاول عرار في هذه المقالة أن يتصدّى لرصد سمات الشعر العظيم، التي غالبًا ما كانت تستعصي على الفهم والتوضيح، مما جعله يذهب في سياحة إلى عالم الشعر الإغريقي القديم المتمثّل في الإلياذة مثلاً، ليسأل عن سرّ خلوده لدى كلّ الأمم التي اطّلعت عليه، وكذلك أنِسَ إلى بعض الشعر العربيّ الجاهليّ والإسلاميّ والأمويّ، والشعر البدويّ أو العاميّ، مستشهدًا بمقاطع دالّة منهما على نظريّته الخاصّة حول الروح الشعريّة، ولعلّه قدّم بذلك مقالة نقديّة فريدة، إذا ما قرئت في سياق النقد في الأردن في الثلاثينيّات من القرن العشرين، حيث لم يكن من اليسير علينا أن نعثر على ناقد أدبيّ أردنيّ، أو شخصيّة أردنيّة تمتلك ثقافة نقديّة أدبيّة بمستوى يوازي ما اشتملت عليه هذه المقالة أو يدانيها.

ولعلّي لا أجانب الصواب إن قلت إنّ قيمة هذه المقالة لدى عرار أوّلاً، وفي سياق النقد الأدبيّ الأردنيّ أخيرًا، لا تقلّ أهميّة عن قيمة تلك الدراسة النقديّة الشهيرة والمهمّة التي قدّمها أبو القاسم الشابيّ، سنة ١٩٢٩م تحت عنوان «الخيال الشعري عند العرب»[٦] في النقد الأدبيّ التونسيّ، فالدراستان متشابهتان في كثير من الوجوه،

(٦) دراسات عن الشابي، إعداد أبو القاسم محمد كرو، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٤، ص١٣٨.

فهما في الأصل محاضرتان، لشاعرين رومانسيين كبيرين، أُلقيتا عن طبيعة الشعر وجوهره عامّة أو الشعر العربيّ خاصّة، في زمن متقارب تاريخيا، في ظلّ الاستعمار المخيّم على بلدي الشاعرين من بريطانيا وفرنسا.

ومهمّتي في هذا البحث أن أستوضح طبيعة هذه الروح الشعريّة التي عُني بها عرار، وحاول جاهدًا أن يفكّ مغاليقها، ثم أن أتبيّن مقدار ما أفاد من هذه الفكرة النقديّة في رفع مستوى شعره هو على وجه التحديد، ولعلّي أستبق القول بالنتائج لأخلص إلى أنّ تصوّره الخاصّ للروح الشعريّة قد جعله قادرًا على ترك بصمة واضحة له هو نفسه في الشعر العربيّ، وترك لنا شعرًا موسومًا بإيماءة دلاليّة خاصّة به، تدل على روحه الإبداعيّة المحلّقة على امتداد شعره ونثره جميعه.

فممّا جاء في مقالته تلك قوله: «إنّ الروح الشعريّة هذه ليست ممّا بالإمكان الإشارة إليه ضمن حدود معيّنة، أو صوغه في قالب لفظيّ، أو تصوّريّ معلوم. فهي كائن من هذه الكائنات غير المنظورة، التي لا نراها، ولا نستطيع وصفها، ولا تعيين شكلها ولا تعريفها ولا تحديدها، ونجهل عنها كلَّ شيء، على حين نحن نعلم عن مبلغ تأثّر كياننا الاجتماعيّ بإلهامها، أو بوحيها كلّ شيء، فنستدل على وجودها بأثرها في نواحي وجودنا الشتّى بين ماديّة ومعنويّة ولفظيّة وتصوريّة ... وغيرها من شؤون الحياة وشجونها»(٧).

فعرار منذ بدية المحاضرة يعترف بصعوبة تعريف هذه الروح الشعريّة، وإن كان يحسّ بها، ويستشعر وجودها بوصفه قارئًا مدرِكًا مزايا إبداع الآخرين، ونلحظ في عبارته احترازًا من أن يعيّن الشكل أو التعريف أو التحديد لهذه الروح في الشعر، لكنّه لا يخطئ جوهر إلهامها أو وحيها، فيفزع إلى ألفاظ مبهمة في بيان التأثير، وإن انتهى إلى إثبات التأثّر المعنويّ واللفظيّ والتصوريّ الناجم عنها لدى المتلقّي، حتّى ينسجمَ كلامُه مع طبيعة أثرها بوصفها روحًا كلّيّة تسيطر على الشعر.

(٧) على هامش العشيّات، ص١٦١-١٦٢.

وعلى طريق توضيحها رأى أن يعاينها في إطار واسع من الفنّ، لإيمانه بأنّ الفنّ الشعريّ لن يكون بدعًا من الفنون، وهذا يثبت لنا أنّ عرارًا كان في حقيقة أمره فنّانًا متعدّد المواهب، وناقدًا فنّيا مرهفًا، فهو وإن لم يخلّف لنا نتاجات موسيقيّة أو لوحات فنيّة، كان يدرك أسرار الجمال في الفنون جميعها؛ الزمانيّة منها كالموسيقا، والمكانيّة كالرسم والتصوير، ولعلّه كان على يقين من أنّ الشعر هو أبو الفنون جميعًا؛ لاشتماله على عنصري الزمان والمكان معًا، فهو يُدرَك بالأذن من جهة الموسيقا الشعريّة فيه، وبالعين من جهة الصورة الشعريّة. فلم يجد عرار مناسبة للفصل بينه وبين بقية تلك الفنون، ولعلّه كان ينطق عن مقولة الفيلسوف الألماني (هيغل) المعبّرة، حين وازن بين الشعر والنحت والموسيقا وخلص إلى أنّه «يمثل الشعرُ الروحَ للروحِ»[٨]، لذا قال عرار: «إنّ هذه الروح، على الأغلب، هي مركز الدائرة الذي يلائم بين الفنون الجميلة الشعر والرسم والتصوير والموسيقا والرقص، ويجعل بينها صلة وثيقة، بحيث أنّ البشر عامةً، والفنانين خاصّة، يتأكّد لهم أنّ مصدر الفنون هذه واحد؛ لأنّها توحي إلى المتّصلين بها انفعالات إحساسيّة واحدة، على ما بينها من اختلاف ومن تباين في المظاهر والتفرّعات، بحيث يكون أثر هذه الروح أكثر تماثلاً وانطباقًا لصنوه في الموضوع الواحد من موضوعات الفنون الجميلة الخمسة»[٩].

يلتقي عرار في كلامه هذا مع رأي الفيلسوف الجمالي الفرنسي (سوريو) الذي يقول: «الحقّ أنّه سواء أكانت أداة الفنّان في الإبداع هي الكلام أم الرخام أم الأنغام أم الألوان، فإنّ ما يخلقه الفنّان لا بدّ من أن يكون عملاً فرديًا يتّسم بطابع خاص أو أصالة شخصيّة بحيث يصحّ أن نقول عنه إنّه (نسيجُ وحدِه). وإذن فقد لا نجانب الصواب إذا قلنا (بمعنى من المعاني) إنّ الفنّ هو هذا الشيء المشترك الذي يجمع بين

(٨) فن الشعر (١)، هيغل، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط١، بيروت ١٩٨١، ص٧.

(٩) على هامش العشيّات، ص ١٦٣–١٦٤.

الكاتدرائيّة والسيمفونيّة، والنحت»[١٠].

ولمّا كان عرار يعاين الشعر بوصفه فاعليّة إنسانيّة كبرى، فقد جعل الروح الشعريّة تلك نموذجًا أعلى يُدرَك به الوجود إدراكًا جماليا صميمًا، فعزا إلى تلك الروح الشعريّة تنمية القدرة لدينا على إدراك الجمال المغاير لما عهدنا في ثقافتنا الخاصّة، وجعل منها كذلك معيارًا إنسانيا خالصًا حين قال: «... فما هو هذا السرّ الذي جعلنا نتأثّر عين الأثر بوجه غريبٍ عنّا ولا عهد لنا بمثله في بيئتنا ومحيطنا؟ هذا السرّ هو تأثير القوّة التي أَسْميتُ أثرها في ناحية حياتنا الكلاميّة والتصوّريّة؛ أي في الآداب (بالروح الشعريّة)، وأثرها يكون واحدًا في كافّة نواحي الحياة عند الأمم كافّة، مهما تباعدت وتناكرت خلقًا وأخلاقًا وعقيدة وبيئة ومحيطًا وثقافة»[١١]، تُرى هل يتحدّث عرار هنا عن الذوق العام؟ أم ينادي بوجود ذوق إنسانيّ عام؟ إنّه يرى أنّ هذا الذوق على أنّه متمثّل بالروح الشعريّة التي لا تنحصر في الشعر وحده، فقد تتجلّى هذه الروح في الأدب شعره ونثره، كما تجلّت من قبل في الفنون الجميلة جميعها. وهكذا لا يعود الشعر لديه كلامًا منظومًا مقفى، بل يغدو الشعر بهذا المفهوم وسيلة لمعاينة الحياة وفهمها، والعيش فيها بصدق وفاعليّة واندماج، بحيث تغدو الروح الشعريّة جامعة بين الآداب الراقية والصادقة لدى شتّى الأمم، ويصير من شأنها أن تزيل الفروق المصطنعة بين البشر في شتّى العصور، لتجعل منهم بشرًا مندمجين في تآلف إنسانيٍّ رفيع. ولقد عبّر الناقد الألماني المعاصر (هانز جيورج جادامر) عن هذا المفهوم بقوله: «إنّ الخاصيّة الإنسانيّة المميّزة لوجودنا تتأصّل في تلك الوحدة بين الماضي والحاضر التي تؤسّس تَعاصُرَ كلّ العصور والأساليب والأجناس والطبقات، لأنّ كلّ هذه الأمور تعدّ

(١٠) مشكلة الفن، زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة ومكتبة مصر، القاهرة د.ت. ص٢٥.

(١١) على هامش العشيّات، ص ١٦٥-١٦٦.

إنسانيّة»[١٢].

وتصديقًا لما سلف يقول عرار: «وهذه القوّة هي التي تجعل أثرها في الشعر وفي الآداب صلة وثيقة بين أنواع الأدب العالميّ والشعر الأمميّ بحيث يتأثّر الإفرنجي المتحضّر ببيت ينطق به عربيّ بدويّ لا عهد له بالحضارة وما إليها، كما لا عهد للإفرنجي المتأثّر بشعره بالبداوة وما يتّصل بها، وبحيث يشعر بلذّة الشعر أو الوصف الذي يفيض عن لسان أجنبي أيُّ عربيٍّ بدويٍّ، أو متحضّر تترجم له أقوال الشاعر الفرنجيّ متى كان مطبوعًا بطابع (الروح الشعريّة) التي أتيت على أمثلتها فيما تقدّم من خطابي. فتأثير هذه الروح في السامع عن طريق الشعر أو النثر أو الخطابة لا يتوقّف على قوّة الكلمات، ولا على متانة الرصف، ولا على نوع اللغة وجنسها، بل على اشتمالها على الروح الشعريّة فحسب»[١٣]. فهو يؤكد أنّ جوهر هذه الروح لا يكمن في الشكل، فلو كان كذلك لما تأثّر المتلقّي بالأدب المترجم لاستحالة الحفاظ على أصل الشكل في الترجمة، كما يؤكّد أنّ الروح الشعريّة لا تكون وقفًا على الشعر تحديدًا، فقد تكون في النثر والخطابة بتصريحه، وهي لا تكون في الكلمات أو في متانة رصفها، أو نوع اللغة وجنسها، لكنّها مع ذلك تبدو جليّة لدى القارئ المتذوّق، والمتلقّي المدرِك الذي يستشعر وجودها ويقبض عليها بعمليّة أشبه بالحدس أو أشبه بـ«نظريّة العدوى» التي قال بها الكاتب الروسي (تولستوي)، وهي تتلخص «في أنّ المتلقّي يمتزج مع الفنان إلى درجة يبدو له فيها أنّ الموضوع الذي تلقّاه لم ينجزه أحد سواه، ...، وفي اندماج الشخصيّة هذا مع الآخرين تكمن سمة الفنّ وقوّته الجاذبة الرئيسيّة، ...، فإذا عانى الإنسان من هذا الإحساس، وتأثّر بحالة المؤلف الروحيّة، وشعر باندماجه مع الآخرين، فإنّ الموضوع الذي

(١٢) تجلّي الجميل، هانز جيورج جادامر، تحرير روبرت برناسكوني، ترجمة ودراسة وشرح سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٣٦.

(١٣) على هامش العشيّات، ص١٦٦.

أثار هذه الحالة هو الفنّ، وإذا لم تكن هذه العدوى، ولا الاندماج مع المؤلّف ومتلقّي النتاج – فليس ثمّة أيّ فنّ. ولكن فضلاً عن أنّ العدوى هي دون ريب سمة من سمات الفنّ فإنّ مقدار هذه العدوى يعدّ المقياس الوحيد لقيمة الفنّ»(١٤).

وما زال عرار يَعجَبُ من أمر هذه الروح التي يُدرِك وجودَها، ولا يستطيع الإمساك بها حتّى يعرّفها لنا على وجه الدقّة، لكن قصارى ما يستطيع فعله هو الإشارة إليها في الأعمال العظيمة، التي تدعو إلى الإعجاب على مرّ الأزمان وفي شتّى الأماكن، وفي كلّ اللغات، إنّه يشير بوضوح إلى الفنّ الخالد، وقد كان هو، بوصفه فنّانًا، معنيا دومًا بالتأثّر بهذه الأعمال، ومحبا لأن يصاب بالعدوى من أصحابها بفعل وجودها، لأنّه إنّما يبحث عن الروح الشعريّة، متلقّيًا وشاعرًا في آن واحد معًا، لذا يقول بحقّ الأعمال العظيمة تلك «فما هو هذا السر الذي جعل لقصائد هوميروس أو لأشعار قدماء الإغريق كل هذه القيمة، وخوّلها لمثل هذا الخلود. هذا السر هو في الروح الشعريّة التي اشتملت عليها أشعار قدماء الإغريق. وهذه الروح كما قلت لا تتقيّد لا بزمان ولا بمكان ولا بلغة ولا بقالب معلوم أو سبك مخصوص، ولهذا يظلّ أثرها هو هو، كما ظلّ أثر الإلياذة عينه على اليونانيين الذين ما من وجه للشبه بينهم وبين آبائهم على عهد الإلياذة. ومثلما تأثّر بهذه الإلياذة الأوربيّون في العصور المتأخّرة، تأثّر بها العرب عندما نُقِلَتْ إلى لغتهم في القرن العشرين، هذا مع ما عليه قدماء الإغريق والعرب في العصر الحاضر من اختلاف في كلّ شيء، ...، فالشعر هو الكلام الذي يشتمل على هذه القوة التي سميناها الروح الشعريّة والذي بسبب اشتماله عليها توقظ فينا لغته هيجانًا بديعيا وإحساسات من اللذة أو من الألم لم يكن لنا بها سابق عهد قبل الإصغاء إليه. فهو إذن ليس الكلام المسبوك أحسن سبك، ولا المشتمل على أدقّ تصوير، ولا المترجِم عن عاطفة خاصّة أو شعور صادق، فقد

(١٤) ما هو الفن، تولستوي، ترجمة محمد عبدو النجاري، دار الحصاد، ط٢، دمشق٢٠٠٢، ص١٩٠.

تكون أنواع الكلام التي من هذا القبيل من ضروب الشعر، ولكنّها لا تكون الشعر بعينه»(١٥).

فكما ظل عرار ينفي أن تكون الروح الشعريّة ماثلة في شكل ما أو عاطفة أو شعور، فإنّه جعل المتلقّي بخياله وذوقه هو الفيصل في عمليّة استنطاق هذه الروح والقبض على وجودها، ولعلّه يكون بذلك قد تحدّث عن أهمية الدور الذي يضطلع به المتلقّي في تحديد قيمة الشعر، ومقدار ما يشتمل عليه من سمات تحرّك المشاعر والأحاسيس، وتثبت بحدسها وذوقها وجود الروح الشعريّة المبتغاة، «أمّا الشعر الذي يكون مشتملاً على ما دعوناه بالروح الشعريّة، فهو ذلك الذي ما تكاد تنتهي من سماعه حتّى تكون مخيّلتك قد أقامت له صورة ماثلة في ذهنك، هذا فضلاً على ما يكون بعثه سماعها في نفسك من كوامن المشاعر والإحساسات. أمّا مجرّد دقّة الوصف وبلاغة التركيب والتعبير فما تستطيع مثل ذلك»(١٥).

وقد خلص في نهاية مقالته إلى القول: «إنّ الآداب، وإن كانت مشاعًا بين الأمم والشعوب، ومنشؤها الذي هو الروح الشعريّة واحد عند الأمم كافّة وفي العصور كافّة ، إلا أنّ هذه الروح لا تكون قوية وواضحة ووضّاحة إلا إذا استمدّ المتأدّبُ إلهامَها من محيطه، ومن عادات قومه لا من بيئة غريبة عنه، كالنّقل والترجمة أو ترسّم خُطا شعراء أمّة أخرى. فكما صلحت آداب قدماء الإغريق لأن تكون دعامة وطيدة الأركان للأدب الإفرنجيّ، فإنّي أؤكّد لكم أنّ في قصائد حتّى شعراء البادية بأيامنا هذه فقط ما يصلح لأن يكون معيناً لا ينضب لآدابنا العصريّة، وأنّ لنا فيها مغنى عن الترجمة وعن السير على غرار الفرنجة في حياتنا الأدبيّة. فإذا ما أنشد شاعر عامّي في مَضافة من مضافات قُراكم فحذار أن تَزْوَرُّوا عن مقاله وأن تُديرُوا له ظهوركَم؛ لأن ليس في كلامه صرف ونحو ومجاز واستعارة وتشبيه وكناية، فإنّ علوم البلاغة كافّة إمّا

(١٥) على هامش العشيّات، ص ١٦٨ ، ١٧٠.

قد استمَدَّت ولسوف تظلّ تستمدُّ عناصرَها الحيةَ من هذا الأدب البدويّ الحيّ عاميا كان أو فصيحًا، لأنّ هذا الأدبَ مثلما تَرَنَّم لسانُ المعلّقات والأوابد مجدَ آبائكم وما كانوا عليه فهو إنّما يترنَّمُ حياتَكم وحقيقتَكم وزمانَكم»(١٦) .

إنّ القضايا التي أثارها عرار في مقالته تعدّ من أبرز قضايا النقد الأدبيّ وأخطرها على الإطلاق، فهو معنيّ بالبحث عن جوهر الشعر في اصطلاحه الذي اجترحه تحت مقولة (**الروح الشعريّة**)، وذلك بتفحّصها لدى الشاعر المبدع أوّلاً، ولدى متلقّي شعره أخيراً، وقد كان حريصًا على أن يعاين تلك الروح في كلّيّة العمل الأدبيّ أو الشعريّ، ولم يقبل أن يراها في الشكل أو في المضمون منفصلين، بل رآها فيهما معًا، دون أن ييسّط الأمر في القبض على هذه الظاهرة المعقّدة في سمة شعريّة معزولة هنا أو هناك، ودون أن ينهزم أمام تعقيد هذه الظاهرة غير القابلة للفهم بسهولة ويسر. وكان هاديه في تحديدها الذوقُ الفنيُّ الرفيعُ، والحسُّ النقديُّ المرهفُ، فقد حام حول التعريف ثم استند إلى ذائقته التي لم تخذله، فراح يورد الأمثلة من الشعر الفصيح ومن الشعر العامي أو البدويُّ ويضع أيدينا على تلك الروح فيها، ثمّ أتى بأمثلة أخرى غيرها مقابلة لها افتقرت إلى تلك الروح، وإن كانت في الظاهر تحوز شرط الشعرية من التصوير والبلاغة والمجاز وغير ذلك، مما يحسبه النقاد مكمنًا للروح الشعريّة، فأثبت أنّهم بذلك واهمون، وساق الوقائع التاريخيّة للدلالة على رأيه ونجح أيّما نجاح، فقدّم لنا بذلك درسًا تطبيقيا دلّل فيه على صدق نظرته أو قل نظريّته. لذا رأيناه يعدل عن التعريف الشائع للشعر بأنّه الكلام الموزون المقفّى، الذي كان سائدًا إلى زمن قريب، وراح يبحث عن رؤية حداثيّة أو معاصرة للشعر، ولم يقع في فخ التغريب فرفض أن يُسقط على الشعر العربيّ، بصورة فجّة، تجاربَ الأمم الأخرى مثل الفرنجة، فرفض الترجمة واستجلاب الآراء في طبيعة الشعر وصناعته؛ لا عن جهل بما لدى الآخرين، بل عن إيمان بأنّ الشاعر الصادق هو من يتمثّل تجربته الخاصّة، ويعبّر عن محيطه

(١٦) على هامش العشيّات ، ص١٧٥.

بصدق وإخلاص، لذا قال: «هذه الروح لا تكون قويّة وواضحة ووضّاحة إلاّ إذا استمدّ المتأدّب إلهامَها من محيطه، ومن عادات قومه لا من بيئة غريبة عنه، كالنقل والترجمة أو ترسّم خُطا شعراء أمّة أخرى»، وإن كان عرار نفسه يؤمن بضرورة الاطلاع على شعر الأمم الأخرى وتجاربهم الصادقة، التي تمثّلت فيها الروح الشعريّة التي تحرّاها هو بصدق لدى أمّته ولدى غيرها من الأمم، فقرأ وترجم واتخذ من الشعر العظيم لدى غير العرب نماذج يهتدي بها. لكنّه فعل ما فعل، وقال ما قال، لصدقه في التعامل مع الروح الشعريّة حيثما وجدها، وكان هذا الصنيع هو الذي أمدّه بالإيماءة الدلاليّة التي اتسم بها في إبداعه الشعريّ الخاصّ به.

وتوضيحًا لمسألة الربط بين رأي عرار النقدي في الروح الشعرية التي هدف إلى تبيانها، وما آل إليه شعره الخاص في تعبيره عن ذاته الفرديّة بوصفه فنّانًا مبدعًا، وشاعرًا استثنائيا، يمكن الاستئناس بآراء مجموعة من النقاد في طبيعة الشعر الذي يدل على أصالة مبدعه، ويستحقّ بموجبه أن يكون شاعرًا قابضًا على الروح الشعريّة، أو شاعرًا متفرّدًا بين شعراء بلده، أو شعراء عصره، بحيث يترك بصمة خاصّة به، يعرفه بها كلّ القرّاء في الأزمان اللاحقة لزمانه.

وسوف أتتبّع ذلك بنوع من التقصّي لأهمّ الأفكار التي استعرضها الناقد الأسلوبي (ميلان يانكوفتش) في مقالته «الأسلوب الفردي ومشكلة المعنى في العمل الأدبيّ»[١٧]، لأنّها استوفت في مناقشتها ما كان أشار إليه عرار في مقالته، فإذا كان الأوّل منهما حاول التعرّف بالروح الشعريّة ما بين الشاعر ومتلقّي شعره، فإنّ الآخر جعل عنايته منصبّة على كيفيّة استخلاص السمة الأسلوبيّة، أو مجموع السمات الأسلوبيّة المميّزة لهذا الشاعر أو ذاك من قراءة أعماله الإبداعيّة، أي إنّ (يانكوفيتش)

(١٧) اتّجاهات البحث الأسلوبي، دراسات أسلوبية: اختيار وترجمة وإضافة، شكري محمد عياد، دار العلوم، ط١، الرياض ١٩٨٥، ص ١٩١–٢١٠.

يسأل السؤال نفسه الذي سأله عرار: أين يمكن العثور على الروح الشعريّة لدى الشاعر، أيّ شاعر؟

إذا كان كلّ عمل أدبي محدودًا بذاتيّتين: ذاتيّة المبدع وذاتيّة المتلقّي، فإنّه يغدو امتدادًا لنشاطهما المشترك، وحتّى نقف على حقيقته لا بد لنا من إنجاز مهمّتين هما: إعادة بناء المقصد الإبداعيّ للكاتب، وتفسير الإمكانات الدلاليّة للعمل المُنْتَج، وهاتان مهمّتان عسيرتان على الإنجاز؛ لأنّ مقصد الكاتب في شكله المغترب لا يمكن أن يكون مفهومًا إلاّ عندما تتملّكه ذوات فرديّة أخرى، وهنا تتشتّت وحدة العمل الأصليّة في تحقّقات مختلفة، وقد تكون شديدة التناقض. وعلى ذلك فإنّ العمل التام لا يوجد في أيّ مكان، وإنّ «التحقّق المثاليّ» الذي تصوّره (رومان إنجاردن) غير ممكن؛ لأنّ العمل الفنّيّ ما هو إلا علامة لا أكثر ولا أقل(١٨).

وعندما يرى الناقد الإيطالي (بندتو كروتشي) العمل الفنّيّ إلهامًا حدسيا، وينظر إليه على أنّه تعبير متفرّد عن الشخصيّة، وأنّه إبداع تامّ للفرد، فإنّه بذلك يسدّ الطريق على دخول الذات الأخرى إلى هذا العمل، فكيف يمكن أن تتملّك الذاتُ القارئةُ فرادةَ الذاتِ المبدعةِ وأن تتعرّف منجزَها دون أن تلغي فرادتها تلك؟(١٨) ولعلّ هذا هو ما شكا منه عرار حين عجز عن تعريف الروح الشعريّة، وإن كان أدرك جوانب منها في تذوّقه للأشعار، دون القدرة على تحديد مكمن الإبداع بجلاء ووضوح، فاستمع إلى حيرته تلك وإعجابه بهذا البيت الشعري، وإن عجز عن تعليل انفعاله حيث يقول: «فلو أسمعناك بيتًا من قصيدة للشيخ فؤاد الخطيب يشتمل على معنى أبسط من بسيط ومعروف لديك ولدى كلّ إنسان وهو قوله:

مَـا الـذِي تَرْجُـوهُ مِـنْ يَـوْمِ غَـدٍ كُـلُّ يَـوْمٍ كَـانَ بِـالأَمْسِ غَـدَا

(١٨) انظر: اتّجاهات البحث الأسلوبي ، ص١٩١-١٩٢ .

لو أسمعناك هذا البيت نجد أنك وإن لم تستطع تصور (تابلو) [صورة فنّيّة] بسهولة تترجم عن المعنى الذي أراده الشاعر إلاّ أنّ سماعه قد أحدث انفعالاً غير عاديّ»(١٩).

وينظر الناقد الألماني (ولهلم دِلْتي) إلى العمل الفنّيّ باعتباره خبرة محوّلة إلى شكل فنّي، والشكلُ وحدَه لديه هو الذي يرفع واقعة ما إلى أهميّتها الحقيقيّة، فتكتسب تلك الواقعة دلالة مستقلّة أو قيمة خاصّة داخل «العالم الآخر»، عالم العمل الأدبيّ، وهكذا يتجاوز الشكلُ الأغراضَ المحدودةَ للحياةِ اليوميّة، ويصبح الشعر بذلك – عند (دلتي) – وسيلة لفهم الحياة(٢٠). وقد وقف عرار على شيء قريب من مثل هذا الفهم، فكأنّه دقّق فيه موافقًا مرّة ومعارضًا أخرى، وكان مفصحًا عن أهميّة تجربة الشاعر وخبرته، ثم تساءل عن أهميّة الشكل، وحاول إعادة صياغة الشعر بأسلوب نثريّ ليثبت تلك القيمة التي للشكل، فاستمع إليه حين يحلّل الروح الشعريّة بضرب المثال عليها فيقول: «خذوا لكم مثالاً هذين البيتين لقيس بن الملوّح المعروف بمجنون ليلى:

وَخَبَّرْتُمَـــانِي أَنَّ تَيْمَـــاءَ مَنْـــزِلٌ لِلَيلَى إِذَا مَا الصَّيْفُ أَلْقَى المَرَاسِيَا
فَهَذِي شُهُورُ الصَّيْفِ عَنَّا قَدِ انْقَضَتْ فَمَـا لِلنَّـوَى تَرْمِـي بِلَيْلَـى المَرَامِيَـا

هذان البيتان ليس فيهما شيء من رقّة الوصف ولا من بلاغة اللفظ ولا من تصوير لأيّ إحساس غير مألوف، بل هما عبارة عن رجل يسأل صاحبيه سؤالاً عاديًا بأسلوب عاديّ عن حادث معلوم بينهما. ربّما إنّ شهرة مجنون ليلى تجعل من قصّته ما يساعد على التأثّر بهذين البيتين أكثر ممّا ينبغي لهما، ولكن لو قرأ هذين البيتين

(١٩) على هامش العشيّات، ص١٧١ .

(٢٠) انظر: اتّجاهات البحث الأسلوبي، ص١٩٣.

إنسان لا يعرف شيئًا من حديث مجنون ليلى أيضًا لتأثّر بهما كثيراً أو قليلاً تبعًا لمزاجه، ولانفعلت عواطفه بسماعهما انفعالاً كلّيا أو جزئيا. هذا مع بساطتهما، ولرأينا سامعهما يشعر بأنّ تساؤل هذا الذي يقول «فَمَا لِلنَّوَى تَرْمِي بِلَيْلَى المَرَامِيَا» سؤال فيه شيء غير الروح التي تكون في قولنا «لقد كان الصيف موعدًا لرجوعها إلينا ولكنّ الصيف قد انقضى وهي لم ترجع بعد»[٢١]. فهذا التعليق لعرار يؤكّد أهميّة خبرة الشاعر من وجه، ثم هو يحيل على شكل العمل من وجه آخر، نافيًا حاجة السامع لأن يكون على معرفة بالقائل أو على معرفة بخبرته الخارجة عن إطار بوح الشعر بها، ومؤكّدًا أنّ هذه الصياغة أو هذا الشكل الشعريّ هو الذي أشاع الروح في البيتين، فلمّا نثرهما نُزعت الروح الشعريّة منهما تمامًا.

ويقدّم عرار نموذجًا آخر يؤكّد فيه أهميّة المتلقّي ومدى فاعليّته في عمليّة التصوّر، وفي الوقت ذاته ينفي عن هذا الشعر أن يكون خارقًا في اللفظ أو الأسلوب أو الوصف، ويعوّل في المقام الأوّل على ما يثيره الشعر في المخيّلة، وما يوقظ في نفس المتلقّي من الإحساس الكامن، مما يجعل الروح الشعريّة ناجمة عن التفاعل بين الذاتيتين؛ ذاتيّة المبدع وذاتيّة المتلقّي عن طريق الوسيط، أي العمل الأدبي، وغير مقتصرة على مقولة (دلتي) التي تكاد تنحصر في الشكل وحده، «خذوا هذه الأبيات لذي الرُّمَّة حيث يقول:

فَوَاللهِ مَا حَدَّثْتُ سِرَّكِ صَاحِبًا ... أَخًا لِي وَلاَ فَاهَتْ بِهِ الشَفَتَانِ
سِوَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُ يَوْمًا لِصَاحِبِي ... ضُحًى وَقَلُوصَانَا بِنَا تَخْدَانِ
هَوَى نَاقَتِي خَلْفِي وَقُدَّامِي الهَوَى ... وَمَا لِيَ بِالعِبْءِ الثقِيلِ يَدَانِ

(٢١) على هامش العشيّات، ص١٦٨-١٦٩.

فإنّكم لا تجدون فيها أي شيء خارق لا في اللفظ ولا في الأسلوب ولا في الوصف، ولكنّها مع ذلك كلّه تكون عاملاً في إيقاظ إحساس من إحساساتكم الكامنة، وبالحري فإنّها ما تكاد تطرق مسامعكم حتى يخامركم مع سماعها بآنّ واحد شعور غريب يجعلكم تتخيّلون صورة؛ أي: (tableau)، تتراءى لأعينكم فيها صورة ثانية للأثر الذي تركه فيكم سماع هذه الأبيات»[٢٢]. ويؤكّد عرار مرّة أخرى أنّ شعراً يشتمل على دقّة الوصف أو بلاغة التركيب والتعبير لا يكون بالضرورة مشتملاً على الروح الشعرية، ويضرب مثلاً على ذلك من شعر أحمد شوقي بك أمير شعراء العصر:

تِلْكَ الطبيعَةُ قِفْ بِنَا يَا سَارِي حَتَّى أُرِيكَ بَدِيعَ صُنْعِ البَارِي
الأَرْضُ حَوْلَكَ وَالسَّمَاءُ اهْتَزَّتَا بِرَوَائِعِ الآيَاتِ وَالآثَارِ
مِنْ كُلِّ نَاطِقَةِ الجَلاَلِ كَأَنَّهَا أُمُّ الكِتَابِ عَلَى لِسَانِ القَارِي

هذه أبيات بليغة وفيها استعارة وفيها تشبيه وإيضاح وتفسير لما أراد أن يحيطك الناظم به علمًا، ولكنّك لا تستطيع أن تستوحي منها منظرًا تصوّره ولا تشعر بإحساس غير عاديّ يستيقظ في أعماقك»[٢٢]، فعرار يؤكّد أنّ أحمد شوقي هنا هو ناظم حسب، وليس بشاعر؛ لأنّه لم يستطع أن يحرّك مشاعر المتلقّي، أو يستثير مخيّلته ليتصوّر صورة تتغلغل في أعماق الروح، وهكذا لم تستطع العناصر الشكليّة وحدها أن تنهض بمفهوم الروح الشعريّة النهوض المطلوب، وعليه فالنموذج النظري الذي يقدّمه الناقد (دلتي) يبقى كذلك نموذجًا ناقصًا، لأنّه اكتفى بالشكل ولم يحفل بالمتلقّي أو بتلك الروح التي يبحث عنها عرار.

يقترح الناقد التشيكي (يان موكاروفسكي) مبدأً أسلوبيا لدراسة شخصية الأديب في أعماله كلّها، انطلاقًا من أنّ الشخصيّة هي سمة نوعيّة يمكن تبيّنها داخل بنية

(٢٢) على هامش العشيّات، ص١٦٩– ١٧١.

العمل، وبذا فإنّه يُحلّ دراسةَ العملِ مصدراً محلّ دراسة مصادر العمل، وقد جعل ذلك كلّه تحت عنوان رئيس أطلق عليه مصطلح «الإيماءة الدلاليّة».

وقد أوجز المبادئ الأساسيّة لمنهجه النقديّ في ذلك في مقدّمة كتابه عن أعمال الشاعر (ماشا) عام ١٩٢٨م، فميّز بين عناصر العمل؛ وهي محايدة من الناحية الجماليّة (الإسطاطيقيّة)، وكيفية اكتسابها طاقة جماليّة داخل العمل، مواكبًا بذلك عمل الشكليّين الروس الذين سار على نهجهم، وقد عُني (موكاروفسكي) بلوازم الفاعليّة الجماليّة التي يمكن تعيينها في السمات الجماليّة للأشكال الماثلة في شعر الشاعر ونثره معًا، على اعتبار أنّ الكيفيّة التي تنظّم بها المادة هي كيفيّة ذات طبيعة دلاليّة، أو قُل إنّ كيفيّة التنظيم هذه يمكن أن تكون هي العنصر المهيمن الذي تقوم عليه الوحدة الدلاليّة للعمل، وكذلك وحدته الفنّيّة(٢٣).

كذلك التفت (موكاروفسكي) إلى الذاتيّة الثانية للعمل وهي ذاتيّة المدرِك –أي المتلقّي–، فلم تكن شخصيّة المؤلّف لتظهر على أنّها السمة الجوهريّة المميّزة للعمل الأدبيّ إلاّ من زاوية المتلقّي، ممّا نسخ الفكرة التي ترى في العمل الأدبيّ بنية داخليّة مقفلة على نفسها تمامًا، وحلّت محلّها النظرة إلى العمل على أنّه مفتوح لدخول الذات المدرِكة أو ذات المتلقّي، حتّى على أقرب المستويات الدلاليّة إلى الأساس، فلم يبق العمل دون تغيير، لا من حيث هو بنية ولا من حيث هو علامة، وصار يعمل مصدراً للطاقة المؤثّرة في حياة المتلقّي، ممّا ولّد القيمة المستقلّة للفنّ، التي لم تعد صفة ثابتة أو مجموعة من الصفات الثابتة، بل صارت قيمة معبّرة عن القدرة الحركيّة للتركيب الداخليّ للأدب، ولم تعد الشخصيّة الإبداعيّة ولا الشكل الفنّيّ الخالص هما الهدف النهائيّ للتحليل البنيويّ، بل صار يُنظر إلى شخصيّة الفنّان على أنّها مُنتجَة لإمكانات جديدة تسمح للأشكال الفنيّة أن تقوم بدور إيجابيّ في تشكيل عالم

(٢٣) انظر: اتّجاهات البحث الأسلوبي، ص١٩٤– ١٩٥.

الإنسان(٢٤). وقد ظهر مثل هذا بوضوح في كلام عرار عندما قرأ الأشعار الفصيحة والبدوية في مقالته، فهو يقرأ الشعر ويُقرئه السامعين ليشكّلوا معًا المعنى الذي أسهم فيه المبدع أوّلاً، وباحت به البنية الشعريّة للأبيات ثانيًا، واستخلصته ذائقة المدركِين أخيراً، فيقول: «هاكم قولَ أحدِ رُعاة البدو وقد وقف على منزل خطيبته يقول:

هَـذَا مَكَـانْ صَـوِيحِبِي وَأَحَـلاَلِي　　هَـذَا مَكَـانِ اللِّـي عَسَـاهُمْ يرِيعُـونْ
هَـذَا مَكَـانْ بْـوِيتِهِم وَالحْبَـالِي　　هَـذَا مَكَـانْ رَحْـيِهِمْ حِـيْنِ يِرْحُـونْ

هذا كلام عادي. هو يحدّثنا بشعره هذا فيقول: إن هذا المكان قد سبق أن اشتمل على مضرب لخطيبته وهذه هي آثار أوتاد الحبال التي تُشد إليها، وهذا هو مكان الطاحونة الصغيرة التي كانوا يطحنون عليها، وإنه ليرجو رجوعهم. أمعِنوا نظر الفكر في مقاله هنا على الصفة التي أورده بها تجدوا أنّ بكلامه من الأثر في نفوسكم من سذاجة المعنى ما لا يسعكم إنكاره، وقارنوا بين قول هذا وقول شاعر بدوي آخر كانت له نفس الوضعية:

جِيتِ الـدِّيَارِ اللِّي بِهَا القَلْبْ مِحْتَاسْ　　وعُشْـبٍ عَلَـى دَارِ الحَبِيـبْ مَبْـنِي
هَـذَا مَطَـبِّ البِيـتْ وِمْشَاقْـةِ الـرَّاسْ　　وثَــلاَثْ لاَ يِــبْكِنْ وَلاَ يِنْبَكِــنِّي

يريد أن يقول إنه جاء منزل حبيبته ...، فإذا أمعنتم النظر في التأثير الذي تحدثه مثل هذه الأقوال وفي تأثّركم ببيت كُثَيِّر عَزَّة حيث يقول:

خَلِيلَـيَّ هَـذَا رَبْـعُ عَـزَّةَ فَـاعْقِلاَ　　قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ

(٢٤) انظر: اتّجاهات البحث الأسلوبي، ص١٩٥– ١٩٦.

وجدتم أن الروح المؤثّر في كلّ ما سمعتم واحدة مع اختلاف الوصف والأشخاص والتركيب والزمن»[٢٥].

فعلى هذا النحو يلتقي عرار مع مبدأ هذا الناقد في البحث عن الروح الشعريّة التي تكاد تلتقي إلى حدٍّ بعيد مع الإيماءة الدلاليّة، ففي الحالين نحن نحاول استكشاف شخصيّة المبدع من سمات أسلوبيّة كامنة في العمل الأدبيّ ومتجلّية فيه، كما هي كامنة في ذات المبدع ومتجلّية فيه كذلك، وليس من وسيلة للقيام بذلك إلا نفوسنا المنفعلة بالعمل بوصفنا متلقّين ومدرِكين له مشاركين في إكمال التجربة واكتمالها.

لذا فقد تقاطع عرار مع فحوى كلام هذا الناقد الذي يذهب إلى أنّه «يجب عند تحليل عمل فنّيّ ما أن تُختَزَل جميع عناصره للحصول على قاسم مشترك، وهذا القاسم المشترك هو المعنى،...، إنّني لا أدعو إلى دراسة المضمون الشعريّ كما يتبادر من كلمة «المعنى»، وكذلك لا أريد أن أحصي الأقسام والمجالات الدلاليّة العامّة التي استمدّ منها الشاعر موضوعاته الشعريّة، بل إنّني لا أريد بحث الدلالة الفلسفيّة لشعر الشاعر، ولكنّي أريد أن أعيد بناء تلك الإيماءة المجرّدة من محتوى معيّن (وهذا المعنى مكنّك – إن شئت – أن تقول عنها إنها شكليّة، تلك الإيماءة التي اختار بها الشاعر عناصر عمله وصهرها في وحدة دلاليّة»[٢٦]. فهذا هو عينه الذي ظل عرار يحوم حوله ليعرّف الروح الشعريّة التي تستعصي على التعريف، والتي يصعب حصرها في المعنى أو الشكل. ولكن ما يمكن الركون إليه باطمئنان هو أن عرارًا قد تمثّلها في شعر الآخرين خير تمثّل وتشرّب روحها، حتّى شكّلت لديه هو السمة الأسلوبيّة الخاصة به، والتي يمكن أن نطلق عليها الإيماءة الدلاليّة لديه بتَمَيُّز، وذلك لأنّ الإيماءة الدلاليّة

(٢٥) على هامش العشيّات، ١٧٢–١٧٣.

(٢٦) اتّجاهات البحث الأسلوبي، ص١٩٧.

هي تحقيق محسوس للوظيفة الجماليّة/ الإسطاطيقيّة في البنية الدلاليّة للعمل. فالوظيفة الجماليّة/ الإسطاطيقيّة هي العنصر الأقل شخوصًا في هذه البنية، وذلك نظرًا لكونها، على وجه التحديد، «موقفًا معنويًا» أو «منظورًا معنويًا». وبعبارة أبسط: إنّ الإيماءة الدلاليّة هي دعوة أو توجيه للمدرِك كي يتّخذ موقفًا شبيهًا في إبداعه بموقف الفنّان، ومهما يكن موضوعها غير محدد فإنّها إشارة محسوسة مؤثّرة؛ ومن حيث هي تركيب معنويّ فإنّها بطريقتها الخاصّة – أي بلغة الشكل– رسالة على درجة كافية من الوضوح(٢٧).

ولعلّنا لا نخطئ تقدير هذه الروح الشعريّة أو الإيماءة الدلاليّة لدى عرار في شعره ونثره على السواء، وهي التي كانت محط عنايته في نقده الأدبي الجاد، وهذا الأمر يجعلنا ندرك الطبيعة الفنيّة لعرار، حيث كان فنّانًا صادقًا في كل ما كتب، وهذا هو الملمح الرئيسيّ في شخصيّته، فهو نموذج للشاعر الرومنسي الصادق في مذهبه، بحيث يغدو فنّه هو حياته، كما غدت حياته هي الفنّ الذي يؤمن به، وسوف أدلل على هذه الروح الشعرية لديه أو الإيماءة الدلاليّة في إبداعه بمقتطفات من قصيدة واحدة له، أعدُّها معلّقته بحق، وهي التي جاءت تحت عنوان «بقايا ألحان وأشجان»(٢٨)، وقد افتتحها بقوله:

عَفَا الصَّفَا وانتَفَى مِنْ كُوخِ نُدْمَانِي وَأَوْشَكَ الشَّكُّ أَنْ يُودِي بِإِيمَانِي

ففي المطلع أثر الشعر القديم في عرار، وملمح الطلل، وسخرية منه باستحضار الكوخ، وبيان حالة الشك المودي باليقين، والإيمان الديني، وستخيم روح هذا المطلع على أبيات القصيدة بتمامها، وهي بمجموعها أزيد من مئة وثلاثين بيتًا، وحين

(٢٧) اتّجاهات البحث الأسلوبي، ص١٩٩.

(٢٨) عشيّات وادي اليابس، ص٣٦١-٣٧٤.

يبحث الشاعر حيدر محمود عن روح عرار الشعرية سيجدها ماثله في هذا البيت وغيره من القصيدة، فيقول على غراره(٢٩):

عَفَـا الصَّـفَا وانتَفَـى يَـا مُصْـطَفَى وَعَلَتْ ظُهُورَ خَيرِ المَطَايَا شَرُّ فُرْسَانِ

فيدمج ما بين المطلع وبيت عرار الآخر الوارد فيها وهو:

مَـوْلَايَ! إنَّ المَطَايَـا لاَ تَسِـيرُ إِلَى غَايَاتِهَـا، إِنْ عَلاَهَـا غَيْـرُ فُرْسَـانِ

لقد استخلص حيدر محمود روح عرار الشعريّة أو إيماءته الدلاليّة من مفردات وتراكيب ومعانٍ أو موضوعات تجعل السامع يدرك مدى التداخل مع شعر عرار والانفصال عنه في الوقت نفسه.

ولعلّني لا أطيل بالاقتباس من القصيدة والتعليق عليها، وسأكتفي بإثبات عدد من أبياتها على غير نظام؛ لأنّ كثرة تداول شعر عرار بوصفه «شاعر الأردن» ربما جعل أي سامع لا يخطئ إدراك الروح الشعريّة لديه، والبصمة الخاصّة التي طبعت شعره وفنّه وحياته، فقد تكفّل هذا التكرار لسماع شعره لدى متلقّيه الكُثْر، والمعجم الشعري الخاص به، وأسلوب المعالجة الفنية، مع تركيزه على موضوعات بأعيانها، وغرامه بأماكن دون غيرها، وشغفه بجملة من المشاعر والأحاسيس، مع تقديس للحريّة وصدق العيش في كنفها، تكفّل ذلك كلّه بجعل السامع يدرك شعره من سماعه البيت له أو البيتين، وهذه هي الإيماءة الدلاليّة التي لا يجهد متلقّي شعره نفسَه للإمساك بها؛ لأنّ شعره هو حياته، وحياته هي شعره.

فمن أبيات قصيدته تلك:

سِيمَتْ بِلاَدِي ضُرُوبَ الخَسْفِ وانتُهِكَتْ حَظَائِرِي وَاسْتَبَاحَ الذِّئْبُ قُطْعَانِي
إِلَيْكَهَـا عَـنْ أَبِي وَصْـفِي مُجَلْجِلَـةً أَبَـا طَـلاَلٍ وَمَـا قَـولِي بِبُهْتَـانِ

(٢٩) الأعمال الشعريّة الكاملة، حيدر محمود، أمانة عمان الكبرى، عمان ٢٠٠٢، ص ١١٣.

مَاذَا عَلَى النَّاسِ مِنْ لَهْوِي وَمِنْ عَبَثِي مَاذَا عَلَى النَّاسِ مِنْ جَهْلِي وَعِرْفَانِي
قَالُوا تَدَمْشَقَ، قُولُوا: مَا يَزَالُ عَلَى عِلاَّتِهِ إِرْبِدِيَّ اللَّونِ حَورَانِي
وَلْيَتَّقِ اللهَ بِي شَعْبٌ وَفَيْتُ لَهُ حَقَّ الوَفَاءِ وَبِالنُّكْرَانِ كَافَانِي

واستمع إليه يقول في ختام معلّقته تلك:

قَالُوا: لِشِعْرِكَ عُشَّاقٌ بِوُدِّهِمُ أَنْ يَجْمَعُوا بَعْضَهُ فِي شِبْهِ دِيوَانِ
فَقُلْتُ: شِعْرِيَ أَشْلاَءٌ مُبَعْثَرَةٌ كَأَنَّهَا عُمُرِي فِي كُلِّ مَيْدَانِ
وَيَومَ يَأْزِفُ مِيعَادُ النُّشُورِ وَمَا يُفْضِي بِهِ البَعْثُ مِنْ سِرٍّ وَإِعْلاَنِ
لَسَوفَ يَسْمَعُ حَتَّى الصُّمُّ مِنْ غُرَرِي آيَاتٍ تَلَفَّظُهَا أَفْوَاهُ خُرْسَانِ
يَا أُرْدُنِيَّاتُ إِنْ أَوْدَيتُ مُغْتَرِبًا فَانْسِجْنَهَا بِأَبِي أَنْتُنَّ أَكْفَانِي
وَقُلنَ لِلصَّحْبِ: وَارُوا بَعْضَ أَعْظُمِهِ فِي تَلِّ إِرْبِدَ أَوْ فِي سَفْحِ شِيحَانِ
قَالوا: قَضَى وَمَضَى وَهْبِي لِطِيَّتِهِ تَغَمَّدَتْ رُوحَهُ رَحْمَاتُ رَحْمَانِ
عَسَى وَعَلَّ بِهِ يَوْمًا مُكَحَّلَةً تَمُرُّ تَتْلُو عَلَيهِ حِزْبَ قُرْآنِ

فهذه أبيات من قصيدة وقصائد كلّها متناغمة، ما إن يسمعها السامع حتى تمثُلَ أمام ناظريه صورة عرار؛ حزينًا على أشلاء أوطان تئنّ تحت وطأة الاستعمار، وضجرًا من خصال الناس الكبار والصغار والحاكمين والمحكومين والظالمين والمظلومين، وقابضًا على جمر الحُرِّية، ومُغَنِّيًا للموت كما للحياة بِسَمْتِ فيلسوف كبير وفنان عظيم الشأن.

مصطفى وهبي صالح التل الملقّب بـ(عرار، شاعر الأردن): ولد في مدينة إربد شمال شرق الأردن في ٢٥ أيار ١٨٩٩، انضم للمدرسة الابتدائية في مدينة إربد، ثم سافر إلى دمشق عام ١٩١٢ للالتحاق بمكتب عنبر للدراسة هناك، فنفي إلى حلب

حيث أكمل دراسته الثانوية في المدرسة السلطانية في مدينة حلب، ثم تركها إلى بيروت منفيا كذلك بسبب تطاوله على والي دمشق، فأكمل دراسته فيها إذ درس القانون في أواخر العشرينيات، واجتاز فحص وزارة العدلية ليحصل على إجازة المحاماة عام ١٩٣٠. عمل في مناصب عديدة في الأردن في عهد الإمارة ثم المملكة، وكان من ندماء الملك عبد الله بن الحسين، وله معه مواقف تسببت في نفيه تارة وفي سجنه طورًا، ومع ذلك فقد حصل على وسام النهضة من الدرجة الثالثة. أتقن التركية وتعلم الفرنسية والفارسية. وكانت له إطلالات ثقافية متنوعة على التراث الغربي والشرقي، إلى جانب عنايته الفائقة بمعرفة الشعر العربي القديم، وأبدى عناية خاصة بالنَّوَر أو (الغجر) في شعره. ترك عددًا من الآثار النثرية إلى جانب ديوانه الشعري: عشيات وادي اليابس: وهو ديوانه الشعري الذي تكلم فيه عن أحوال المجتمع والناس وهمومهم، ومن تلك الآثار؛ بالرفاء والبنين – طلال– مشترك مع خليل نصر، والأئمة في قريش، وأوراق عرار السياسية، وترجمة رباعيات عمر الخيام، وما زالت تظهر له بعض الكتابات التي لم تنشر في حياته. توفي في ٢٤ أيار ١٩٤٩، ودفن في تل إربد، وصار بيته ومدفنه (بيت عرار) أحد بيوت الثقافة في الأردن حديثًا.

الأصوات المفردة عند سيبويه

د. إبراهيم محمّد البب(*)

يعود الفضل في نشر الدراسات الصوتية بين علماء العربية القدماء إلى (الخليل بن أحمد الفراهيدي)، فهو الرائد الأول، وصاحبُ الفضل الأسبق في هذا المجال، ولكنّ اتّساع مجال هذه الدراسات، وفَتْحَ الباب على مصراعيه كان من عمل سيبويه، الذي وَرِثَ آراء أستاذه الخليل، ووصفها في عمله الموسوم «بالكتاب»، واستطاع – بالملاحظة فقط – أن يقدم وصفًا دقيقًا لأصوات العربية، دون أن يكون له من الوسائل الآلية الحديثة ما يوثّق به نتائجه الحسية. ولم يقتصر على الأصوات العربية، بل تعداها إلى أصوات غير عربية، شاعت بين العرب في القرن الثاني الهجري وسماها أصواتًا غير مستحسنة(**).

وقد كان سيبويه على وعيٍ تام بأنَّ دراسة الأصوات ضرورية لدراسة اللغة وعلومها، فراح يتناول هذه الأصوات بالوصف من حيث المخرج وطريقة النطق والجهر

(*) أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بجامعة تشرين.

(**) لم يذكر سيبويه كلمة «الصوت» وإنما سمّاه حرفًا.

والهمس والتفخيم والترقيق... معتمدًا على الهواء أو النفس الذي يتّخذ بعد صدوره من الرئتين، طريقه حتى الشفتين في مجرى يتسع حينًا، ويضيق حينًا آخر، وينحبس حينًا ثالثًا. ولدى كل نقطة يتكوّن صوت لغوي، فيأخذ صورة حين يتسع المجرى لدى هذه النقطة، وصورة حين يضيق، وصورة ثالثة حين ينحبس، وفي هذه الأحوال الثلاث تُعدّ هذه النقطة مخرجًا للحرف أو مكانًا لصدوره.

ومع أنّ التجارب الصوتية الحديثة قد أيدت كلام سيبويه في كثير من الحالات التي وصفها أو تحدث عنها؛ فإن كتابه لا يخلو من بعض القصور أو الملاحظات أو الخلافات التي سجلها المحدثون، فقد اتّجه – شأنه في ذلك شأن القدماء جميعًا- من الحروف إلى الأصوات، وهو اتّجاه يخالف المحدثين الذين يتجهون من الأصوات إلى الحروف، ولم يفرق بين الصوت والحرف كما نفرّق اليوم، بل إن الأصوات عنده حروفٌ للغة، ولكل حرف رمزٌ كتابي يدلّ عليه دون النظر إلى ما يندرج تحت هذا الحرف من أصوات.

وسوف نتناول في هذا البحث موقف سيبويه من هذه الأصوات عددًا ومخرجًا ووصفًا. ثمّ نبيّن في نظرة تحليليّة الخلاف بينه وبين علماء اللغة المحدثين، الذين كان لهم موقف آخر مخالف لموقف سيبويه في كثير من أصوات العربيّة.

أولاً– عدد الأصوات المفردة :

يختلف عدد الأصوات تبعًا لنوعها: فمنها ما هو أساسيّ لا غنى للعربيّة عن أيّ صوت منه، ومنها ما هو مستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهناك نوع ثالث يسمّيه سيبويه مستقبحًا ينمّ على ضعف من يستعمله.

أ– الأصوات الأساسيّة:

يرى سيبويه أن عدد الأصوات الرئيسية للحروف العربية تسعةٌ وعشرون صوتًا، هي على الترتيب[١]:

(١) الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السّلام هارون، عالم الكتب، بيروت، ٤/٤٣١.

الهمزة (ء)، والألف (ا)، والهاء (ه)، والعين (ع)، والحاء (ح)، والغين (غ)، والخاء (خ)، والكاف (ك)، والقاف (ق)، والضاد (ض)، والجيم (ج)، والشين (ش)، والياء (ي)، واللام (ل)، والراء (ر)، والنون (ن)، والطاء (ط)، والدال (د)، والتاء (ت)، والصاد (ص)، والزاي (ز)، والسين (س)، والظاء (ظ)، والذال (ذ)، والثاء (ث)، والفاء (ف)، والباء (ب)، والميم (م)، والواو (و).

والهمزة عند سيبويه نبرة تخرج من الصدر باجتهاد؛ وهي أقصى الأصوات مخرجًا. وهو يتفق مع أستاذه الخليل على بداية الأصوات من الحلق، ولكنه يختلف معه في ترتيبها. فالخليل يبدؤها من الأبعد إلى الأقرب؛ وبمعنى آخر من أقصى الحلق إلى الشفتين، وهي مرتبة عنده على النحو التالي[٢]:

ع ح ه خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ز، ط د ت، ظ ذ ث، ر ل ن، ف ب م، و ا ي ء.

من الواضح أنّ الخليل جعل الهمزة – على عكس سيبويه – آخر هذه الأصوات ؛ لأنها في الهواء، ليس لها حيّز تنسب إليه إلا الجوف، وهي هوائية لا يتعلق بها شيء عند النطق. وقد سُميت حرفًا هوائيا... «لأنها تخرج من الجوف، فلا تقع في مَدرجَةٍ من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدارج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيّزٌ تُنسبُ إليه إلا الجوف»[٣].وقد تبع سيبويه في بداية الأصوات من الهمزة الزمخشري[٤].كما تبعه ابن جني؛ ولكنه جعل القاف قبل الكاف، والجيم

(٢) انظر العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، ج١/٦٥.

(٣) نفسه، ص٦٤، وقد جعل الخليل الهمزة أقصى الحروف، ولم يبتدئ بها بل أخّرها لأنها حرف معتل كثير التحوّل ولا هجاء لها.انظر، علم الأصوات عند الخليل، د.أحمد قدور، دار الفكر، طبعة ٢، ص٢٩.

(٤) انظر: شرح المفصل لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، ج١٠/١٢٣، وانظر أيضًا: المفصل في علم العربيّة للزمخشري، دار الجيل، بيروت، ط٢، ص٣٩٣.

والشين والياء قبل الضاد[٥].أما المبرّد فقد عدها ثمانية وعشرين، وأسقط الهمزة لأنها غير ثابتة، ولكنه أثبتها عندما تحدث عن الجهر والهمس[٦].

ب– الأصوات المستحسنة:

ويضيف سيبويه لهذه الأصوات الأساسية ستة فروعٍ أخرى، أصلها من التسعة والعشرين[٧].يؤخذ بها وهي مستحسنة في قراءة القرآن والأشعار. وقد تبعه ابن يعيش[٨] والمبرّد[٩] في استحسان هذه الأصوات الستة، وهي:

١– النون الخفيفة: هكذا وصفها سيبويه ثمّ المبرّد، أما ابن جني[١٠] فيسميها بالخفيّة، ولم يمثل لها سيبويه، ولكن يبدو أنه أراد الخفية لا الخفيفة، لأن الخفية هي نون الإخفاء قبل التاء، والثاء، والجيم، والدال، والذال، والزاي، والسين، والشين، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والفاء، والقاف، والكاف. أما النون الخفيفة فهي إحدى نوني التوكيد التي تُقلب ألفًا في الوقف.

٢– الهمزة بين بين: وقد سمّاها سيبويه الهمزة المخفّفة، وهي همزة متحركة تكون بعد ألف أو بعد حركة، وتصبح عند النطق خفقة صدرية من دون أن يصاحبها قفل للأوتار الصوتية. وتكون بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها، فإذا كانت مفتوحة فهي بين الهمزة والألف، وإذا كانت مضمومة فهي بين الهمزة والواو، وإذا كانت

(٥) انظر كتابه: سر صناعة الإعراب، تحقيق لجنة من الأساتذة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر ط ١، ج١/٥٠.

(٦) انظر: المقتضب للمبرد، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ١/ ١٩٢، ١٩٥.

(٧) انظر: هذه الفروع الستة في الكتاب ٤/٤٣٢.

(٨) انظر: شرح المفصل ١٠/١٢٥.

(٩) انظر: المقتضب ١/١٩٤.

(١٠) انظر: سر صناعة الإعراب ١/٥٣.

مكسورة فهي بين الهمزة والياء، نحو: «من عند أخيك، وهذا درهمُ أُختك، ومرتع إبلكَ»(١١).

٣– الألف الممالة إمالة شديدة: وتسمى ألف الترخيم لأنّ الصوت يلين معها ويقل جهره، وتصبح بين الألف والياء. وقد استعملت في قراءة القرآن الكريم: ﴿وَالضُّحَى۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١-٢](١٢).

٤– الشين التي كالجيم(١٣): وهي الشين المجهورة التي تقل استطالتها، وينحرف لفظها نحو صوت الجيم الذي نسمعه من اللهجتين السورية واللبنانية. وقد نطقت العرب هذا الصوت في بعض كلماتها. فكلمة أشدق تنطق أجدق؛ وذلك لأن الدال صوت مجهور والشين مهموس رخو فقُرِّبَ من صوت الجيم ليناسب الدال.

٥– الصاد التي كالزاي(١٤): وهي الصاد التي يُترك فيها الهمس وتميل نحو الجهر، ويقترب نطقها من النطق العامي للظاء في كلمة ظالم. ومن أمثلتها «مزدر» في «مصدر»، و«يزدق» في «يصدق»، و«الزراط» في «الصراط».

٦– ألف التفخيم بلغة أهل الحجاز: وهي التي تجنح في لفظها نحو الواو، إذ تستدير في نُطقها الشفتان، ويتسع الفم ويرتفع مؤخر اللسان حتى يغدو الفم صالحًا لإنتاج ذاك الصوت الذي يُدعى التفخيم. وقد دوِّنت بعض الكلمات بالواو، نحو:

---

(١١) الكتاب ٥٤٢/٣ وانظر حول هذه الهمزة: سر صناعة الإعراب ٥٣/١، وشرح المفصل ١٧٢/١٠.

(١٢) انظر:شرح المفصل ١٢٧/١٠ وسر صناعة الإعراب ٥٥/١.

(١٣) انظر:حول هذه الشين: سر صناعة الإعراب ٥٦/١، وشرح المفصل ١٢٧/١٠، واللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، مطبعة النّجاح الجديدة، المغرب، ص٥٣.

(١٤) انظر: في هذا الصوت والصوت الذي يليه: سر صناعة الإعراب ٢٥٦/١، وشرح المفصل ١٢٧/١٠، واللغة العربية معناها ومبناها ص٥٤.

الصلواة والزكواة للدلالة على أن هذه الألف مفخّمة تميل إلى الواو.

جـ- الأصوات المستقبحة:

وهي ثمانية أصوات وصفها سيبويه بأنها غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من تُرضى عربيته، ولا يؤخذ بها في قراءة القرآن ولا في الشعر، ولم يتحدث سيبويه عن هذه الأصوات، ولم يمثل لها، بل عدّدها فقط. أضف إلى ذلك أنه لم يبين: أَهِيَ قاصرة على الكلمات المعرّبة من الفارسية دون الكلمات العربية الأصلية؟ ولم يُشِرْ إلى أنها لحن أصاب ألسنة العرب أو سُمعت من الموالي. وكما يرى سيبويه هذه الأصوات غير مستحسنة يراها ابن جني(١٥).ويرى ابن يعيش(١٦): أنها مسترذلة تكلم بها قوم من العرب خالطوا العجم فتكلموا بلغاتهم. وهذه الأصوات هي(١٧):

١- الكاف التي بين الكاف والجيم: ذكر سيبويه هذا الصوت عند حديثه عن اطّراد الإبدال في الفارسية. ورأى أنّه يُبدل جيمًا لقربه منه. ومثّل له بالجُرْبُز، والآجُر، والجورب.(١٨)

أما ابن عصفور فقد مثّل له بكلمة كَمَلَ التي تصبح عند النطق على طريقة هذه الكاف جَمَلَ(١٩). ولم يفرّق ابن يعيش بينه وبين الجيم التي كالكاف، بل جعلهما صوتًا واحدًا، إلا أنّ أصل أحدهما الجيم وأصل الآخر الكاف. ونُقل عن ابن دريد أنه قال: «...هي لغة في اليمن يقولون في جمل: كمل، وفي رجل: ركل، وهي في عوام

(١٥) انظر:سر صناعة الإعراب ٥٧/١.

(١٦) انظر: شرح المفصل ١٢٨/١٠.

(١٧) انظر: الكتاب ٤٣٢/٤.

(١٨) انظر: الكتاب ٣٠٥/٤.

(١٩) انظر: المقرّب لابن عصفور، تحقيق أحمد عبد السّتّار الجواري، وعبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ٣٢٦/١.

أهل بغداد فاشية شبيهة باللثغة»[٢٠].

٢– الجيم التي كالكاف: لم يتحدث سيبويه عن هذا الصوت، وقد جعله ابن يعيش بمنزلة الصوت الذي قبله. ولكنّ ابن عُصفور مثَّل له بكلمة: رَجُل، التي تصبح رَكُل كالجيم القاهرية[٢١].

٣– الجيم التي كالشين: لم يمثل سيبويه لهذا الصوت، ولكنّ ابن يعيش[٢٢] يرى أنّه يكثر في الجيم الساكنة إذا جاء بعدها دال أو تاء كقولهم: اشتمعوا في اجتمعوا، والأشدر في الأجدر ، فالجيم والشين من مخرج واحد ولكن الشين أبين وأقوى.

٤– الضاد الضعيفة: لقد وصفها سيبويه بأنها متكلّفة من الجانب الأيمن أو الأيسر للسان، وقد جَمَعَت تَكَلُّفَ الإطباق مع إزالته عن موضعه، ولكنّه لم يمثّل لها، ونستطيع أن نفهم المقصود بها من وصف ابن يعيش[٢٣] لها، فهو يرى أنّ قومًا من العرب يصعب عليهم نطق الضاد الأصلية فيخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا فتخرج لديهم بين الضاد والظاء، ويمكن أن نفهمها من لفظ بعض العرب لكلمةٍ مثل: بَيْض، أو مَرَض.

٥– الصاد التي كالسين: والمقصود بها أنّ الصّاد تشبه السين، فهما مشتركان في المخرج والصفات عدا التفخيم والترقيق، فالصاد مفخمة والسين مرقّقَة. فإذا أشبهت الصاد السين فإن ذلك يعني أن الصاد تصبح مرققة كالسين. وقد جعل منها ابن يعيش قولهم في صبغ: سبغ، وفي صابر: سابر. ويرى أنّه أضعف من إبدال الصاد

---

(٢٠) شرح المفصل ١٠/١٢٧.

(٢١) انظر: المقرب ١/٣٢٦.

(٢٢) انظر: شرح المفصل ١٠/١٢٧–١٢٨.

(٢٣) شرح المفصل ١٠/١٢٧–١٢٨.

من السين «لأنّ الصاد أصغى في السمع من السين وأصفر في الفم».[٢٤]

٦– الطاء التي كالتاء: وهي طاء فقدت تفخيمها ومالت إلى الترقيق. وقد سُمع هذا الصوت من عُجْم أهل العراق ؛ إذ قالوا في طالب: تالب، وفي طال: تال؛ لأن هذه الطاء ليست من لغتهم فجاؤوا بصوت قريب منها.[٢٥]

٧– الظاء التي كالثاء: الظاء تختلف عن الثاء من ناحيتين: الأولى: الجهر والهمس، فالظاء مجهورة والثاء مهموسة. والثانية: التفخيم والترقيق؛ فالظاء مفخمة والثاء مرققة، وعندما تشبه الظاءُ الثاءَ فإنها تفقد إمّا الجهر، وإما التفخيم، وقد تفقد الجهر والتفخيم معًا. ومثّل لهذا الصوت ابن عصفور، وابن يعيش، فكلمة ظالم تصبح ثالم، وكلمة ظلم تصبح ثلم[٢٦].

٨–الباء التي كالفاء: ذكر سيبويه عند حديثه عن الإبدال في الفارسية حرفًا بين الفاء والباء لعلّه هو الذي يقصده هنا، وهذا الصوت شبيه بالباء الفارسية المهموسة التي تشبه صوت (p) في اللغات الأجنبية، وهو مختلف عن الباء العربية. وقد عرّبه العرب بقلبه فاءً، فكلمة «برزده» أصبحت «فرزدق» وكلمة «بالوزه» أصبحت «فالوذج»، وكلمة بوز أصبحت فوز[٢٧].

ثانيًا – مخارج الأصوات المفردة:

لقد أحصى سيبويه مخارج الأصوات، فأحكم ضبطها، وعدّها في ستة عشر مخرجًا، تبدأ من الأبعد إلى الأقرب، وهي:[٢٨]

---

(٢٤) المرجع السابق نفسه ١٢٨/١٠ .

(٢٥) انظر: شرح المفصل ١٢٧/١٠–١٢٨.

(٢٦) انظر: شرح المفصل ١٢٨/١٠، والمقرب ٣٢٦/١.

(٢٧) انظر: شرح المفصل ١٢٨/١٠، واللغة العربية معناها ومبناها ص ٥٦.

(٢٨) الكتاب ٤٣٣/٤، وقد تبعه في ذلك القدماء والمحدثون.انظر: سر الصناعة ٥٢/١، والمقتضب ١٩٣/١ وحاشيتها، وشرح المفصل ١٢٤/١٠، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي د.رمضان عبد التواب، ط ١، ص٣٢، ودروس في علم أصوات العربية لجان كانتيمو، ترجمة صالح القرمادي، الجامعة التونسية، ص٣١.

١– أقصى الحلق، وهو مخرج الهمزة، والهاء، والألف.

٢– أوسط الحلق، وهو مخرج العين، والحاء.

٣– أدنى الحلق، وهو مخرج الغين، والخاء.

٤– من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى: مخرج القاف.

٥– من أسفل مخرج القاف قليلاً، وما يليه من الحنك الأعلى: مخرج الكاف.

٦– من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى: مخرج الجيم، والشين، والياء.

٧– من أول حافة اللسان وما يلي هذه الحافة من الأضراس: مخرج الضّاد.

٨– من أدنى حافَة اللسان إلى منتهى طرف اللسان، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فُويق الثنايا «مخرج اللام».

٩– من طرف اللسان بينه وبين ما فُويق الثنايا: مخرج النون.

١٠– من مخرج النون إلا أنّه أدخل في ظهر اللسان قليلاً ؛ لانحرافه إلى اللام: مخرج الراء.

١١– مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا: مخرج الطاء، والدال، والتاء.

١٢– مما بين طرف اللسان وفُويق الثنايا: مخرج الزاي، والسين، والصاد.

١٣– ممّا بين طرف اللسان وأطراف الثنايا: مخرج الظاء، والذال، والثاء.

١٤– من باطن الشفة السُّفلى وأطراف الثنايا العليا: مخرج الفاء.

١٥– مما بين الشفتين: مخرج الباء، والميم، والواو.

١٦– من الخياشيم: مخرج النون الخفيفة.

أما الأصوات المستعملة في الفصحى المعاصرة فلها عشرة مخارج تنطق منها، وهي

مرتبة على النحو التالي[٢٩]:

١- أصوات شفوية، وهي الباء، والميم، والواو، ومخرجها الشفتان.

٢- أصوات أسنانية – شفوية، ولها صوت واحد وهو الفاء، مخرجه من اتصال الشفة السفلى بالأسنان العليا.

٣- أصوات أسنانية، وهي الذال، والظاء، والثاء، تخرج من اتصال طرف اللسان مع الأسنان العليا.

٤- أصوات أسنانية – لثوية، وهي الدال، والضاد، والتاء، والطاء، والزاي، والسين، والصاد، وتخرج من اتصال طرف اللسان بالأسنان العليا، ومَقْدَمِه باللثة.

٥- أصوات لثوية، وهي اللام والراء والنون، ومخرجها من اتصال طرف اللسان باللثة.

٦- أصوات غارية، وتسمى لثوية –حنكية، وهي الشين والجيم والياء، مخرجها من اتصال مقدم اللسان بالغار (الحنك الصلب الذي يلي اللثة).

٧- أصوات طبقية، وتدعى أصوات أقصى الحنك، وهي الكاف والغين والخاء، مخرجها من اتصال مؤخر اللسان بالطبق (الجزء الرخو الذي في مؤخر سقف الفم).

٨- أصوات لَهَوِيَّة، ولها صوت واحد هو القاف، مخرجه من اتصال مؤخر اللسان باللهاة.

٩- أصوات حلقية، وهي العين والحاء، مخرجهما من الحلق مع جذر اللسان.

١٠- أصوات حَنْجَرِية، وهي الهمزة والهاء، ويخرجان نتيجة إقفال أو تضييق للأوتار الصوتية.

---

(٢٩) انظر مخارج هذه الأصوات في: مناهج البحث في اللغة، د. تمّام حسّان، مطبعة النّجاح الجديدة، المغرب، ص١١٠، ١١٧، ١٥٦. واللغة العربية معناها ومبناها ص٧٩. والمدخل إلى علم اللغة، ص٣٠-٣١. أما د. كمال بشر ود.أحمد مختار عمر فقد عدّها أحد عشر مخرجًا. انظر كتابيهما:علم اللغة العَام (قسم الأصوات) دار المعارف بمصر ط ١ ص١١٢-١١٣، ودراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ص٢٦٩ وما بعدها.

يتضح مما تقدم أن سيبويه يتبع الخليل في ترتيب مخارج هذه الأصوات ترتيباً تصاعدياً يبدأ من أقصى الحلق إلى الشفتين. وهو ترتيب يخالف ترتيب المحدثين الذي يبدأ بالعكس من الشفتين عائداً إلى الخلف حتى الحَنْجَرة، كما يخالف الخليل في عددها ومصطلحاتها؛ فقد عدّها الخليل ثمانية، يختلف موقع الأصوات العربية في بعضها عمّا هو الآن، وهو لم ينسب الياء والواو والألف والهمزة إلى مخرج معين، وسمّاها هوائية، حيث قال: «فالعين والحاء والهاء والخاء والغين حلقية؛ لأن مبدأها من الحلق. والقاف والكاف لهويتان؛ لأن مبدأهما من اللهاة. والجيم والشين والضاد شجرية؛ لأن مبدأها من شجر الفم، أي مخرج الفم. والصاد والسين والزاي أسلية؛ لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرف اللسان. والطاء والتاء والدال نطعية؛ لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى. والظاء والذال والثاء لثوية؛ لأن مبدأها من اللِّثَة. والراء واللام والنون ذلقية ؛ لأن مبدأها من ذَلَق اللسان، وهو تحديد طرفي ذلق اللسان. والفاء والباء والميم شفوية، وقال مرة شفهية؛ لأن مبدأها من الشفة. والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيزٍ واحد؛ لأنها هاوية في الهواء، لا يتعلق بها شيء...»(٣٠).

ومن الملاحظ أن سيبويه قسّم هذه المخارج وحدّدها تحديداً منسجماً مع عصره، وإن لم يكن في تقسيمه حدود فاصلة فصلاً تاما، ونرجّح أن يكون سببَ ذلك كونُها متقاربةً ومتداخلة. أضف إلى ذلك أنه توصل إلى هذه الحقائق القيّمة عن طريق الملاحظة الشخصية؛ بعيداً عن استعمال أيّة أجهزة أو آلات تساعد الباحث الحديث على تحديد مخرج الصوت، ويمكن أنْ نرى غاية التفصيل في تقسيمه للأسنان، الذي نفهم منه أنه قسمها إلى الثنايا والرّباعيات والأنياب والأضراس، ولكنّه عندما تحدث عن الحلق لم يكن حديثه واضحاً؛ لأنه لم يعرف الحَنْجَرة، ولا أجزاءها كالمزمار

(٣٠) العين للخليل ١/٦٥.

والأوتار الصوتية. ومما يُسَوِّغ له عدم دقته أنّ العلماء المحدثين لم يتمكنوا من تحديد مخارج الأصوات تحديدًا دقيقًا، ولم يستقرُّوا على عددها؛ مع تقدم مجالات العلم ووجود آلات تعينهم على ذلك.

وما زلنا نلحظ اختلافات واضحة بين آرائهم، وما زالت الملاحظة الذاتية والخبرة الشخصية تؤديان دورًا هاما في هذا المجال. «...فقد تُنْطِقُ صوتًا ما من مخرج معين، وينطق شخص آخر هذا الصوت نفسه من موضع قريب منه، وذلك بسبب الاختلافات الفردية في الخبرة الصوتية واللغوية بوجه عام بين المتكلمين»[٣١].

ومما يسجّل لهُ أنّ ترتيبه هذه الأصوات هو ما انتهى إليه كثيرٌ من المحدثين، أمثال: برجشتراسر[٣٢]، وكانتيمو[٣٣]، وغيرهما.والفرق بين ترتيبه وترتيب المحدثين فرقٌ طفيفٌ جدا لا يكاد يشمل بعض الأصوات.[٣٤]

ثالثًا– صفات الأصوات المفردة:

يغلب على دراسة سيبويه للأصوات الغموض؛ إذ نجد صعوبة في فهم مصطلحاته التي استعملها، ولا سيما حديثه عن الصفات، وعن درجات الانفتاح وصفات النطق. كما أننا لا نجد لديه تعريفًا واضحًا لمصطلحي الجهر والهمس. إنما تحدث حديثًا عابرًا فيه خلط من نواحٍ عدة. ويمكن إجمال صفات الأصوات عنده بالنواحي التالية:[٣٥]

(٣١) علم اللغة العام، د. كمال بشر، ص١٢٠.

(٣٢) انظر: التطور النحوي للغة العربية، ص١٣.

(٣٣) انظر: دروس في علم أصوات العربيّة، ص٣٢.

(٣٤) انظر: مبادئ اللسانيات، د.أحمد قدور، ص١٠٤ –١١٥.

(٣٥) انظر: الكتاب ٤/٤٣٤ وما بعدها.

النّاحية الأولى: شكل المخرج وطريقة النطق: ويمكن أن ندرس تحت هذا العنوان تقسيم سيبويه للأصوات إلى شديدة ورخوة وما بينهما ولينة وهاوية.

١– الأصوات الشديدة: ويرى سيبويه أنّها أربعة أنواع:

أ– الشديد الذي يمتنع معه النفس: ويصفه سيبويه بأنّه يمنع الصوت أن يجري فيه، ويضم: الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والدال، والباء. فلو قلنا أَلْحَجَ ثم مددنا الصوت لما جرى ذلك الصوت.

ب– الشديد المنحرف: وهو صوت شديد ولكن الصوت يجري فيه لانحراف اللسان ؛ ولا يعترضه عارض كالشديدة ؛ وليس رخوًا. ومثَّل له سيبويه باللام.

جـ– الشديد الأنفي: ويسميه سيبويه حرفًا شديدًا يجري معه الصوت لأنّه غنة من الأنف، ويضم صوتي النون والميم.

د– الشديد المكرّر: وهو الذي يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام، وهو صوت الراء.

٢– الأصوات الرخوة: وهي الهاء، والخاء، والغين، والخاء، والسّين، والصاد، والضاد، والزاي، والشّين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء. وسُميت رخوة لأنّ الصوت يخرج معها، كقولك: الطَّسُّ.

٣– الأصوات المتوسطة: وهي التي يسميها سيبويه بين الشديدة والرخوة، ولها صوت واحد عنده هو العين(٣٦).

٤– الأصوات اللينة: وتضم الواو والياء، وهما صوتان يتسع مخرجهما لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما.

---

(٣٦) خالف القدماء رأي سيبويه في الأصوات المتوسطة، فهي عندهم مجموعة بقولك «لم يروعنا». انظر: شرح المفصل ١٢٨/١٠، وسر صناعة الإعراب ٦٩/١.

٥– الصوت الهاوي: وهو صوت الألف الذي اتسع مخرجه للهواء أكثر من اتساع مخرجي الياء والواو؛ لأن الشفتين تُضمان في الواو ؛ واللسان يُرفع في الياء، أما هنا فَيُتْرَكُ الصَّوتُ يهوي في مجرى الهواء.

النّاحية الثّانية: اهتزاز الأوتار الصوتية ووضع الصوت معها: صحيحٌ أنّ سيبويه لم يعرف الوترين الصوتيين ولا الاهتزاز – لأنّهما من اكتشاف المحدثين – ولكنّه عرفَ أثرهُما فقد قسّم الأصوات حسب هذه الصفة إلى مجهورة ومهموسة، فالأصوات التي تهتز معها الأوتار الصوتية وتتذبذب، تسمى مجهورةً، أما تلك التي لا تهتز معها الأوتار الصوتية فتسمى مهموسة.يقول في تعريفها[٣٧]: «فالمجهورة: حرف أشبع الاعتماد من موضعه، ومنع النفس أن يجري معه، حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت...» وهي عنده: «الهمزة، والألف، والعين، والغين، والقاف، والجيم، والياء، والضاد، واللام، والنون، والراء، والطاء، والدال، والزاي، والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو». أما المهموس «فحرف أُضعِفَ الاعتماد في موضعه، حتى جرى النفسُ معه». والأصوات المهموسة هي: «الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والثاء، والفاء...». ولكن هذا التعريف للجهر والهمس يثير كثيراً من التّساؤلات الّتي لم تجد حلاً علميا لها حتى الآن.

النّاحية الثّالثة: ارتفاع مؤخر اللسان والقيمة الصوتية: والمقصود بهذه الصفة التفخيم والترقيق أو الإطباق والانفتاح الذي درسه سيبويه[٣٨].فالمطبقة هي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء؛ حيث ينطبق اللسان من مواضعهن إلى محاذاة الحنك الأعلى من اللسان، ويصبح الصوت محصوراً بين اللسان والحنك، ولولا هذا الإطباق لصارت

(٣٧) الكتاب ٤/٤٣٤.

(٣٨) انظر: الكتاب ٤/٤٣٦.

الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام؛ لأنّه لا يوجد صوت من موضعها غيرها.

أما المنفتحة فهي الأصوات المرققة التي لا يُطْبَقُ اللسانُ لصوت منها، بل يُرفع إلى الحنك الأعلى، وتضم الأصوات الباقية من التسعة والعشرين.

ويشير سيبويه بعد ذلك إلى أنّ الوصف الذي قدمه إنما هو تمهيد لدراسة الإدغام ومعرفة مواضعه الحسنة وغير الحسنة، والجائزة والممتنعة، والأصوات المبدلة استثقالاً للإدغام.

نظرة تحليلية في مصطلحات سيبويه:

بعد هذا العرض الموجز للأصوات المفردة عند سيبويه يتبيّن لنا أنه استعمل – عندما تحدّث عن صفات الأصوات– مجموعة من المصطلحات يمكن تقسيمها إلى قسمين اثنين:

الأول: مصطلحات واضحة لا غموض فيها كالتفخيم والترقيق والأنفي والمكرر والشديد...

فتعريف سيبويه لكل من الشديد والرخو يقودنا إلى مسألة تنبه لها علماء الغرب؛ فالأصوات الشديدة أصوات وقتية آنية لا يمكن التغني بها وترديدها؛ لأنّ نهايتها تكون بزوال العائق وخروج الهواء. أما الأصوات الرخوة فهي استمرارية متمادّة، يمكن التغني بها ؛ لأن نطقها يكون مستمراً بلا انقطاع.(٣٩)

الثاني: مصطلحات يعتريها الغموض واللبس كالاتساع والإشباع والاعتماد والنفس والإضعاف والصوت...، فلو نظرنا في تعريف سيبويه للجهر والهمس لما وجدناه يقوم على اهتزاز الأوتار الصوتية في الحنجرة، أو عدم اهتزازها، بل يقوم على

(٣٩) انظر: التطور النحوي للغة العربية للمستشرق الألماني برجشتراسر، تصحيح وتعليق د. رمضان عبد التّوّاب، مكتبة الخانجي، ص١٣، والمدخل إلى علم اللغة،ص٤١.

جري النفس أو عدم جريه، وهذه الصفة من الصفات الخاصة بشدّة الصوت أو رخاوته. وتعريفه للشديد يقترب من تعريفه للمجهور، كما أنّ تعريفه للرخو يقترب من تعريفه للمهموس.

ويبدو أنّ سيبويه أراد بالإضعاف سلب القوة، وبالإشباع: التقوية، وبالاعتماد: الضغط، وبالنفس: الهمس، وبالصوت: الجهر.(٤٠)

ومن اطّلاعنا على موقف المحدثين من الأصوات المفردة ؛ يمكن أن نسجل جملةً من الملاحظات التي لا تتفق ورأي سيبويه في الدراسات الصوتية:

١– لقد عد سيبويه الجيم من الأصوات الشديدة التي يمتنع معها النفس، واللام من الأصوات الشديدة المنحرفة، والميم والنون من الأصوات الشديدة الأنفية، والراء من الأصوات الشديدة المكررة. ولكنّ نظرة العلماء المحدثين تخالفه في ذلك.

فالجيم التي نسمعها الآن من مُجيدي القرآن بين الشدة والرخاوة، وهي صوت مركب انفجاري – احتكاكي، يُنطق به عن طريق رفع اللسان في اتجاه الغار، حتى يتصل به؛ حاجزًا وراءه الهواء الخارج من الرئتين.(٤١)

ووصف سيبويه اللام والميم والنون والراء وصفًا صحيحًا، ولكنّه لم يُفرّق بين اللام المفخمة واللام المرققة كما فعل بعض المحدثين(٤٢). أما النون والميم والراء فقد عُدَّت من الأصوات المتوسطة – ما بين الشديدة والرخوة(٤٣) وإن كان سيبويه قد مال إلى شيء من ذلك فهو يرجّح الشدة فيها.

(٤٠) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص٦١.

(٤١) انظر: دراسة الصوت اللغوي ص١٨٨، وعلم اللغة العام ص١٦١، والمدخل إلى علم اللغة ص٥١.

(٤٢) انظر: دراسة الصوت اللغوي ص٢٨٤، والمدخل إلى علم اللغة ص٤٨، ومناهج البحث في اللغة ص١٣٣.

(٤٣) انظر: دروس في علم أصوات العربية ص٣٦.

٢– الضاد صوت أسناني – لثوي شديد مجهور مفخم، مخرجها من مخرج الدال، وهي المقابل المطابق لها، والضاد التي ننطقها اليوم غير الضاد القديمة، التي كانت تستعمل عند العرب القدماء، وهي تطور عنها. وقد حار العلماء في وصف هذه الضاد، وتحدثوا عنها حديثًا لا يخلو من الاستطراد والتشعب. فبرجشتراسر يرى «...أن النطق العتيق للضاد، لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أن للضاد نطقًا قريبًا منه جدا عند أهل حضرموت وهو كاللام المطبقة...»(٤٤). أما كانتيمو فيرى أن «...النطق القديم كان: (ظْ لْ) ؛ أي كان ظاء ذات زائدة انحرافيّة ؛ أي بتقريب طرف اللسان من الثنايا كما في النطق بالظاء، وبأن يجري النفس لا من طرف اللسان فقط، بل من جانبيه أيضًا»(٤٥). ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أنه يمكن نطق الضاد القديمة «...بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة، ثم ينتهي نطقه بالظاء، فهي إذن مرحلة وسطى، فيها شيء من شدة الضاد الحديثة، وشيء من رخاوة الظاء العربية، ولذلك كان يعدها القدماء من الأصوات الرخوة»(٤٦).

وعلى ذلك فالضاد عند سيبويه تختلف عن الضاد الحديثة من ناحيتين:

الأولى: موضع النطق، فقد نسبها سيبويه إلى منطقة تلي منطقة الجيم والشين والياء، في حين هي لدى المحدثين تخرج من منطقة التاء والطاء والدال والسين والصاد والزاي.

الثانية: وصف سيبويه الضّاد بأنّها رخوة، ولكن وجهة نظر الدرس الحديث ترى أنّها صوت انفجاري شديد(٤٧).

---

(٤٤) التطور النحوي للغة العربية ص١٩.

(٤٥) دروس في علم أصوات العربية ص٨٦.

(٤٦) الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ص٤٩.

(٤٧) انظر: وصف المحدثين للضاد في: مناهج البحث في اللغة ص١٢٠، وعلم اللغة العام ص١٣٢ وما بعدها.

٣- لقد عدَّ سيبويه العين صوتًا متوسطًا، مع أنّ الدراسات الحديثة أثبتت أنه صوت رخو يُنطق به بتضييق الحلق عند لسان المزمار(٤٨).

٤- لقد وصف سيبويه الهمزة والألف بأنهما صوتان مجهوران، ونسبهما إلى مخرج واحد هو أقصى الحلق. وهذا الرأي لا يتفق مع رأي المحدثين الذين يرون أن الهمزة مهموسة؛ أو هي لا مهموسة ولا مجهورة، ومخرجها ليس من الحلق بل من الحنجرة التي لم يعرفها سيبويه كما سبق أن ذكرنا.أما مخرج الألف فهو غير واضح؛ لأنها تخرج من مكان ما في تجويف الفم، «...وليس لها - في الحقيقة – نقطة إنتاج معينة على طول مجرى الهواء ؛ لأن اللسان يكون معها في واقع الأمر في وضع إراحة أي ممتدًا»(٤٩).

٥- جعل سيبويه القاف والطاء صوتين مجهورين، ولكنهما في علم الأصوات الحديث صوتان مهموسان يختلفان عما جاء به سيبويه والقدماء (٥٠).

٦- لاحظ المحدثون أن القاف والخاء والغين أصوات لها تفخيم جزئي، وترتبط بقيمة تفخيمية في بعض المواقع، أو هي أصوات مفخَّمة من الدرجة الثانية(٥١) ولم يتنبّه سيبويه إلى شيء من ذلك.

٧- وكما سبق أن أهمل سيبويه صوت اللام المفخمة، أهمل أيضًا الراء التي تفخم

(٤٨) انظر: مناهج البحث في اللغة ص١٣٠، وعلم اللغة العام ص١٥٥، ودراسة الصوت اللغوي ص٣٠١.

(٤٩) دراسة الصوت اللغوي ص٢٩٧، وانظر أيضًا: علم اللغة العام ص١٤٢ وما بعدها، ومناهج البحث في اللغة ص١٢٥.

(٥٠) انظر: مناهج البحث في اللغة ص١٢٢-١٢٤، وعلم اللغة العام ص١٢٩-١٣٨، ودروس في علم أصوات العربية ص٣٥.

(٥١) انظر: دراسة الصوت اللغوي ص٢٧٨، ومناهج البحث في اللغة ١٢٤، ١٢٩، ١٣٠.

في حالات خاصة تبعًا لموقعها في السياق. وذلك إذا جاءت ساكنة بعد صوت مكسور نحو حِرْمَان، أو تلاها صوت من أصوات الكسرة، نحو: حريم(٥٢).

٨- صوت الغين عند سيبويه من أصوات الحلق، ولكن مفهوم الحلق عنده غير واضح، فإذا كان قد فهم منه ما نفهمه اليوم، فهو خاطئ في مخرج هذا الصوت. أما إذا كان يعني به أوسع مما نفهمه اليوم، حتى يشمل ما بين مؤخر اللسان والطبق؛ فإن ذلك صحيح لا شك فيه.(٥٣)

وفيما يلي جدولان، أحدهما للأصوات عند سيبويه، والآخر للأصوات الصامتة في الفصحى المعاصرة. حاولنا أن نلخص فيهما وجهة نظر سيبويه مقارنة بوجهة نظر الدرس الصوتي الحديث، وقد سبق للسيد د. تمام حسان أن صنّف جدولاً للأصوات عند سيبويه، ولكنه لا يخلو من بعض الأخطاء التي قد يكون سببها الطباعة.(٥٤)

المصادر والمراجع

١- أصالة علم الأصوات عند الخليل، د.أحمد قدور، دار الفكر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.
٢- الأصوات اللغوية، د.إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٨٧م.
٣- التّطوّر النّحويّ للّغة العربيّة، برجشتراسر، تصحيح وتعليق د. رمضان عبد التّوّاب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرّفاعي بالرّياض، ١٩٨٢ م.

(٥٢) انظر: مناهج البحث في اللغة ص١٣٢، ودراسة الصوت اللغوي ص٢٧٩، ودروس في علم أصوات العربية ص٣٦.

(٥٣) انظر: مناهج البحث في اللغة ص١٢٩.

(٥٤) انظر هذا الجدول في كتابه «اللغة العربية معناها ومبناها» ص٥٩، وقارنه بكتاب سيبويه ٤٣٣/٤ وما بعدها.

٤- دراسة الصّوت اللغويّ، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٩٧٦م.
٥- دروس في علم أصوات العربيّة، جان كانتيمو، ترجمة صالح القرماديّ، الجامعة التّونسيّة، مركز الدّراسات والبحوث، ١٩٦٦ م.
٦- سرّ صناعة الإعراب، ابن جنّيّ، تحقيق لجنة من الأساتذة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط١، ١٩٥٤م.
٧- شرح المفصّل، ابن يعيش، عالم الكتب بيروت، مكتبة المتنبّي القاهرة.
٨- علم اللغة العامّ (قسم الأصوات)، د. كمال بشر، دار المعارف بمصر، ط ١، ١٩٧١م.
٩- العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ، تحقيق د. عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٧م.
١٠- الكتاب لسيبويه، تحقيق السّيّد عبد السّلام محمّد هارون، عالم، الكتب، بيروت.
١١- اللغة العربيّة معناها ومبناها، د. تمّام حسّان، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المغرب.
١٢- مبادئ اللسانيات، د.أحمد قدور، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨م.
١٣- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التّواب،مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرّفاعي بالرّياض، ط ١، ١٩٨٢ م.
١٤- المقتضب للمبرّد، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
١٥- المفصّل في علم العربيّة، الزّمخشريّ، دار الجيل، بيروت، ط٢.
١٦- المقرّب، ابن عصفور الإشبيليّ، تحقيق أحمد عبد السّتّار الجواريّ، وعبد الله الجبوريّ، مطبعة العاني، بغداد، ط ١، ١٩٧١ م.
١٧- مناهج البحث في اللغة، د. تمّام حسّان، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المغرب، ١٩٧٩ م.

جدول الأصوات العربية المفردة عند سيبويه

المخارج	الصفات: شديد – يمتنع معه النفس – مجهور – مفخم	الصفات: شديد – يمتنع معه النفس – مجهور – مرقق	الصفات: شديد – يمتنع معه النفس – مهموس – مفخم	الصفات: شديد – يمتنع معه النفس – مهموس – مرقق	الصفات: شديد – المنحرف وهو مجهور مرقق فقط	الصفات: شديد – الأغن وهو مجهور مرقق فقط	الصفات: شديد – المكرر وهو مجهور مرقق فقط	الصفات: ما بين الشديد والرخو وهو مجهور ومرقق فقط	الصفات: رخو – مجهور – مفخم	الصفات: رخو – مجهور – مرقق	الصفات: رخو – مهموس – مفخم	الصفات: رخو – مهموس – مرقق	الصفات: لين وهو مجهور مرقق فقط	الصفات: هاو وهو مجهور مرقق فقط
١-أقصى الحلق (ء ، هـ ، ا)		ء										هـ		ا
٢-وسط الحلق (ع ، ح)								ع				ح		
٣-أدنى الحلق (غ ، خ)										غ		خ		
٤-أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى (ق)		ق												
٥-مؤخر اللسان وما يليه من الحنك الأعلى (ك)				ك										
٦-وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى (ج ، ش ، ي)		ج										ش	ي	
٧-أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس (ض)									ض					
٨-أدنى حافة اللسان إلى طرفه وما فوق الثنايا (ل)					ل									
٩-ما بين طرف اللسان وفوق الثنايا (ن)						ن								
١٠-ما بين طرف اللسان وفوق الثنايا لكنه أدخل في ظهر اللسان(ر)							ر							
١١-ما بين طرف اللسان وأصول الثنايا (ط ، د ، ت)	ط	د		ت										
١٢-ما بين طرف اللسان وفوق الثنايا (ز ، س ، ص)										ز	ص	س		
١٣-ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا (ظ ، ذ، ث)									ظ	ذ		ث		
١٤-باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا (ف)												ف		
١٥-ما بين الشفتين (ب ، م ، و)		ب				م							و	
١٦-من الخياشيم مخرج النون الخفيفة و لم يصفها سيبويه														

جدول الأصوات الصامتة للفصحى المعاصرة

المخارج	الصفات													
	شديد (انفجاري)				رخو (احتكاكي)				مركب	متوسط				
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	مجهور مرقق فقط				
	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	يجمع بين الشديد والرخو	منحرف (جانبي)	مكرر	أنفي	لين
١- شفوي (ب ، م ، و)		ب										م	و
٢- شفوي أسناني (ف)								ف					
٣- أسناني (ذ ، ظ ، ث)					ظ	ذ		ث					
٤-أسناني لثوي (د ، ض، ت ، ط ، ز ، س، ص)	ض	د	ط	ت		ز	ص	س					
٥- لثوي (ل ، ر ، ن)										ل	ر	ن	
٦- غاري (ش ، ج ، ي)								ش	ج				ي
٧- طبقي (ك ، غ ، خ)				ك	غ		خ						
٨- لهوي (ق)			ق										
٩- حلقي (ع ، ح)						ع		ح					
١٠- حنجري (ء ، هـ)				ء				هـ					

المَلَكة اللسانية عند ابن خلدون فيما دُعِيَ بالمقدمة

د. عبد البديع النيرباني(*)

مقدمة ابن خَلْدون (ت٨٠٨هـ)(١) غنية الجوانب غنى الحياة الاجتماعية، على أن ما يعنينا منها في هذا المقام: الجوانب اللغوية، فقد تحدّث عن اللسان وعلومه في العربية من نحو ولغة وبلاغة وأدب وخطّ، وكان أكثر هذا الحديث طرافة حديثه عن اكتساب اللغة، مما دعاه بالملكة اللسانية، وهو ما سنفرده بالبحث هنا.

(*) عضو الهيئة التدريسية في جامعة البعث بحمص.

(١) عبد الرحمن بن محمد، بن خلدون أبو زيد، وليّ الدين: (خلدون أحد أجداده، واسمه خالد بن عثمان، دخل الأندلس مع الفاتحين. وعَدْل الأعلام إلى صيغة «فعلون» كان من عادة أهل الأندلس والمغرب في تعظيمهم أصحابها، نحو: حمدون وزيدون وفركون...)، فيلسوف مؤرخ، أصله من إشبيلية، ومولده ومنشؤه بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولّى أعمالاً، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس، ثم توجه إلى مصر، فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق، وولي فيها قضاء المالكية، وتوفي فجأة في القاهرة. كان فصيحًا، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة، عزوفًا عن الضيم، طامحًا للمراتب العالية. انظر الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٨، ١٩٨٩م،ص٣/٣٣٠؛ وتمهيد د.علي عبد الواحد وافي لتحقيقه مقدمة ابن خلدون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٧- ١٠٩.

– وسيكون من خطّتي في اجتلاء آراء ابن خلدون: استخلاص المسائل، وإعادة بنائها، والتعقيب عليها مع الموازنة – كلّما أمكنت – بينها وبين ما جاء لدى بعض اللسانيين ولا سيّما تشومسكي(٢).

– وكنت وقفت في الملكة اللسانية عند ابن خلدون على دراستين:

الأولى: (الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون) للدكتور محمد عيد.

والأخرى: (الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون) للدكتور ميشال زكريا.

المَلَكة اللسانية عند ابن خلدون فيما دُعِيَ بالمقدمة

١– نصّ ابن خلدون على أن اللغة ملكة في اللسان، يقول: «اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانيّ، ناشئة عن القصد لإفادة الكلام، فلا بدّ أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو

(٢) يهودي، ولد في فلادلفيا من ولاية بنسلفانيا الأمريكية، عام ١٩٢٨م.

التحق بجامعة بنسلفانيا حيث دَرَسَ اللسانيات والرياضيات والفلسفة، وحصل منها على الماجستير بالآداب عام ١٩٥١م، وعلى الدكتوراه بالفلسفة عام ١٩٥٥م.

بدأ مسيرته العلمية بدراسة مبادئ اللسانيات التاريخية، إذ تَلْمَذَ لوالده الذي كان عالمًا بالعبرية، وكان لهذه اللغة نصيب من رسالته التي نال بها درجة الماجستير.

تنشّأ في كنف المدرسة التوزيعية التي أرسى بلومفيلد قواعدها، وكان أستاذه هاريس أحدَ أعلامها. ثم خرج على تعاليمها، واختطّ لنفسه منهجًا مستقلاً دعي بعدُ بالمدرسة التوليدية والتحويلية. انظر علم اللغة في القرن العشرين: جورج مونان، ترجمة: د.نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، دمشق، ص١٩٤؛ ونظرية تشومسكي اللغوية: جون ليونز، ترجمة وتعليق: د.حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٥م، ص١١–١٢؛ وتشومسكي: جون ليونز، ترجمة: د.محمد زياد كبّة، النادي الأدبي، الرياض، ١٩٨٧م،ص٩٧ (من ترجمة وضعها المترجم)؛ ومبادئ اللسانيات: د.أحمد قدور، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٨م، ص٣١٣– ٣١٤.

اللسان، وهو في كلّ أمّة بحسب اصطلاحاتهم.»[٣]

ذكر ابن خلدون في تعريفه اللغة أنها (عبارة) المتكلم عن مقصوده، ولفظ (عبارة) يحتمل معنيين: الأول المصدر (التعبير)، والآخر الاسم (ما يُعبّر به)، وما يُرشّح المعنى الأول قوله بعدُ: «وتلك العبارة فعل لسانيّ».

وعلى هذا فاللغة عند ابن خلدون هي قدرة أبنائها على الإبانة بها عن مقاصدهم.

وإدخال ابن خلدون (قصد الإفادة) في تعريف اللغة يُخرج منها الأصوات الانفعالية كصيحات الألم والحزن والفرح وغير ذلك مما يتفوّه به الإنسان دون قصد إلى الإبلاغ.

وفي قصر ابن خلدون اللغة على عبارة (المتكلم) عن مقصوده نَظَرٌ، وذلك أن اللغة لا تنحصر وظيفتها في بيان الأغراض، وإنما تستعمل أيضًا في تبيُّنها، أي في الإفادة والاستفادة.

أو قد يكون إغفال ابن خلدون (المستمع) في تعريف اللغة اكتفاءً بالشقّ الأول من دارة الكلام، وهو يستلزم الشقّ الآخر بداهةً.

وأراد ابن خلدون بالملكة اللسانية هنا ما يكتسبه المرء من مهارات، وحديثه عن الملكة اللسانية قريب من حديث تشومسكي عن الكفاءة اللغوية، وهي المعرفة الضمنية (الحدسية) للمتكلم بقواعد لغته، التي تُوجّه الأداء الكلامي، وهو الاستعمال الناجز للّغة في سياق ما[٤]. حتى إني أرى أن (الملكة اللسانية) خير ترجمة في العربية

(٣) المقدمة: ١١٢٨/٣.

(٤) انظر علم اللغة في القرن العشرين: ٢٠٣؛ ومباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة: د.ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٨٤م، ص ١٠٩– ١١٠، ١٥٤؛ والألسنية الحديثة واللغة العربية: د.محيي الدين حميدي، كتاب الرياض، ١٩٩٧م، ص١٧– ١٨.

لـ(الكفاءة اللغوية)، لِما تبرزه هذه العبارة من تقابل بينها وبين الأداء الكلامي: فالأولى ملكة والأخرى أداء، والأولى من اللسان والأخرى من الكلام.

وأراد ابن خلدون باللسان هنا: آلة النطق عمومًا على وجه التغليب.

وقول ابن خلدون في اللسان: «وهو في كلّ أمّة بحسب اصطلاحاتهم» ظاهره أن اللغة عنده اصطلاح لا إلهام، واتّفاق لا توقيف.

٢- وبيّن أن حصول الملكات يكون بالتَّكرار والتدريج، يقول: «والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أوّلاً وتعود منه للذات صفة، ثم تُكرّر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة.»[٥]

لمّا كانت اللغة لدى ابن خلدون ملكة من الملكات، وهي تكتسب بالتكرار، فالشُّقّة بينه وبين السلوكيين الذين ينظرون إلى السلوك الإنساني، ومنه اللغة، على أنه مجموعة عادات مكتسبة بفعل المثيرات والاستجابة لها[٦] – ليست ببعيدة.

٣- ونبّه على أن اللغة لمّا كانت ملكة فهي تكتسب بالتعليم والمِران، وليست طبيعة أو جِبلّة، يقول: «فإن الملكات إذا استقرّت ورسخت في محالّها ظهرت كأنها طبيعة وجبلّة لذلك المحلّ. ولذلك يظنّ كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابًا وبلاغة أمر كذلك، وإنما هي ملكة إنسانية في نظم الكلام تمكّنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلّة وطبع.»[٧]

فكلام العرب بالعربية، كما يرى ابن خلدون، ملكة وليس فطرة، وهذا صحيح،

---

(٥) المقدمة: ٣/١١٤٠.

(٦) انظر نظرية تشومسكي اللغوية: ٦٧؛ ومباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة: ١٤٥.

(٧) المقدمة: ٣/١١٤٩.

فالطفل يولد ولديه القدرة على تعلّم أي لغة إنسانية دون تمييز[٨].

٤– وأشار إلى أنه ينشأ عن رسوخ الملكة اللسانية ما دعي عند علماء البلاغة بـ(الذوق)، وهو غير معلَّل، وسُمّي بذلك لأمرين: الأول أن محلّه اللسان، والآخر أنه وجداني.

يقول: «اعلم أن لفظة (الذوق) يتداولها المُعْتَنُون بفنون البيان، ومعناها حصول ملكة البلاغة للّسان...

فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب، حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب، وإن سمع تركيبًا غير جارٍ على ذلك المنحى مجّه ونبا عنه سمعُه بأدنى فكر، بل وبغير فكر، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة...»[٩]

إلى أن يقول: «فملكة البلاغة في اللسان تَهدي البليغ إلى جودة النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو رام صاحب هذه الملكة حَيْدًا عن هذه السبيل المعيَّنة والتراكيب المخصوصة لما قَدَرَ عليه ولا وافقه عليه لسانُه، لأنه لا يعتاده ولا تَهديه إليه ملكته الراسخة عنده.

وإذا عُرِض عليه الكلام حائدًا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجّه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم، وربما يعجِز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء، وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم...

واستعير لهذه الملكة عندما ترسَخ وتستقرّ اسمُ الذوق الذي اِصطلح عليه أهل

(٨) انظر مباحث في النظرية الألسنية: ١٥٧.

(٩) المقدمة: ١١٤٩/٣.

صناعة البيان. وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم، لكن لمّا كان محلّ هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام، كما هو محلّ لإدراك الطعوم استُعير لها اسمه؛ وأيضًا فهو وجداني اللسان، كما أن الطعوم محسوسة له، فقيل له: ذوق.»[١٠]

إن كلام ابن خلدون على (الذوق) هنا يذكّرنا بكلام تشومسكي على (الحَدْس اللغوي)، وهو قدرة ابن اللغة بسليقته على الحكم على جملها في القبول أو الرفض وغير ذلك[١١].

وكلٌّ من القواعد والحدس اللغوي معرفة يمكن أن نستفتيها في الحكم على الجمل، غير أن حكم الأول مفسَّر، وحكم الآخر ليس كذلك.

٥- وذهب إلى أن الملكة اللسانية ذات طبيعة ذهنية، وتكون بتجريد المنوال الذي نسج العرب عليه تراكيبهم، فينسِج هو عليه، يقول: «وتَعْلَمُ مما قررناه في هذا الباب أن **حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسِجَ هو عليه، ويتنزّل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرّة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم.**»[١٢]

ويقول في فصل صناعة الشعر ووجه تعلّمه مبيّنًا معنى كلمة (الأسلوب): «فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي يَنسِج فيه التراكيب، أو القالب الذي يُفْرِغ فيه...

وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب

---

(١٠) المقدمة: ٣/١١٤٩-١١٥٠.

(١١) انظر نظرية تشومسكي اللغوية: ٧٩، و مباحث في النظرية الألسنية: ٦٤، ومبادئ اللسانيات: ٣١٥.

(١٢) المقدمة: ٣/١١٤٨- ١١٤٩.

خاصّ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويُصيِّرها في الخيال كالقالب أو المنوال...

ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم، حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعيَّنة الشخصية قالب كلّي مطلق يحذو حذوه في التأليف، كما يحذو البنّاء على القالب، والنسّاج على المنوال...»[١٣].

إن تحصيل الملكة اللسانية كان ميدانَ بحثٍ اختلف وُرّاده أيّما اختلاف، ففي حين ذهب السلوكيون من علماء النفس إلى أن الطفل يبدأ بتعلم اللغة وذهنه صفحة بيضاء تُنقَش عليها النماذج اللغوية التي يجردها[١٤] – وقد وجدنا ابن خلدون ينحو قريبًا من هذا النحو– ذهب الشومسكيون إلى أن الطفل يولد وهو مزود بالقدرة على تعلم أية لغة إنسانية دون تمييز، وذلك بما فُطِر عليه من كلّيات لغوية، وهي أصول عامّة تصدق على اللغات جميعًا وتجمع المشتَرك منها، فيتعرّف بها ما يسمعه من كلام يتردّد حوله، إلى أن يتمّ نضجها، بأن تتخصّص ممّا يتلقّاه من محيطه، ليتكيَّف معه[١٥].

ويأخذون على السلوكيين أنهم لا يستطيعون أن يُوفِّقوا بين قدرة الطفل التامّة

(١٣) المقدمة: ١١٥٩/٣.

(١٤) انظر أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: د.نايف خرما، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م، ص ١١٩؛ ومباحث في النظرية الألسنية: ١٥٧.

(١٥) انظر علم اللغة في القرن العشرين: ٢٠٠–٢٠١؛ و نظرية تشومسكي اللغوية: ٢٤٨؛ وأضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ١١٩؛ ومدخل إلى الألسنية: د.يوسف غازي، منشورات العالم العربي الجامعية، ط١، ١٩٨٥م، ص٣٠٠؛ ومباحث في النظرية الألسنية:١٥٧.

على التكلّم بلسان قومه وبين قصر مدّة تحصيل هذه القدرة وقلّة المادّة اللغوية التي كان قد تعرّض لها في تلك المدّة، مع ما في هذه المادّة من انحرافات(١٦).

٦– وعلى هذا فتمكّن الملكة اللسانية إنما يكون بالنظر إلى التركيب لا المفردات، يقول: «اعلم أن اللغات كلّها شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامّة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يُطبّق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلّم حينئذٍ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة.»(١٧)

فإذا ما علمنا أن الملكة اللسانية تساوي الكفاءة اللغوية لدى تشومسكي، وأن على القواعد أن تُمثّلها تمثيلاً صادقًا – وهي عنده على ثلاثة أضرب: قواعد التركيب وقواعد المعنى وقواعد اللفظ(١٨)، غير أن قواعد التركيب تتنزل منها منزلة القلب من الجسد(١٩) – أدركنا أن مذهب تشومسكي هو عين ما ذهب إليه ابن خلدون هنا.

٧– ورأى أن الملكة اللسانية ليست واحدة عند جميع المتكلّمين بلسان ما، وعوامل اختلافها أمران: الأول جودة المحفوظ، والآخر كثرة الاستعمال. يقول: «وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع نظمًا ونثرًا»(٢٠).

ويقول أيضًا: «وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من

(١٦) انظر نظرية تشومسكي اللغوية:٢٤٨ ، و مباحث في النظرية الألسنية: ١٥٧.
(١٧) المقدمة: ٣/١١٤٠.
(١٨) انظر مدخل إلى الألسنية: ٢٤٣.
(١٩) انظر أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ٢٩٩.
(٢٠) المقدمة: ٣/١١٤٦.

بعده ثم إجادةُ الملكة من بعدهما، فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسِج على منوالها، وتنمو قُوى الملكة بتغذيتها. وذلك أن النفس وإن كانت في جبلّتها واحدةً بالنوع، فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات، واختلافُها إنما هو باختلاف ما يَرِدُ عليها من الإدراكات والألوان التي تكيّفها من خارج؛ فبهذه يتمّ وجودها، وتخرج من القوة إلى الفعل صورتُها.»[٢١]

إن ما ذكره ابن خلدون هنا من أن الملكة اللسانية قوامها جودة المحفوظ وكثرة الاستعمال، يتّفق هو وما ذكره من أنه يرى أن الملكة اللسانية تكون بتجريد المنوال الذي نسج العرب عليه تراكيبهم، وتحصل بالتكرار.

ولأجل أن الملكة اللسانية ليست واحدة عند جميع المتكلّمين بلسان ما ـ كان نشدان الفصاحة بين من يحتجّ بكلامهم مشروعًا.

٨– وأوضح أن الملكة اللسانية غير علوم اللغة ومستغنيةٌ عنها في التعليم، يقول: «والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانينِ هذه الملكة ومقاييسِها خاصّةً، فهو علم بكيفيةٍ لا نفسِ كيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علمًا، ولا يُحكِمها عملاً، مثل أن يقول بصير بالخياطة غيرُ مُحكِم لملكتها في التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة هي أن يُدخِل الخيط في خَرْتِ الإبرة، ثم يغرزَها في لِفْقَيِ الثوب مجتمعينِ، ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا، ثم يتمادى على ذلك إلى آخر العمل؛ ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائرِ أنواع الخياطة وأعمالها؛ وهو إذا طُولِب أن يعمل ذلك بيده لا يُحكم منه شيئًا...

وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين

(٢١) المقدمة: ١١٦٩/٣.

الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل. ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمَهَرة في صناعة العربية المحيطين علمًا بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودّته أو شكوى ظُلامة أو قصد من قُصوده، أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن، ولم يُجِدْ تأليفَ الكلامِ لذلك والعبارةَ عن المقصود على أساليب اللسان العربي. وكذا نجد كثيراً ممن يُحسن هذه الملكة ويجيد الفنّين من المنظوم والمنثور وهو لا يُحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئًا من قوانين صناعة العربية...»[٢٢].

إن المتعلّم يسلك في تحصيله لغةً ما سبيلين، أحدهما يصبّ في الآخر.

فالأول **السماع**، ونافذته الأذن، ومهمته تعرّف ما لا يُضبَط من اللغة بقواعد كالمفردات والعبارات المحفوظة، وتقديم مادّة إلى السبيل الآخر، وهو **القياس**، ونافذته العقل، ومهمته أن يجرّد من مادّة السماع نماذج لغوية تُختزن في الذهن لتُحاكى في عملية إنتاج الكلام.

وفرقُ ما بين السماع والقياس أن الآخر لمّا كان تجريدًا لِما يَرِده من الأول فإنه يشغل من الذاكرة مساحة أقلّ مما يشغله الأول.

فإذا أراد أحد أن يتعلّم لغة ما، فإمّا أن يعيش بين ظهراني أهلها، ويتلقّى عنهم اللغة مشافهةً، وهذه هي الطريقة الفطرية، وقريب منها ما ذكر من عادة بعض العرب في إرسال أولادهم إلى البادية، غير أنها تحتاج إلى وقت مديد.

وإمّا أن يتعلّمها دراسة، ولا بد حينئذٍ من طلب معونة القواعد لتسريع عملية التعلّم بجعلها عملية واعية، لكن القواعد هنا ليست كلّ شيء، لِما مرّ من أن العلم بقواعد اللغة إنما هو علم بكيفية العمل، وليس هو نفس العمل.

وفي هذه الطريقة اعتماد على سبيل القياس، وهي أشيع من الطريقة الأولى التي

(٢٢) المقدمة: ١١٤٧/٣.

تستلزم ظروفًا معينة قد لا يكون في ملك كلّ أحد أن يعيش فيها.

لكن القواعد التي يختزنها القياس شيء، والقواعد التي يتدارسها المتعلّمون للُّغات شيء آخر، وأفضل القواعد (المُدوَّنة) ما كان قريبًا من القواعد (الضمنيّة)، وهذا يقتضي الفصل بين نوعين من القواعد المدروسة: نوع علميّ، وآخر تعليميّ يعرض للجانب التطبيقيّ، وهو ما يخصّ المتكلّم، بعيدًا عن زحمة الحدود، وتعقيدات العلل، ومسائل الخلاف التي لا طائل تحتها.

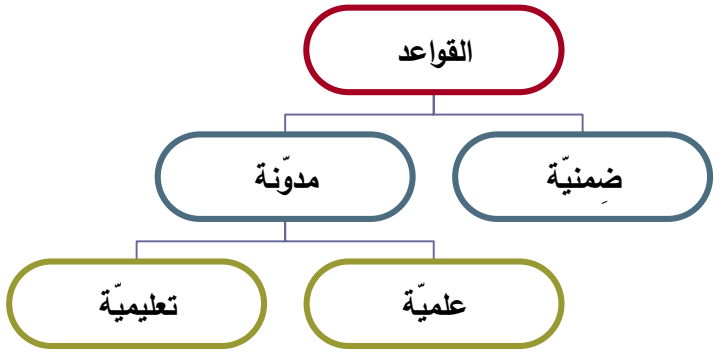

٩- وبرهن على أن الملكة إذا سبقتْها ملكة أخرى في المحلّ، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة، يقول في فصلٍ أنه لا تتّفق الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور معًا إلا للأقلّ: «والسبب في ذلك أنه كما بيّنّاه ملكةٌ في اللسان، فإذا تسبّقت إلى محلّه ملكة أخرى قَصَّرت بالمحلّ عن تمام الملكة اللاحقة، لأن تمام الملكات وحصولَها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهلُ وأيسر. وإذا تقدّمتها ملكة أخرى كانت منازِعةً لها في المدّة القابلة وعائقةً عن سرعة القَبول، فوقعت المنافاةُ وتعذّر التمامُ في الملكة، وهذا موجود في الملكات الصناعية كلّها على الإطلاق.»[٢٣]

وتدرس اللسانيات التطبيقية في مباحث تعليم اللغات لغير أبنائها تأثير اللغة الأمّ

(٢٣) المقدمة: ١١٥٦/٣.

في اللغات المُتعلَّمة لاحقًا، وهو مما يحول دون حصول اللغات الطارئة تامّةً تمامَ اللغة الأصلية(٢٤).

١٠- وبهذا علّل قِصَرَ باع أهل الأمصار والأعاجم عن العربية، يقول في فصلٍ أن أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تُستفاد بالتعليم: «والسبب في ذلك ما يَسْبِق إلى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة، بما سَبَق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة، حتى نزل بها اللسانُ عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضري لهذا العهد.»(٢٥)

ويقول في موضع آخر: «وانظر من تقدّم له شيء من العجمة كيف يكون قاصرًا في اللسان العربي أبدًا، فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة العربي، ولا يزال قاصرًا فيه ولو تعلّمه وعلّمه. وكذا البربري والرومي والإفرنجي قلّ أن تجد أحدًا منهم مُحكِمًا لملكة اللسان العربي، وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر، حتى إن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربي جاء مُقصِّرًا في معارفه عن الغاية والتحصيل.

وقد تقدّم لك من قبلُ أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع، وقد تقدّم لك أن الصنائع وملكاتِها لا تزدحم، وأن من سبقت له إجادة في صناعة فقلّ أن يُجيد أخرى أو يستوليَ فيها على الغاية.»(٢٦)

إن مشكلة الطلبة من أهل الألسنة الأعجمية حينما يطلبون العلم بالعربية هي عين مشكلة طلبتنا اليوم، وذلك أنهم مرَنوا على التكلّم بلهجات محلّية تكاد تختلف عن العربية اختلاف اللغة عن اللغة.

---

(٢٤) انظر أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: ٥٤.

(٢٥) المقدمة: ١١٥٢/٣.

(٢٦) المقدمة: ١١٥٧/٣.

فإذا ما دخلوا المدارس وطولبوا بتحصيل العلوم بالعربية وجدوا أنفسهم أمام مهمّتين: الأولى تحصيل هذه العلوم، والأخرى دراستها بلغةٍ هم منها بمنزلة الأعاجم.

وحلّ هذه المشكلة –كما يبدو لنا – في أحد أمرين لا ثالث لهما:

فإمّا أن نلقّن طلبتنا العلوم برطاناتهم المحلّيّة، وهو أمرٌ إثمه أكبر من نفعه، لأشياء كثيرة في مقدّمتها تعدّد هذه العاميّات وأنها أفقر من أن تُمِدّنا بوسائل التعبير عن دقائق العلوم.

وإمّا أن نُعنى بتنمية ملكات أولادنا حتى قبل دخولهم المدرسة، وهو ما يحقّق غرضين عزيزين هما: إتقان العربية سليقة، ورفع كفاءتهم في التحصيل العلمي.

١١– وذكر أن فساد الملكة اللسانية عند العرب كان بمخالطتهم الأعاجم، يقول: «ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيّاتٍ أخرى غيرَ الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبِّرُ بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمعُ كيفيات العرب أيضًا، فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فساد اللسان العربي.» (٢٧)

ويقول أيضًا: «فلمّا جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم، تغيّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمعُ من المخالفات التي للمتعرّبين من العجم، والسمعُ أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع.»(٢٨)

ونقف عند كلمة جامعة لابن خلدون، وهي قوله: «والسمعُ أبو الملكات

(٢٧) المقدمة: ١١٤١/٣.

(٢٨) المقدمة: ١١٢٩/٣.

اللسانية». فما عُمْق هذه المقولة؟

رأينا من قبلُ أن القواعد الضمنية ينتزعها الذهن مما يَرِدُ على الأذن من كلام، وعلى هذا فبحسب السماع (الدَّخْل) يكون الكلام (الخَرْج)، وهذه العلاقة بين السمع والكلام هي ما عبّر عنها ابن خلدون بالأبوة.

إن كلمة ابن خلدون تدعونا إلى إعادة النظر في تعليمنا لغتنا العربية، لتكون عنايتنا بالسماع أكثر من عنايتنا بالقواعد على أهميتها، ولا سيّما المراحل الأولى التي تبدو فيها القواعد تجريدات ذهنية صعبة لا تلقى لها رصيدًا كافيًا من أمثلة السماع.

١٢– وعلى هذا فإن قريشًا كانت أفصح العرب لبعدها عن بلاد العجم، يقول: «ولهذا كانت لغة قريش أفصحَ اللغات العربية وأصرحَها، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم مَن اكتنفهم مِن ثَقِيف وهُذَيل وخُزاعة وبني كِنانة وغَطَفان وبني أسد وبني تميم.

وأمّا مَن بعُد عنهم من رَبيعة ولَخْم وجُذام وغسّان وإياد وقُضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامّة الملكة بمخالطة الأعاجم.

وعلى نسبة بُعْدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصِّحّة والفساد عند أهل الصناعة العربية.»[٢٩]

وكان اللغويون قد ذكروا في سبب فصاحة قريش شيئًا آخر، وهو أنها مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقّة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى

(٢٩) المقدمة: ٣/١١٤١.

سلائقهم التي طُبِعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب[٣٠].

غير أنه لم يؤخذ من حاضرة الحجاز، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم، حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[٣١].

١٣. وألمع بأن مخالطة الأعاجم كان لها أيضًا أثر في انشعاب العربية إلى لهجات، يقول: «اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضرَ القديمة ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا، وهي عن لغة مضر أبعد...

فلغة أهل المشرق مباينةٌ بعضَ الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهلُ الأندلس معهما...

وأمّا أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل، فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد، لأن الملكة إنما تحصُل بالتعليم كما قلناه، وهذه ملكة ممتزِجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم. فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويَرْبَوْن عليه يبعدون عن الملكة الأولى...»[٣٢]

عزا العلماء انشعاب اللغات إلى لهجات إلى عوامل عدّة، أهمّها:

أ- اختلاف البيئات الجغرافية، لِما يؤدي إليه انعزال كلّ جماعة عن الأخرى من اختلاف سيرورة التطوّر اللغوي في لهجة كلّ منها.

---

(٣٠) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار إحياء الكتب العربية، ص١/٢١٠.

(٣١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١/٢١٢.

(٣٢) المقدمة: ٣/١١٤٥.

ب- وتنوّع الظروف الاجتماعية، لاختلاف الأعراف من جماعة إلى أخرى، واللغة أحد هذه الأعراف.

ج- وتعدّد الاتصال البشري بغزو أو هجرة أو جوار(٣٣).

وما ذكره ابن خلدون هنا يندرج تحت العامل الثالث.

١٤- وزعم أن العربية اختصّت بالإعراب وحروف المعاني، وهو ما أورثها الوَجازة في التعبير، يقول: «وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانةً عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تُعيّن الفاعل من المفعول من المجرور - أعني المضاف - ومثل الحروف التي تُفْضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلّفِ ألفاظٍ أخرى، وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. وأمّا غيرها من اللغات فكلّ معنى أو حالٍ لا بدّ له من ألفاظ تخصّه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نُقدّره بكلام العرب، وهذا هو معنى قوله ﷺ: (أُوتِيتُ جوامعَ الكَلِم واختصر لي الكلامُ اختصارًا)...»(٣٤)

فأمّا الحروف التي تُفضي بالأفعال إلى الذوات فأراد بها حروف المعاني في نحو قولك: ذهبت إلى البيت، فإن الفعل (ذهب) لا يتعدّى بنفسه إلى (البيت)، ولا بدّ من واسطة وهي هنا حرف الجرّ (إلى).

غير أن حروف المعاني ليست مما اختصّت به العربية دون غيرها من اللغات.

وأمّا الإعراب فهو مما اختصّت به اللغات العُروبية عامّةً، ولا سيّما العربية التي

(٣٣) انظر اللهجات العربية في القراءات القرآنية: د.عبده الراجحي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٩٩٩م، ص٤٣- ٤٥.

(٣٤) المقدمة: ١١٢٨/٣- ١١٢٩.

احتفظت به على الصورة التي يُفتَرض أنها من الأصل العُروبي الأمّ، في حين لم يبقَ منه في الآراميّة والعبريّة سوى آثار لا يلحظها إلا الدارس(٣٥).

وأمّا الحديث النبويّ الشريف ففهمه كثير من العلماء فهمًا خاصا، ورأَوْا فيه خصوصيّة للنبيّ ﷺ (٣٦)، وفهمه ابن خلدون فهمًا عاما ورأى فيه خصوصيّة للعربية التي كان النبيّ ﷺ يتكلّم بها.

١٥- ووصف لغة الأعراب لعهده بأنها ما زالت على سنن العربية الفصحى، ولم يُفقَد منها إلا الإعراب، وهو إحدى قرائن الكلام، وقد استعيض عنه بقرائن أخرى كالرُّتبة، يقول فيها: «وذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضريّ، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدلّ على خصوصيّات المقاصد...

وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدنَ العرب لهذا العهد. ولا تلتفتنّ في ذلك إلى خَرْفَشة(٣٧) النحاة أهلِ صناعة الإعراب القاصرةِ مداركُهم عن التحقيق، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت، وأن اللسان العربي فسد، اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه، وهي مقالة دسّها التشيُّع في طباعهم، **وألقاها القصور في أفئدتهم**، وإلا فنحن نجد اليوم الكثيرَ من ألفاظ العرب لم تزل في

(٣٥) انظر فقه العربية المقارن: د.رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص ٤٨- ٤٩.

(٣٦) انظر مثلاً شمائل النبيّ: الترمذي، تحقيق: أحمد البزرة، دار المأمون للتراث، ط ١، ٢٠٠٨م، ص٦٤؛ والشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض، تحقيق: عبده علي كوشك، مكتبة الغزالي بدمشق ودار الفيحاء ببيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، ص١١٥-١١٦.

(٣٧) الخرفشة: التخليط.

موضوعاتها الأولى، والتعبيرُ عن المقاصد والتفاوتُ فيه بتفاوت الإبانة موجودٌ في كلامهم لهذا العهد، وأساليبُ اللسان وفنونُه من النظم والنثر موجودةٌ في مخاطباتهم، وفهمُ الخطيب المِصْقَع في محافلهم ومجامعهم، والشاعرِ المُفْلِق على أساليب لغتهم، والذوقُ الصحيح والطبعُ السليم شاهدان بذلك. ولم يفقد من أحوال اللسان المُدوَّن إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط، الذي لزم في لسان مضر طريقةً واحدة ومَهْيَعًا معروفًا وهو الإعراب، وهو بعض من أحكام اللسان.»(٣٨)

كان ابن خلدون أشار في الفقرة السابقة إلى أحد لوازم الإعراب في العربية، وهو الإيجاز «لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تُعيّن الفاعل من المفعول من المجرور... ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدّره بكلام العرب.»

وأشار في هذه الفقرة إشارة غير صريحة إلى لازم آخر من لوازم الإعراب في العربية، حين فطن أن لغة الأعراب لعهده لمّا فُقد منها الإعراب استُعيض عنه بالتقديم والتأخير، فالإعراب إذن كان يمنح العربية حريّة بناء الجملة فيها. فما دامت الكلمات لها من العلامات الإعرابية ما يكون دليلاً على ما تؤدّيه من وظائف نحوية، فلا حاجة إلى التزام نظام صارم في ترتيبها. وهذا ما عبّر عنه أبو القاسم الزجّاجي (ت٣٣٧هـ) بقوله: «وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها، ليتّسعوا في كلامهم، ويقدّموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالّة على المعاني.»(٣٩)

١٦– وهو حينما نظر إلى لغة الأعراب لعهده لم يعدّها انحرافًا عن العربية

(٣٨) المقدمة: ٣/١١٤١-١١٤٢.

(٣٩) الإيضاح في علل النحو: أبو القاسم الزجاجي، تحقيق: د.مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٩٨٦م، ص٦٩-٧٠.

الفصحى، بل عدّها لغة مستقلّة قابلة للوصف والتقعيد، غير أنه لم يتوفر لها من الدوافع التي تحمل العلماء على العناية بها ما توفر للعربية الفصحى، يقول: «ولعلّنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه، فتكونَ لها قوانين تخصّها، ولعلّها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر، فليست اللغات وملكاتها مَجّانًا... إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلناه – حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه.»(٤٠).

إن موقف ابن خلدون من لغة الأعراب لعهده يذكّرنا بموقف الوصفيين من علماء اللغة المحدثين، الذين يرون أنه ما من لغة راقية وأخرى منحطّة، وإنما كلُّ اللغات على قدم المساواة في قابليّتها للوصف والتقعيد(٤١).

١٧– فإذا كان هذا حالَ العربية الفصحى بعد فساد الألسنة بها، فما السبيل إلى تعلّمها؟ يقول: «ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن **يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم**، وكلمات المُولَّدين أيضًا في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولُقِّن العبارة عن المقاصد منهم، ثم يتصرّف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عبارتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصُل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخًا وقوّة.

ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهّم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في

(٤٠) المقدمة: ٣/١١٤٣–١١٤٤.

(٤١) انظر مبادئ اللسانيات: ١٦.

التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال، والذوق يشهد بذلك، وهو ينشأ من هذه الملكة والطبع السليم فيها كما نذكر.

وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع نظمًا ونثرًا. ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر، وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها.

وهكذا ينبغي أن يكون تعلّمها.»(٤٢)

يقترح ابن خلدون خطّة لتعلّم العربية بعد فساد الألسنة بها، وتقوم على دعامتين: الأولى جودة المحفوظ، والأخرى كثرة الاستعمال. ويغفل النحو، لأنه يرى كما مرّ بنا من قبل أن الملكة اللسانية غير علوم اللغة، ومستغنية عنها في التعليم.

لكن ظنّنا أن القواعد المدوّنة حينما تُصاغ قريبًا من القواعد الضمنية – وهو أمر يستدعي أن يُقدّم النحو بطريقة غير الطريقة التي قدّم بها في كتب التراث – فإنها يمكن أن تكون ذات نفع في تسريع عملية التعلّم بمخاطبتها جانب القياس، وهو لتجريده يُعدّ أخصر من جانب السماع في بلوغ الغاية.

– تنبيه:

شاع بين العامّة والخاصّة تسمية الجزء الأول من كتاب ابن خلدون بالمقدّمة، وفي هذه التسمية نَظَرٌ، إذ جاء في خُطبة الكتاب: «...ورتّبته على مقدمة وثلاثة كتب:

المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمَغالط المؤرخين.

الكتاب الأول: في العُمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والصنائع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب.

الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم، مثل النَّبَط

(٤٢) المقدمة: ٣/١١٤٦-١١٤٧.

والسُّريانيين والفُرس وبني إسرائيل والقِبْط واليُونان والرُّوم والتُّرك والإفرنجة.

الكتاب الثالث: في أخبار البربر ومواليهم من زَناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصّة من الملك والدول...

ولمّا كان مشتملاً على أخبار العرب والبربر، من أهل المَدَر والوَبَر، والإلماع بمن عاصرهم من الدول الكُبَر، وأفصحَ بالذِّكرى والعِبَر، في مبتدأ الأحوال وما بعدها من الخبر – **سميّتُه**: كتابَ العبر، وديوانَ المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.»[٤٣]

أقول: فلو أردنا أن نقسم هذا العنوان على الكتب الثلاثة في هذا السفر، كان نصيب أولها: (كتاب العبر)، وهو موافق لمضمونه.

وتستمدّ هذه القسمة مشروعيّتها من العنوان نفسه، فهو: **كتاب** العبر، و**ديوان** المبتدأ والخبر...إلخ

فإن قيل: إن هذه القسمة لا تصحّ لاختلاط مقاصد الكتاب من أخبار وعبر، أجيبَ: فأقلّ منها صحّةً أن يُسمّى الكتاب الأول منه بالمقدمة، وقد قصرها صاحبه على فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمَغالط المؤرخين.

وأيضًا فالمقدمة ليست شيئًا إذا ما قيست بالكتاب الأول اتّساعًا وعمقًا، حتى يُسمّى بها على سبيل التبعيّة.

المصادر والمراجع

١ – **أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة**: د.نايف خرما، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.

(٤٣) المقدمة: ١/٢٨٦-٢٨٧.

٢ – **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٨، ١٩٨٩م.
٣ – **الألسنية الحديثة واللغة العربية**: د.محيي الدين حميدي، كتاب الرياض، ١٩٩٧م.
٤ – **الإيضاح في علل النحو**: أبو القاسم الزجاجي، تحقيق: د.مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٩٨٦م.
٥ – **تشومسكي**: جون ليونز، ترجمة: د.محمد زياد كبّة، النادي الأدبي، الرياض، ١٩٨٧م.
٦ – **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**: القاضي عياض، تحقيق: عبده علي كوشك، مكتبة الغزالي بدمشق ودار الفيحاء ببيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
٧ – **شمائل النبيّ**: الترمذي، تحقيق: أحمد البزرة، دار المأمون للتراث، ط ١، ٢٠٠٨م.
٨ – **علم اللغة في القرن العشرين**: جورج مونان، ترجمة: د.نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي، دمشق.
٩ – **فقه العربية المقارن**: د.رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
١٠ – **اللهجات العربية في القراءات القرآنية**: د.عبده الراجحي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.
١١ – **مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة**: د.ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
١٢ – **مبادئ اللسانيات**: د.أحمد قدور، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٨م.
١٣ – **مدخل إلى الألسنية**: د.يوسف غازي، منشورات العالم العربي الجامعية، ط١، ١٩٨٥م.
١٤ – **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار إحياء الكتب العربية.
١٥ – **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: د.علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ٢٠٠٦م.
١٦– **نظرية تشومسكي اللغوية**: جون ليونز، ترجمة وتعليق: د.حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٥م.

أثرُ الإقصاء المشرقيّ للأدب الأندلسيّ في كتابات الأندلسيِّين

د. أسامة اختيار(*)

توطئة:

لا يستطيع الدَّارس للأدب الأندلسيِّ أن يتجاهل تلك العلاقة الوطيدة التي قامت بين الأدبين الأندلسيِّ والمشرقيِّ، و الكلام على النَّزعة المشرقيَّة في الأدب الأندلسيِّ من نافلة القول، وتفصيلاته مثبتةٌ في كثير من مصادر الأدب الأندلسيِّ، وقد كان حكَّام الأندلس وعلماؤها وأدباؤها يذكرون أهل المشرق بالبدِّ في العلوم والأدب، وينسبون إليهم الفضلَ في ذلك، ويكرمون الوافدَ منهم، وكانوا حريصين على جمع كتب المشرق إلى خزائن الكتب الأندلسيَّة.

من ذلك ما ذكره المقَّري في ترجمة المستنصر الحكم بن عبد الرَّحمن، قال: «كان محبا للعلوم، مكرمًا لأهلها، جمّاعًا للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحدٌ من الملوك قبلَه ... وفدَ على أبيه أبو عليّ القالي صاحبُ كتاب الأمالي من بغداد فأكرم مثواه، وحَسُنَتْ منزلتُه عنده، وأورث أهل الأندلس علمَه، واختصَّ بالحكم المستنصر واستفاد علمَه؛ وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التُّجار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتَّى

(*) أستاذ الأدب الأندلسيّ في قسم اللّغة العربيّة بجامعة دمشق.

جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنِّفه أبي الفرج الأصفهانيِّ، وكان نسبه في بني أميَّة، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذَّهب العَين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجَه إلى العراق»[١] .

ومن ذلك أيضًا رقعةٌ بعث بها المعتضدُ عبَّادٌ إلى أبي عمر بن عبد البرِّ النَّمريِّ والدِ الوزيرِ الكاتب المبرَّز أبي محمَّد عبد الله يستقدمه إلى الأندلس، ويسأله أن يجعلَ للغرب من عِلْمه نصيبَ الشَّرق، ومنها: «إنْ كنَّا لم نتعارفْ ترائيًا، ولم نتلاقَ تدانيًا، ففضلُك في كلِّ قطرٍ كالمَشاهد، وشخصُك في كلِّ نفسٍ غيرُ متباعد، فأنت واحدُ عصرِك، وقريعُ دهرِك علمًا بيدك لواؤُه، وفضلاً إليك اعتزاؤه، ... ولم تزل نفسي إليك جانحة، وعيني نحوَك طامحة، انجذابًا إلى العلم ورغبة فيه، ومنافسةً في قضاء حقوق حامليه، والنَّاس عندنا إلى ما عندك ظِماء، ولدينا الدَّاء وأنت الشِّفاء، فاجعلْ بفضلِك للغَرْبِ منك نصيبَ الشَّرق، فهو أَولى بك وأحقّ، وعندي لك من الإعظام والإكرام ما يُضاهي حالك، ويسامي آمالك»[٢]. ووجَّه أبو المطرَّف عبد الرَّحمن بن الحكم رسولَه عبَّاسَ بنَ ناصح إلى المشرق في التماس الكتب والدَّواوين، فنقلَ المذهبَ المُحْدَث في نَظْم الشِّعر إلى الأندلس، ولقيَ أبا نواس في بغداد وأنشده بعض شعر الأندلسيِّين[٣].

تؤكِّد هذه الأخبار وغيرُها النزعةَ المشرقيَّةَ لدى الأندلسيِّين، غير أنَّ الدَّارس للأدب الأندلسيِّ يلمس إقصاء الأدباء المشارقة لأهل الأندلس في كثيرٍ من الأحيان،

(١) نفح الطِّيب: المقَّري (أحمد بن محمَّد ت ١٠٤١هـ)، تحقيق د.يوسف علي الطَّويل، د.مريم قاسم الطَّويل، دار الكتب، بيروت، ١٩٩٥م. ١/ ٣٦٩ – ٣٧٠.

(٢) الذَّخيرة: ابن بسَّام (أبو الحسن علي بن بسَّام الشَّنتريني ت ٥٤٢هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، الدَّار العربيَّة للكتاب، تونس، ١٩٧٥م. ٣ / ١ / ١٣٤.

(٣) نفح الطِّيب: ٤/ ١٩٧ – ١٩٨.

علمًا أنّ ما تذكره المصادر الأدبيَّة من أخبارٍ قليلةٍ تشير إلى إعجاب بعض أهل المشرق بأدباءٍ من الأندلس، ولا يخلو بعضُ هذه الأخبار من المبالغة التي تومئ إلى تلفيق الأندلسيِّين، فمن ذلك ما روته المصادر من أنَّ المتنبيَ اجتمع برجلٍ من أهل الأندلس فقال له: «أنشدني لمليح الأندلس، يعني ابنَ عبد ربِّه، فأنشده:

يـا لؤلـؤًا يَسْـبي العُقـولَ أنيقـا ورشًـا بتعـذيبِ القُلـوبِ رفيقـا
مـا إنْ رأيـتُ ولا سَمِعْـتُ بمثلِـهِ دُرًا يعـودُ مـنَ الحيـاءِ عَقيقـا
وإذا نظـرْتَ إلى محاسـنِ وَجْهِـهِ أَبْصَـرْتَ وَجْهَـكَ في سَـناهُ غريقـا
يـا مَـنْ تَقَطَّـعَ خَصْـرُهُ مِـنْ رِقَّـةٍ مـا بـالُ قَلْبِـكَ لا يكـونُ رقيقـا؟

فلمَّا كَمُلَ إنشادُها استعادها، ثمَّ صفَّق بيديه، وقال: يا ابنَ عبدِ ربِّه، لقد تأتيكَ العراقُ حبوًا»(٤)، وفي هذا الخبر من المبالغة ما لا يخفى في آخره، والعالمُ بخُيَلاءِ المتنبي وكِبْرِه يُنكِرُ أن يصفِّق بيديه لقول شاعرٍ غيرِه، فكيف بقوله: «لقد تأتيك العراقُ حبوًا»؟، وظاهرٌ أنَّ الأبياتَ لا تأتي بجديدٍ على سَنَنِ الشِّعر عند أهل المشرق، وهذا واضح للمتأمِّل في بناء صورها، من مِثْلِ إضفاء لونِ العقيقِ على الوجهِ الحَيِيْ، أو وصفِ دقَّة الخَصْرِ وغير ذلك ، ولن يخفى على شاعرٍ خبيرٍ كالمتنبي التنافرُ في قول ابن عبد ربِّه: «بتعذيب القلوب رفيقا» وهي رواية (نفح الطِّيب) في دَرْجِ الخبر، ورواية الدِّيوان «بتقطيع القلوب رفيقا»(٥)، فكيفَ الرِّفْقُ في التَّقطيع أو التَّعذيب؟.

(٤) المصدر نفسه: ٥/ ١٠٧ .

(٥) انظر ديوان ابن عبد ربِّه: (أحمد بن أحمد ت ٣٢٨هـ)، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٣م. ١٨٩.

ومهما يكن من أمر هذا الخبر على ما فيه من العلل البيِّنة، فإنَّ ما نجده في كتب المشارقة من الثَّناء على الأدباء الأندلسيِّين أقلُّ ممَّا تشتملُ عليه المصادرُ الأندلسيَّةُ من ثناء الأندلسيِّين على أدباء المشرق، وهذا يؤكد الإقصاءَ المشرقيَّ للأديب الأندلسيِّ، وإن ذكَرَتْ بعضُ المصادر الأدبيَّة المشرقيَّة ثُلَّةً من الأدباء الأندلسيِّين بالتَّميُّز، كالَّذي أشار إليه الثَّعالبي في ترجمة ابن درَّاج القَسْطَلِّي حين قال: «كان بصُقْعِ الأندلس كالمتنبي بصُقْعِ الشَّام»(٦).

وهناك أخبارٌ قليلةٌ لا تخلو من الصِّحة تدلُّ على ثناء المشارقة على بعض أدباء الأندلس، نحو هذا الخبر الَّذي ساقَه ابنُ بسَّام: «حُكِيَ أنَّ أبا الطَّيِّب المتنبي على قلَّة رضاه عن شعر أحدٍ فإنَّه على ما ذُكِرَ عنه أُنْشِدَ لجملةٍ من شعراء الأندلس، حتَّى أُنْشِدَ قولَ ابنِ هُذيل:

إذا حَبَسْتُ على قلبي يَدِي بيدي وصِحْتُ في اللَّيلةِ الظَّلماءِ واكَبِدي
ضَجَّتْ كواكبُ لَيلي في مطالِعِها وذابَتِ الصَّخْرَةُ الصَّمَّاءُ مِنْ كَبِدِ

فقال أبو الطَّيِّب: هذا أشعرُ أهلِ المغرب»(٧).

ولابدَّ هنا من إقرار أمرين؛ الأوَّل: بروز النَّزعة المشرقيَّة في الشِّعر الأندلسيِّ، والثَّاني: إعجاب بعض المشارقة بنَفَرٍ من الأدباء الأندلسيِّين، وظلَّت مع ذلك كلِّه ظاهرةُ إقصاءِ المشارقة لأدباء الأندلس سائدةً في الذِّهْن المشرقيِّ ومؤرِّقةً للوجدان الأندلسيِّ، والسُّؤال المطروح في هذا الصَّدد: ما مظاهرُ الإقصاء المشرقيِّ للأندلسيِّين؟

مظاهر الإقصاء المشرقيّ للأندلسيّين:

---

(٦) يتيمة الدَّهر: الثَّعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمَّد ت ٤٢٩هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٩٧٩م. ٢/ ١٠٣.

(٧) الذَّخيرة: ٣/ ١ / ٣٤٧.

يبدو أنَّ عزوفَ الأندلسيِّين بادئ أَمْرِهم عن حَمْلِ مؤلفاتهمُ الفَتيَّة إلى المشرق والمغرب، فضلاً عن حداثة شأنهم في الأدب قياسًا إلى عراقة المشرق، كانا عاملين في إقصاء المشارقة لهم، وهذا التَّعليل له ما يسوِّغُه من الأخبار في بطون الكتب، وقد تنبَّه على ذلك أهل إفريقيَّة قبل المشارقة لقربهم من الأندلس، فمن ذلك رسالةٌ نفيسةٌ وجَّهها أبو عليّ بن الرَّبيب القَرَويُّ إلى الكاتب أبي المغيرة عبد الوَّهاب بن حزم، ومنها: «إنِّي فكَّرْتُ في بلدكم أهلَ الأندلس، إذْ كان قرارةَ كلِّ فضلٍ، ومقصد كلِّ طرفةٍ، ومورِدَ كلِّ تحفةٍ، إن بارت تجارةٌ أو صناعةٌ فإليكم تُجلَبُ، وإن كَسَدَتْ بضاعةٌ فعندكم تَنْفُقْ، مع كثرةِ علمائه، ووفورِ أدبائه، وجلالة ملوكه، ومحبَّتهم للعلم وأهله... وتنافُسِ النَّاس في العلوم، ثمَّ هُمْ مع ذلك في غاية التَّقصير ونهاية التَّفريط، من أجل أنَّ علماء الأمصار دوَّنوا فضائل أعيانهم وقلَّدوا الكتبَ مآثرَ أقطارهم، وأخبارَ الملوك والأمراء، والكتَّاب والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقَوا لهم ذِكرًا في الغابرين، ولسانَ صدقٍ في الآخرين؛ وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كلُّ امرئٍ منهم قائمٌ في ظلِّه لا يبرح، وثابتٌ على كَعْبِه لا يتزحزح، يخاف إن صنَّف أن يُعَنَّف، أو تخطفه الطَّير، أو تهوي به الرِّيح في مكانٍ سحيقٍ،... فإن قلْتَ: إنَّه كان ذلك من علمائكم، وألَّفوا كتبًا لكنَّها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يصحبْها تحقيقٌ، لأنَّه ليس بيننا وبينكم إلا رَوحةُ راكبٍ، أو دلْجَةُ قارب، لو نفث ببلدكم مصدور، لأسمعَ ببلدنا مَنْ في القبور»(٨).

هذا عتبُ ابنِ الرَّبيب وهو الجارُ والصَّاحبُ بالجَنْبِ، لأنَّه مغربيٌّ، فكيف الحالُ بأهل المشرق وقد أخذتهم العزَّة بأدباء أقطارهم؟. وقد راجع أبو المغيرة صاحبَه ابنَ الرَّبيب برقعةٍ طويلةٍ أشار ابنُ بسَّام إلى أنَّه ختمها بطَرَفٍ من تواليف أهل الأندلس،

(٨) الذَّخيرة: ١/ ١ / ١٣٣- ١٣٤.

والعجيبُ أنَّ ابن بسَّام أضربَ عن تسميتها بزعمِ شُهرتِها[٩]، وبإغفاله لذِكْرِها فاتَ العلم بها.

تتجلَّى أبرزُ مظاهر إقصاءِ المشارقة للأندلسيِّين في أنَّهم عابوا على أدباء الأندلس تقصيرَهم أوَّلَ أمرهم عن بلوغِ شأوِ أدباء المشرق، وقد ذكر المقَّري أنَّ الشَّاعرَ الأندلسيَّ الحكَمَ الغَزَالَ دخلَ العراقَ بعد موت أبي نواس «فجلس يومًا مع جماعةٍ منهم فأزْرَوا بأهل الأندلس، واستهجنُوا أشعارَهم، فتركهم حتَّى وقعوا في ذِكْرِ أبي نواس، فقال لهم: من يحفظُ منكم قولَه:

وَلَمّا رَأَيتُ الشَّرْبَ أَكدَتْ سَماؤُهُم تأَبَّطتُ زِقِّي واحتَسَبتُ عَنائي
فَلَمّا أَتَيتُ الحانَ نادَيتُ رَبَّهُ فَثابَ خَفيفَ الروحِ نَحوَ نِدائي
قَليلَ هَجوعِ العَينِ إلاَّ تَعلَّةً على وَجَلٍ مِنّي وَمِن نُظَرائي
فَقُلْتُ أَذِقنيها فَلَمَّا أَذاقَها طَرَحْتُ عَلَيهِ رَيطَتي وَرِدائي
وَقُلْتُ: أَعِرْني بَذلَةً أَسْتَتِرْ بِها بَذَلتُ لَهُ فيها طَلاقَ نِسائي
فَوَاللَهِ ما بَرَّتْ يَميني وَلا وَفَتْ لَهُ غَيرَ أَنِّي ضامِنٌ بِوَفائي
فَأُبْتُ إِلى صَحْبي وَلَمْ أَكُ آيِباً فَكُلٌّ يُفَدِّيني وَحَقَّ فِدائي

فأُعْجبوا بالشِّعر، وذهبوا في مدحهم له، فلمَّا أفرطوا قال لهم: خفِّضُوا عليكم، فإنَّه لي»[١٠].

وقد أدَّى هذا الصِّراع إلى نشوءِ خصومةٍ أدبيَّة بين المشارقة والأندلسيِّين، وتتَّضح معالمها في بعض مظاهر سخرية المشرقيِّين من بعض أشعار الأندلسيِّين، وقد روى

(٩) المصدر نفسه: ١/ ١ / ١٣٩.

(١٠) نفح الطِّيب: ٣/ ٢٧ – ٢٨ .

المقَّري في (نفح الطِّيب) طَرَفًا من هذه الأخبار، فمن ذلك هذا الخبر: «وفي القالي يقول شاعر الأندلس الرَّماديُّ:

مَـنْ حاكـمٌ بيـني وبـينَ عَـذولي؟ الشَّـجوُ شَـجوي والعَويـلُ عَـويلي
في أَيِّ جارِحَـــةٍ أَصُـــونُ مُعـــذِّبي سَـلِمَتْ مِـنْ التَّعـذيبِ والتَّنكيـلِ
إِنْ قُلْـتُ: في بصري، فَثَمَّ مَدامعي أَو قُلْـتُ: في قَلـبي، فَـثَمَّ غَليـلي
لَكـن جَعلْـتُ لَـهُ المَسـامِعَ مَوضِعـاً وَحَجَبْتُـهُ عَـنْ عَـذْلِ كُـلِّ عَـذولِ

ولمَّا سمع المتنبي البيت الثَّاني قال: يصونه في استه»[١١].

وقد لمس الأندلسيُّون إقصاء المشارقة لهم، حتَّى إنَّ ابن دحية يلوم أهل المشرق أنْ حطُّوا من قَدْرِ الأندلسيِّين، فيقول بعد أن روى شعرًا استحسنه لبعض الأندلسيِّين: «إنمَّا أوجب أن يكون ذِكْرُهُ مَنْسيًا، أنْ كانَ أندلسيا، وإلا فما له أُخْمِلَ، وما حقُّ مثله أن يُهمَلَ...هَلْ وصفتَه إلاَّ الدُّرَّ المُنْتَظَم، وهَلْ نحنُ إلا نظلَمُ في حقِّنا ونُهتَضَم! يالله لأهل المشرق!»[١٢]، وهذا يدلُّ على الأثر الَّذي تركه الإقصاء المشرقيُّ في الوجدان الأندلسيِّ، ومثل هذا الإقصاء حمل أبا علي القالي على الظَّنِّ بقِلَّة شأن الأندلسيِّين في الآداب والعلوم، حتَّى نزلَ ديارَهم فأقرَّ لهم بالعلم والأدب، وقد ذكر ابن بسَّام ذلك، فقال: «حكى أبو علي البغداديُّ الوافدُ على الأندلس في زمان بني مروان، قال: لمَّا وصلْتُ القيروان، وأنا أعتبر من أمرُّ به من أهل الأمصار، فأجدُهم درجات في الغباوة وقلَّة الفَهْمِ، بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، حتَّى كأنَّ منازلهم من الطَّريق هي منازلهم من العلم محاصَّةً ومقايسةً. قال أبو علي: فقلْتُ إن

(١١) نفح الطِّيب: ٤/ ٦١ – ٦٢ .

(١٢) المطرب من أشعار أهل المغرب: ابن دحية (أبو الخطَّاب عمر بن حسن ت ٦٣٣هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرين، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤. ١٤٤ – ١٤٥.

نقصَ أهل الأندلس عن مقادير من رأيْتُ في أفهامهم، بقَدْرِ نُقصانِ هؤلاء عمَّن قبلَهم، فسأحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان»[١٣]، وفي قوله إشارةٌ إلى الحكم على مَنْ لم يعلم أحوالهَم ويَخْبَر علومَهم من أهل الأندلس قبل الوصول إليهم.

إنَّ هذه الحال من إقصاء المشارقة للأندلسيِّين أسهمَتْ في بعث الشخصيَّة الأدبيَّة الأندلسيَّة، وتكوين ملامحها العامَّة، ثمَّ نضوجها، سعيًا نحو إثباتِ وجودِها الأدبيِّ، وقد برزَ أثرُ ذلك الإقصاء في أدب الأندلسيِّين بروزًا واضحًا، على نحو ما سيتضح في تضاعيف هذا البحث.

الإقصاء المشرقيّ وموقف الأندلسيِّين:

ظهرَتْ نزعةٌ مكانيَّةٌ واضحةُ المعالِم لدى الأندلسيِّين مع ما عُرِفَ من إعجابهم بالمشرقيِّين، وهذه النَّزعةُ هدفُها الأساسيُّ إعلاءُ شأنِ الذَّات الأندلسيَّة والدِّفاع عنها، وسببُها الرَّئيسيُّ ذلك العزوفُ المشرقيُّ عن رصد الحركة الأدبيَّة الأندلسيَّة رصدًا مُنْصِفًا لها، ينأى عن خُيلاء المشرقِ على المغرب، ويظهر محاسن شعراء ذلك البلد .

وقد ظهرَ الرَّدُّ الأندلسيُّ على ذلك كلِّه في صورةٍ حضاريَّةٍ من التَّنافس، فكان بمنزلة المحرِّض للأديب الأندلسيِّ على الإبداع الأدبيِّ وقَبول التَّحدي المشرقيِّ، وفي الإمكان رصدُ ذلك الإبداع من دراسة نتائج الإقصاء المشرقيِّ في الأدب الأندلسيِّ وفقًا للمحورين الآتيين:

- دفاع المصنِّفين الأندلسيِّين عن أدبائهم.
- اختيال الشَّاعر الأندلسيِّ على الشَّاعر المشرقيِّ.

دفاع المصنِّفين الأندلسيِّين عن أدبائهم:

(١٣) الذَّخيرة: ١/ ١ / ١٤– ١٥ .

أثَّر الإقصاء المشرقيُّ للأدباء الأندلسيِّين في نشاط حركة التَّأليف الأدبيِّ في الأندلس، وفي تضاعيف متونها الردُّ على مزاعم المشرقيِّين، وإعلاءُ شأن الأدب الأندلسيِّ وإنصافُه، ومن التَّصانيف في الدِّفاع عن الأندلسيِّين كتابُ (الشُّهُب الثَّاقبة في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة)(١٤)، ويبدو أنَّ قضية الدِّفاع عن الأندلسيِّين قد رسخَتْ في ذهن الأديب ابن سعيد الغرناطيِّ، فقصر هذا الكتابَ عليها، وذكر فيه قواعد الأندلس وفضلاء كلِّ مملكةٍ منها وقدَّمهم على غيرهم، وكأنَّه أراد لكتابه أن يكون شهابًا ثاقبًا في هذه الخصومةِ فلا يُسْتَرَقُ السَّمْعُ إلى غيره، وهذا الكتاب ثمرةُ ذلك الإقصاء المشرقيِّ للأندلسيِّين، ومما يُؤسَف له أنَّه سقط من يد الزَّمان.

وثمَّة كتابٌ آخرُ في هذا الباب لم يصل إلينا، هو (حانوتُ عطَّار) لابن شُهَيد، وقد وضعه فخرًا بأدب أهل بلده، تعرَّض فيه لسقط بعض المشرقيِّين، وفي طيّاته العَتَبُ على بعض حكَّام الأندلس الَّذين قرَّبوا إليهم أدباء المشرق، وأقصَوا المُبرِّزين من الأندلسيِّين، ونقلَ الحميديُّ في (جذوة المقتبس) عن ابن شُهيد في (حانوت عطَّار) جملةً من الأخبار في ذلك، منها خَبَرُ القاضي أبي الحكم منذرِ بنِ سعيدٍ مع أبي علي القالي في حضرة الحكم المستنصر بالله، قال: «وله اليومُ المشهورُ الَّذي ملأ فيه الأسماعَ وسَر القلوبَ،وذلك أنَّ الحكمَ المستنصر كان مشغوفًا بأبي علي القالي يؤهِّله لكلِّ مُهمٍّ في بابه، فلمَّا وردَ رسولُ ملك الرُّوم أمرَه عند دخول الرَّسول إلى الحضرة أن يقوم خطيبًا بما كانت العادةُ جاريةً به، فلمَّا كان في ذلك الوقت، وشاهد أبو عليٍّ الجمعَ، وعاين الحفلَ، جَبُنَ ولم تحمله رجلاه، ولا ساعده لسانُه، وفطن له أبو الحكم

(١٤) هدية العارفين؛ أسماء المؤلِّفين وآثار المصنِّفين: البغداديّ (إسماعيل بن محمَّد بن مير سالم ت ١٣٣٩هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٩٥١م.: ١/ ٧١٤ – ٧١٥، وانظر نفح الطيب: ١/ ٢٠٣ .

منذرُ بنُ سعيدٍ، فوثبَ وقام مقامَه، وارتجل خطبةً بليغةً على غير أُهْبةٍ، وأنشد لنفسه في آخرِها:

هـذا المقـالُ الَّـذي مـا عابَـهُ فَنَـدُ   لكـنَّ صـاحبَهُ أَزْرَى بـه البَلَـدُ
لـو كنْتُ فيهم غَريبًا كنْتُ مُطَّرَفًا   لكنَّـني مـنهمُ فاغتـالَني النَّكَـدُ
لـولا الخلافـةُ أبقـى اللهُ بهجتَهـا   ما كنْتُ أبقى بأرضٍ ما بها أحدُ

فاتَّفق ذلك الجمعُ على استحسانه، وجمال استدراكه»(١٥)، وفي البيت الثَّاني تعريضٌ بأبي عليٍّ القالي، وما كان من تقديم الحَكَمِ له على أهل البلد.

وتؤكِّد أخبارٌ كثيرةٌ هذه الظَّاهرةَ، إذ أودع الأندلسيُّون بطونَ كتبهم مرارةَ ذلك الإقصاءِ الَّذي كابده أدباؤهم، وعتبوا على تقديم أهل بلدهم للمشرقيِّين، ونتجَ من ذلك أن التفتَ المصنِّفون الأندلسيُّون إلى بسط فضائل أدبائهم في تضاعيف التراجم والأخبار.

ومن عَتَبِ المصنِّفين الأندلسيِّين على بَلَدِيِّهم، وعلى ذوي السُّلطان منهم، ممَّن رفعوا شأنَ الأدب المشرقيِّ إلى عِلِّيينَ، ما نجده في مقدِّمة الذَّخيرة، وفي دَرْجِها مثالٌ حيٌّ لهذا العتاب الذي يرفعه ابن بسَّام إلى رتبة التَّقريع لأهل قطره، ومنه قوله: «إلاَّ أنَّ أهلَ هذا الأفُق، أبَوا إلا متابعة أهل الشَّرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قَتادة ؛ حتَّى لو نَعَقَ بتلك الآفاق غُراب، أو طنَّ بأقصى الشَّام والعراق ذُباب، لجَثَوا على هذا صنما، وتَلَوا ذلك كتاباً محكما... فغاظَني منهم ذلك، وأنِفْتُ ممَّا هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدْتُ من حسنات دهري، وتَتَبُّعِ محاسن أهل بلدي وعصري، غَيرةً لهذا الأفق الغريب أن تعود بُدُورُه أَهِلَّةً، وتصبح

(١٥) جذوة المقتبس:الحميديّ (أبو عبد الله محمّد بن أبي نصر الأندلسيّ ت٤٨٨ﻫ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ١٩٨٩م. ٢/ ٥٥٥– ٥٥٦.

بحارُه ثمادًا مُضْمَحِلةً؛ مع كثرة أدبائه، وَوُفُور علمائه... وليت شعري من قَصَرَ العِلْمَ على بعض الزَّمان، وخصَّ أهل المشرق بالإحسان ؟»[١٦]، ويشير ابن بسَّام إلى أنَّه صنع ذخيرته إبرازًا لمحاسن أهل جزيرته ليربوَ بهم على أهل المشرق من غير اهتمام: «...حتَّى ضمَّنْتُ كتابي هذا من أخبار أهل هذا الأفق، ما لعلِّي سأربي به على أهل الشَّرق، وما قصدت به – عَلِمَ الله الطَّعْنَ – على فاضل، ولا التَّعصُّبَ لقائلٍ على قائل؛ لأنَّ من طلب عيبًا وجده، وكلٌّ يعمل باقتداره، وبجَهد اختياره، وما أُغْفِلَ أكثر ممَّا كُتِبَ وحُصِّل؛ والأفكار مُزْنٌ لا تنضب، ونجومٌ لا تَغْرُب؛ ومن يحصِّل ما تثيره القرائح، وتتقاذف به الجوانح؟»[١٧]، وفي هذا القولِ إشارةٌ إلى ما تحتَ الرَّماد من جمرِ التَّنازُع على المكانة الأدبيَّة والإحساس بالإقصاء، وهذا الجانب أبرزُ في مصادر تاريخ الأدب الأندلسيِّ من المصنَّفات الأدبيَّة المشرقيَّة، إذ ظلَّت الأندلس راصدةً لهذا الإقصاء، وأهلُ الأندلس الَّذين انصرفوا في مرحلةٍ من المراحل إلى إعلاء أدب المشارقة رَجَعُوا عن ذلك أحيانًا، لشعورهم بإقصاء المشرق لهم، وقد تمثَّلَ هذا الأمرُ في انشغال كثيرٍ من مصنِّفي كتب التَّاريخ الأدبيِّ في المشرق بأدبائهم عن إثبات فضائل الأندلسيِّين، وما ذَكَرَهُ بعضُ أهل المشرق كأبي منصور الثَّعالبيِّ من محاسن الأندلسيِّين لا يُعَدُّ شيئًا مذكورًا، ولاسيِّما إذا قيس إلى عَظيمِ ذلك التَّجاهُل للأندلسيِّين وأدبهم في المصنفات المشرقيَّة، ولعلَّ المشرقيِّين في ذلك معذورون، فعلى كلِّ قطرٍ أن يُبرِزَ محاسنَ أدبائه، وهذا الإبرازُ هو الباعثُ الرَّئيسيُّ لحركة تطوُّر الأدبِ في الأقاليم، ولذلك نعى ابنُ بسَّام على أدباء قُطْرِهِ أنْ وَلَّوا وجوهَهم قِبَلَ المشرقِ دون إبراز محاسن قُطْرِهم في المغرب.

(١٦) الذَّخيرة: ١/ ١ / ١٢ .

(١٧) الذَّخيرة: ١/ ١/ ١٦.

ظلَّ الإحساسُ بالإقصاء المشرقيِّ لدى الأندلسيِّين مشكلةً أدبيَّةً، تَتَّقدُ جذوتُها أو تخبو أحيانًا لدى مؤرِّخي الأدب الأندلسيِّ، وتتناوب هذه المشكلةُ بين المدِّ والجزر في أشعار الأندلسيِّين أيضًا، إذ أقْبلَ الأدباء الأندلسيُّون على إبراز رِفعة أدب المشرق حِينًا، ثمَّ ثَنَتْهُم عن ذلك جفوةُ المشرق، فصاروا يثنون العِطْفَ ويلوون العُنُقَ مُتَّهمين المشارقةَ أو مفاخرين لهم أحيانًا، وتطوَّرت هذه الظَّاهرةُ إلى الطَّعْنِ على أدباء المشرق، أو مبادلاتهمُ الكِبْرَ بالكِبْر، ولا ريبَ في أنَّ هذا التَّنازع الطَّريفَ والتنافسَ المثمرَ قد أَثْرَيا فنَّ القول في أدب الأندلس، وأنضجَا ثمرةَ الشِّعر الأندلسيِّ فأينعت، ونجد في الدَّخيرة صوراً من ذلك الرَّفض لمتابعة المشارقة، فمن ذلك قول ابن بسَّام: «كلٌّ مُردَّدٍ ثقيل، وكلٌّ مُتَكَرِّرٍ مملول، وقد مجَّت الأسماعُ (يا دار ميَّة بالعلياء فالسَّند)، وملَّت الطِّباعُ (لخولةَ أطلالٌ ببرقة ثَهْمَد) ومَحَتْ (قفا نبك) في يد المتعلِّمين، ورَجَعَتْ على ابن حُجْرٍ بلائمة المتكلِّفين، فأمَّا (أمِنْ أمِّ أوفى) فعلى آثار من ذَهَبَ العَفا. أمَا آنَ أن يَصَمَّ صداها، ويُسْأَمَ مَداها؟ وكم من نُكْتَةٍ أَغْفَلَتْها الخطباء، ورُبَّ مُتَرَدَّمٍ غادرتُه الشُّعراء، والإحسانُ غيرُ محصور»(١٨).

وكان من أبرز نتائج ذلك الإقصاء المشرقيِّ للأندلسيِّين أن ترصَّد مؤرخُّو الأدب الأندلسيِّ زَلَلَ أدباء المشرق، فمنه قول ابن بسَّام مُعيبًا على المتنبي وطاعنًا عليه، مكثِّرًا زَلَلَهُ، ومُجَسِّمًا خطأَه: «وخطأُ المتنبي في اللَّفظ والمعنى كثيرٌ، ويُتْبِعُ الفِقْرَةَ الغرَّاء بالكلمة العوراء، ويفتتح بذلك شعرَه، وما أكثر ما يحوم حول هذه الطَّريقة، ويعود لهذه العادة السَّيئة، ويجمع بين البديع النَّادر والضَّعيف السَّاقط، فبينا هو يصوغُ أفخرَ حَلِي، وينظم أحسنَ عِقْد، وينسج أنفسَ وَشِي، ويختال في حديقة ورد، إذا به قد رمى بالبيت والبيتين في إبعاد الاستعارِ، وتعويض اللَّفظ وتعقيد المعنى، فمحا تلك

(١٨) الدَّخيرة: ١/ ١ / ١٣ .

المحاسن، وكدَّرَ صفاءَها، وأعقب حلاوتها مرارةً لا مساغ لها، واستهدفَ لسهام العائبين، فَمِنْ مُتَمَثِّلٍ بقول الشَّاعر:

أنتِ العروسُ لها جمالٌ رائعٌ لكنَّها في كلِّ يومٍ تُصْرَعُ»[١٩]

ويسرد المقَّري نحوًا من هذه الأخبار، كالَّذي ذكرَه من الطَّعن على المتنبي أيضًا، قال: «وتباحث المعتمدُ مرَّةً مع الجلساء في بيت المتنبي الَّذي زعمَ أنَّه أميرُ شعره:

أَزورُهُم وَسَوادُ اللَيلِ يَشفَعُ لي وَأَنثَني وَبَياضُ الصُبحِ يُغري بي

فقال: ما قَصَّر في مقابلة كلِّ لفظةٍ بضدِّها إلا أنَّ فيه نقدًا خفيا، ففكَّروا فيه، فلمَّا فكَّروا قالوا له: ما وَقَفْنا على شيءٍ، فقال: اللَّيل لا يُطابَقُ إلا بالنَّهار، لأنَّ اللَّيلَ كُلِّيٌّ والصُّبحَ جزئيٌّ، فتعجَّب الحاضرون، وأثنَوا على تدقيق انتقاده»[٢٠]، وإن كان في هذا الكلام نظرٌ، إلا أنَّ الغايةَ منه إبرازُ شأن المنافسة في القول بين المشرق والمغرب.

ومن شَغَفِ مؤرِّخي الأدب الأندلسيِّ كابن بسَّام وغيره أنْ أظهروا عيوبَ المشارقة ونفخوا فيها، فَعَظَّمُوا صغيرَها وقوّوه، حتَّى غدا في عينِ من لا يعلمُه ذا شأنٍ، لكنَّ ضَعْفَ ذلك لا يخفى على الخبير، على أنَّ المدقِّق يرى كلا الفريقين مجيدٌ من مشرقيٍّ وأندلسيٍّ، ذلك أنَّ العِراكَ الأدبيَّ على مرِّ العصور باعثٌ للمنافسة المُنْتِجَة لكلِّ طريفٍ، وإنَّما غَرَضُ الأندلسيِّين من إبراز هذا العِراكِ وتقويته أن يرفعوا مكانةَ أدبائهم، ويثيروا قرائحَهم بالثَّناء عليهم، فتشتدَّ عزائمُهم في النَّظم الرَّفيع، ولذلك عمدَ بعضُ مؤرِّخي الأدب من الأندلسيِّين في مصنَّفاتهم إلى تَتَبُّعِ سقطات شعراء المشرق، كالَّذي فعله ابنُ بسَّام حين اتَّهم طريقةَ أبي نواس في النَّظم، وألقى عليه اللَّوم في اختراع القياس، وقد وجدنا ابن بسَّام نفسَه يرفضُ آنفًا ذلك القياسَ حين نكب عن متابعة

(١٩) الذَّخيرة: ١/ ١ / ١٣ .

(٢٠) نفح الطِّيب: ٦/ ٣٨ .

المشرقيِّين، فاستهجنَ خلودَ قصائد امرئ القيس والنَّابغةِ وطَرَفةَ في الأذهان، باحثًا عمَّن يُنْسي اسْمَهُم ويُعَفِّي أثرَهم، فلمَّا وقف على شعر أبي نواس عابَه، وإنَّما قال ابنُ بسَّام ذلك مدفوعًا بأثر الإقصاءِ المشرقيِّ للأندلسيِّين، فكأنَّه يكيلُ لهم من بضاعتهم ذاتها، فيردُّها عليهم، وتراه إنْ ذكرَ بعضَ رجالهم بإحسانٍ لا يَدَّخِرُ في الآخرين سبيلاً للقول، مُتَتَبِّعًا اللَّمَمَ حتَّى يجعلَه كبائرَ، فَمِنْ قوله في نَهج أبي نواس: «وأمَّا أبو نُواس، فأوَّل النَّاس في خَرْمِ القياس، وذلك أنَّه ترك السِّيرة الأولى، ونكبَ عن الطَّريقة المثلى، وجعلَ الجدَّ هزلاً، والصَّعب سهلاً، فهَلهَلَ المسرَّدَ، وبَلبَلَ المنضَّدَ، وخَلخَلَ المنجَّدَ، وترك الدَّعائم، وبنى على الطَّامي والعائم ، وصادف الأفهامَ قد نَكلَتْ، وأسبابَ العربيَّة قد تخلخلَتْ وانحلَّتْ، والفصاحات الصَّحيحة قد سُئمَتْ ومُلَّت، فمال النَّاس إلى ما عرفوه، وعَلِقَتْ نفوسُهم بما أَلِفُوه، فتهادَوا شعرَه، وأغلوا سِعرَه، وشُغفوا بأسخفه، وكَلِفُوا بأضعفه»(٢١).

ولا يقتصر هذا الأمر على المصنِّفين الأندلسيِّين، إذ يظهر الشَّاعر الأندلسيُّ عائبًا على الشَّاعر المشرقيِّ أيضًا، ثمَّ يُلْمِحُ إلى مبادرة المشارقة بإقصاء الأندلسيِّين، وكأنَّه يريد أن يلقيَ اللَّوم على من بدأ هذا الصراعَ منَ المشارقة مُقْصيًا أو منتقصًا قَدْرَ الأدباء الأندلسيِّين، ليقولَ بعد الردِّ عليهم: «الجزاءُ من جِنْسِ العمل»، ونجدُ هذه القولةَ ذاتَها في قصة طويلة طريفة، قيل إنها جرت بين المتنبي والرَّماديِّ تذكرُها المصادر الأدبيُّة الأندلسيَّة(٢٢)، وسواء أَصَحَّتْ أم لم تصحّ، فإنَّ إثباتَ المصنِّفين الأندلسيِّين للعبارة السَّابقة في نهاية الخبر المذكور دليلٌ على استحضارهم ذلك التَّنازعَ الأدبيَّ، ومثوله في أذهانهم، وأسهم هذا الإقصاء في بروز ظاهرة أدبيَّة تجسَّدت في اختيال الشَّاعر الأندلسيِّ على الشَّاعر المشرقيِّ، فما الملامح العامَّة لهذا الاختيال؟.

(٢١) الذَّخيرة: ٤/ ١ / ٢٠٥ .

(٢٢) للتَّفصيل انظر نفح الطِّيب: ٤/ ٦١ . ٦٢ .

اختيال الشَّاعر الأندلسيِّ على الشَّاعر المشرقيِّ:

بعد أن رصد البحثُ موقفَ مؤرِّخي الأدب الأندلسيِّ من قضيَّة الإقصاء المشرقيِّ للأندلسيِّين، وما أثبتوه في مصنَّفاتهم من آثارها، يعرِّج على تمثيل ذلك الموقف في مظهرٍ جديد هو استعلاء الأديب الأندلسيِّ، وهذا الاستعلاءُ حصيدُ الخُيلاء المشرقيِّ الذي ادَّعى الأندلسيُّون أنَّه عصفَ بالمشرقيِّين، فتجاهلوا به قَدْرَ أدباء الأندلس.

يبدو الشَّاعر الأندلسيُّ مأخوذًا بشاعريَّته واثقًا من مَلَكَةِ الإبداع لديه، بل إنَّه لا يرى شعر المشرقيِّين في أمثلته العظيمة محاكيًا لما يأتي به، ولا نقف هنا على صحَّة هذا الزَّعم أو كذبه، إذ إنَّ الدَّافعَ إليه إبرازُ المقدرة الشِّعريَّة، واللافتُ للانتباه أنَّ جملةً من الشُّعراء الأندلسيِّين اعتمدوا هذا الموقف الدفاعيَّ، وإن ظلُّوا في قرارة الأمر مُعْجَبين بكثيرٍ من النَّماذج الأدبيَّة المشرقيَّة، إلا أنَّهم لا يلقُون السَّلَمَ بذلك كلَّ حينٍ، ويجدون أنفسَهم مدفوعين بإقصاء المشارقة لهم نحوَ الاعتزاز بالمقدرة الشعريَّة، مع اقتران هذا الاعتزاز بلبوسٍ من الخُيلاءِ عظيمٍ.

كانت أُولى ملامح هذا الاختيال في الموازنة بين شعراء المشرق والأندلس، ويجد شعراء الأندلس كثيراً من فحول شعراء المشرق عرضةً للانتقاص من المقدرة الشِّعريَّة، وإن وَجَبَ التَّنبيهُ على أنَّهم في الطَّبقة الأولى من الفحول في عُرْف النَّقد العربيِّ القديم، ومن هذا القبيل ما نجده في شعر ابن درَّاج القَسْطَلِّي من الاختيال بمكانته في ميدان الشِّعر(٢٣):

إنَّ امْرَأَ القَيْسِ فِي بَعْضٍ لَمُتَّهَمٌ ... وَفِي يَدَيْهِ لِوَاءُ الشِّعْرِ إنْ رَكِبا
والشِّعْرُ قَدْ أَسَرَ الأَعشى وقَيَّدَهُ ... خُبْرًا وَقَدْ قِيلَ والأَعْشى إذَا شَرِبا

(٢٣) ديوان ابن دراج القسطلّي: (أبو عمر أحمد بن محمّد ت ٤٢١هـ)، تحقيق د. محمود علي مكّي، المكتب الإسلاميّ، بيروت، ط٢، ١٣٨٩ هـ. ٢/ ٣٠٩ -٣١٠.

وكيفَ أَظْمـا وبحـرِي زَاخِـرٌ فِطنًـا إلى خيالٍ من الضَّحْضَاحِ قَدْ نَضَبا

يبدو أنَّ مثلَ هذه الدَّعوة نتجت ممَّا لاقاه الشَّاعر الأندلسيُّ من قضية المقايسة بالمثال الشِّعريِّ المشرقيِّ، ولذلك يعود الشَّاعر الأندلسيُّ إلى ذلك المثال الَّذي يُقاس به شعرُه لينتقصَ من مكانته التاريخيَّة، أو يهدمَ طرفًا من أركانه الشَّامخة.

ويعيب ابنُ هانئ الأندلسيُّ على المتنبي شعرَه، ويعتمد في ذلك رأي نفرٍ منَ الأندلسيِّين كابن بسَّام، الَّذي سبقَ أن ذكرتُ رأيَه في شعر المتنبي، ويقوِّضُ ابنُ هانئ منزلةَ ذلك المثالِ الشِّعريِّ المشرقيِّ، ويهدم قواعدَه(٢٤):

تنبَّــأ المتنَــبِّي فــيكُمُ عُصُــرا ولـو رأى رأيكـم في شـعرِه كفَـرا

مَهْــلاً فــلا المتنــبِّي بــالنَّبِيِّ ولا أعُــدُّ أمثالَــهُ في شِـعره السُّــوَرا

ومثلُ هذا الموقف نجده في شعر صفوان بن إدريس التُّجيبيِّ، الَّذي يزعمُ أنَّ قوافيَه أعلى مرتبةً من قوافي المتنبي، فيرفض نُبُوَّتَهُ المشرقيَّة(٢٥):

لـو جادَ فِكرُ ابنِ الحُسَينِ بمثلِهَـا صَـحَّت نُبُوَّتُـهُ لـدَى الشُّـعَرَاءِ

ولا ريب في أنَّ مثلَ هذا القول يدخلُ في باب المباهاة بالمقدرة الشِّعريَّة الأندلسيَّة، إلاَّ أنَّ فيه من التَّعالي على المثال الشِّعريِّ المشرقيِّ ما لا يخفى، ويتناوبُ الشُّعراء الخُيلاءَ في قصائدهم، حتىَّ غدا ذلك مَلْمَحًا واضحًا في الأدب الأندلسيِّ.

لا يدَّخر الشَّاعر الأندلسيُّ فحولَ شعراء المشرق في مفاخراته، ويجعلهم دونَه مكانةً في الشَّاعريَّة، وهذا النُّزوعُ تعبيرٌ عن بروز الشَّخصيَّة الأدبيَّة الأندلسيَّة، ولاسيَّما أنَّ القياسَ النَّقديَّ في الأندلس كثيراً ما كان يجري على الموازنة بين الشَّاعر الأندلسيِّ

(٢٤) تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ: (محمّد بن هانئ الأزديّ الأندلسيّ ت ٣٦٢هـ) د.زاهد علي، مطبعة المعارف، مصر، د.ت. ص ٣٣٠.

(٢٥) نفح الطِّيب: ٨/ ٣٩١.

وأعلام المشرقيِّين، فجاءت هذه الظَّاهرةُ تعبيراً عن محاولة الخلوص من تلك المقايسة بالتَّعالي على نماذجها وأمثلتها، نحوَ قولِ ابن عبد ربِّه(٢٦):

هنـا تَفْـنَى قَـوافي الشِّعـ ـــرِ في هـــذا الـــرَّوِيِّ
قَـواف أُلْبِسَــتْ حَلْيــاً مـــن الحُســـنِ البـــدِيِّ
تَعالَــتْ عــن جريــرٍ بــلْ زُهَيـــرٍ بـــلْ عَـــدِيِّ

يُظهِر انعقادُ هذه الموازنةِ بين الطَّرفين الأندلسيِّ والمشرقيِّ الجذورَ الخفيَّةَ لذلك التَّنازعِ الأدبيِّ الناتج من إقصاءِ المشارقة للأندلسيِّين، حتىَّ إنَّ الشَّاعرَ الأندلسيَّ الَّذي كان يُباهي أقرانَه بحفظ شعر المشرقيِّين صار يباهي المشرقَ بشعره، ويرى شعراءَ المشرق دونَه منزلةً، مهما بلغَ شأوُهم في تاريخ الأدب، وأخذ يَتَّهِمُ المشرقيِّين بالتَّقصير عن رِكاب الشِّعر؛ ومثلُ هذا الخطاب الشِّعريِّ كثيرٌ في شعرهم، ومنه قول ابن فُركون(٢٧):

أَتَتْـكَ علـى قُـرْبِ المَـدى عَرَبِيَّـةً لَبيـدٌ بَليـدٌ عَـنْ حُلاهـا وأَحْـوَصُ

وثمَّة دعوةٌ جاهليَّةٌ أطلقَها عنترةُ بن شدَّاد حين نظر فيمن قبلَه وتساءَل إنْ كانت العرب قد غادرَتْ شيئًا من معاني الشِّعر فتركَتْه لِلْخَلَفِ، وهي محورُ قولَتِه في معلَّقته المعروفة(٢٨):

هل غادرَ الشُّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّم؟

(٢٦) ديوان ابن عبد ربّه: ٢٥٩.

(٢٧) ديوان ابن فركون: (أبو الحسين بن أحمد بن سليمان ت٨٢٠هـ)، بتقديم وتعليق محمَّد بن شريفة، مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة،ط١، ١٩٨٧م. ص ٣٥٢.

(٢٨) ديوان عنترة: (عنترة بن شدّاد العبسيّ ٢٢ق. هـ)، طُبع بنفقة خليل الخوري، مطبعة الآداب، بيروت، ١٨٩٣ هـ. ٨٠ .

ويبدو أنَّ شعراءَ الأندلس وجدوا في هذه الدَّعوة أرضًا خصبةً للقول، حتَّى إنَّ كثيراً منهم اتَّخذها ذريعةً لإبراز مكانتِهِ الشِّعريَّة مستدركًا على عنترةَ قولَه، فَمِنْ صداها قولُ ابن زمرك(٢٩):

وَدَعَـوتُ أربـابَ البَيـانِ أُرِيهـمُ كَـمْ غـادرَ الشُّـعراءُ مِـنْ مُتَـرَدَّمِ

وعلى هذا النَّحوِ جرى ابنُ أبي خالد الإشبيليُّ في قوله(٣٠):

كـم غـادرَ الشُّـعراءُ مِـنْ مُتَـرَدَّمٍ ذُخِـرَتْ عَظائمُـهُ لخـيرِ مُعَظَّـمِ

ومثلُه قولُ أبي جعفر بن سعيد الأندلسيِّ(٣١):

وأيقنْـتُ أنَّ الـدَّهر لـيس براجـعٍ لتقديم عصرٍ أو وقوفٍ على حَدِّ

فكـلُّ أوانٍ فيـه أعـلامُ فَضْـله تـرادُفَ مـوجِ البحـر ردا إلى ردِّ

فكـم طيِّهـا مـن فائـتٍ مُتَـرَدَّمٍ يهزُّ بما قد أضمرَتْ معطفَ الصَّلْدِ

وفي الأبيات إشارةٌ إلى ردِّ قولةِ عنترةَ الَّتي سبقَ ذِكْرُها، ويتعاور الشُّعراء الأندلسيُّون ردَّ فضلِ المتقدِّم على المتأخِّر، والمشرقِ على المغرب، ويأتي ردُّهم مشبعًا بروح الإحساس بعظمة الإقليم الأندلسيِّ وعظمة شعرائه، وهذا ما يُلمَحُ في قول ابن سهل الأندلسيِّ في معرض الثَّناء على أحد بني قُطْرِه ورجالاتِ عصره، وهو أبو بكر بن البنَّاء، إذ تأخذه العزَّةُ بالمغرب على المشرق(٣٢):

بَثَثْـتَ بِـأُفْقِ الغَـرْبِ كُـلَّ غَرِيَبـةٍ مِـنَ الْقَـولِ يَشْـجَى الشَّـرْقُ مِنهـا وَيَشْـرَقُ

(٢٩) نفح الطِّيب: ١٠/ ٤٤.

(٣٠) نفح الطِّيب: ٥/ ٢٠٣.

(٣١) نفح الطِّيب: ٥/ ٦٠.

(٣٢) ديوان ابن سهل الأندلسيّ: (أبو إسحاق إبراهيم بن سهل ت ٦٤٩ هـ)، تقديم د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، ١٩٦٧م. ٢٤٨. الظَّالِعُ: مَنْ إذا مشى عَرَجَ وغَمَزَ في مَشْيِهِ، يُعْنِقُ: يسير سيراً مُنْبَسِطًا.

فَيَعْشُو لَهُ الأَعْشى إذا لاحَ نورُهُ وَيَجْري جَريرٌ ظالِعاً حينَ يُعْنِقُ

ويُثْني على آخرَ مِنْ بَلَدِيِّيه، فيقول(٣٣):

وَشِعْرُهُ الطائِلُ في حُسْنِهِ طالَ عَلى النَّابِغَةِ الجَعْدِي

ولا يجدُ لسان الدِّين بنُ الخطيب شعرَه أقلَّ قَدْرًا من شعر زهير بن أبي سُلمى، الَّذي هَرِمَ الزَّمان بشعره، أو عنترةَ الَّذي حار فيما يقولُه، فأخذ يبحث عمَّا غادرَهُ الشُّعراء ولم يتعاورُوه، ومِنْ أجْلِ ذلك نسبَ ابنُ الخطيب الفضيلةَ إلى نفسه في النَّظم، فقال مضاهيًا شعرَه بأشعار فحول المشرقِ من الأوَّلين(٣٤):

لَوْ قَالَ في هَرِمٍ زُهَيْرٌ مِثْلَهَا هَرِمَ الزَّمَانُ وَذِكْرُهُ لَمْ يَهْرَمِ

أَو مَرَّ عَنْتَرَةٌ عَلَيْهَا لَمْ يَقُلْ: «هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ»

وتأتي على هذا الغرار الموازنةُ في أشعارهم بين المشارقة والأندلسيِّين، وتتجلَّى ظاهرةُ اختيال الشَّاعر الأندلسيِّ على المشرقيِّ في لَبوسٍ من اتِّهام فحول شعراء المشرق بالتَّقصير، ولا يأتي ذِكْرُ الشَّاعر المشرقيِّ في مقام المساواة بين المَثيلَين أو النِّدَّين في كثيرٍ من الأحيان، كما يحشد الشَّاعر الأندلسيُّ للتَّدليل على سَبْقِه غُرَّةَ شعراء المشرق من قدماءٍ ومُحْدَثين، وتتمخَّض دلالة الخطاب الشِّعريِّ الأندلسيِّ عن معجم شعريٍّ حافلٍ بالتَّعالي والاختيال على المشارقة، حتَّى إنَّ المَثَلَ المشرقيَّ مُتَّهَمٌ لدى الشَّاعر الأندلسيِّ الَّذي أضحى يدَّعي لنفسه الحسن كلَّه، بعد أن كان يدينُ بالإعجاب للنُّموذج الشِّعري المشرقيِّ قديمِه وحديثِه، ويبدو الشَّاعر الأندلسيُّ في مَعْقِد الموازنات

(٣٣) ديوان ابن سهل الأندلسيّ: ١١٩.

(٣٤) ديوان لسان الدِّين بن الخطيب: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الغرناطي ت ٧٧٦هـ)، تحقيق د. محمَّد مفتاح، دار الثقافة ، المغرب، ١٩٨٩م، ٢/ ٥٤٠. وعجز البيت الثَّاني من مطلع معلَّقة عنترة المعروفة . انظر ديوان عنترة: ٨٠ .

مزهوا بذاته دائمًا، غير أنَّه ينوسُ أحيانًا بين طرفين متناقضين، طرفِ الاتِّهامِ للنُّموذج المشرقيِّ، وطرفِ الإعجاب به، وقد يجمعُ الطَّرفين معًا في موضعٍ واحدٍ من شعره، كالَّذي يُلْحَظُ في هذه الأبيات الَّتي يعقد فيها لسان الدِّين بنُ الخطيب الموازنةَ بين شعره وشعرِ فحولِ المشرقيِّين[٣٥]:

وَيُقِرُّ بالتَّقْصِيرِ عِنْدَ سَمَاعِهاَ رَبُّ الْقَصَائِدِ فِي بَنِي حَمْدَانِ
وَنَبَغْتُ فِي زَمَنٍ أَخِيرٍ أَهْلُهُ مَا ضَرَّ أَنِّي لَسْتُ مِنْ ذُبْيَانِ
مَا كُلُّ مَنْ نَظَمَ الْقَوافِيَ شَاعِرٌ أَوْ كُلُّ مَصْقُولِ الْغِرَارِ يَمَانِي

من الواضح أنَّ ابنَ الخطيب يتَّهم قصائدَ أبي فراس ويحكُمُها بالتَّقصير، غير أنَّه يرى نفسَه مجُيدًا في شعراء زمانه، وإنْ لم يكن من ذُبيان قبيلةِ النَّابغة، وهذا إقرار منه بالبدِّ لشاعرِ تلك القبيلةِ الفَحْلِ، ويشفُّ هذا النَّصُّ عن خبايا تلك العلاقة الأدبيَّة بين المشرق والمغرب.

ويذهب ابن هانئ الأندلسيُّ في بعض شعره إلى مثل ذلك، وتظهر في شعره لغةُ الاختيال على المثالِ الشِّعريِّ المشرقيِّ، فيدَّعي أنَّ ما استنبطه من جواهر القوافي، وسلَكَهُ في نظام شعره، لم يُتَحْ لغيرِه من فحول المشرق[٣٦]:

صُنْعٌ يؤلِّفُ من نظامِ كواكبٍ طلعتْ لغيرِ كُثَيِّرٍ والأحوصِ

ولا شكَّ في أنَّ الشَّاعر أراد المباهاةَ بمقدرته الشِّعريَّة، غير أنَّ تلك المباهاة اقترنت بالتَّعالي على شعر المشرقيِّين في نماذجه العظيمة، وجاء ذلك كلُّه إبرازًا لمكانة المغرب بسبب إقصاء المشرق له، حتَّى سِيقَت الحكاياتُ تأكيدًا لهذه المكانة واعتزازًا بها، وقد ذكر المقَّري: «أنَّ الرَّشيد هارون – رحمه الله – لمَّا حضرَ بين يديه بعضُ أهل المغرب قال:

(٣٥) ديوان لسان الدين بن الخطيب: ٢/ ٥٧٩.

(٣٦) تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ: ٣٨٨ .

يقال إنَّ الدُّنيا بمثابة طائرٍ ذَنَبُه المغرب، فقال الرَّجل: صدقُوا يا أميرَ المؤمنين، وإنَّه طاووس، فضحك أميرُ المؤمنين الرَّشيد، وتعجَّب من سرعة جواب الرَّجل وانتصاره لقطره»[٣٧]، وروايةُ الأصول الأدبيَّة لمثل هذه الأخبار – صحَّتْ أولم تَصِحّ – تأكيدٌ لِما كانَ من شأنِ ذلكَ التَّنافس البنَّاء في ميدان الإبداع الأدبيِّ.

من ذلك كلِّه يخلص البحثُ إلى النتائج الآتيَّة:

١– تمثِّلُ ظاهرة الإقصاء المذكورة جانبًا من علاقة الأدب الأندلسيِّ بالمشرق، وهذا الجانب مُنْتِجٌ مُثْمِرٌ، لما كان له من صلةٍ بحركة تأريخ الأدب الأندلسيِّ من جهة، وما أبدعه الشُّعراء الأندلسيُّون من شعرٍ في هذا المجال.

٢– أسهم التَّنازعُ على المكانة الشِّعريَّة بين المشرق والمغرب في الأدب الأندلسيِّ، في بروز الشخصيَّة الأدبيَّة الأندلسيَّة وتميُّزِها من المثال الشِّعريِّ المشرقيِّ.

٣– ظلَّ الشِّعر المشرقيُّ هاجسًا ماثلاً في ذهن النَّاقد والشَّاعر الأندلسيَّين، مع وجود الصِّراع الأدبيِّ الحضاريِّ، وكثيراً ما كان الشَّاعرُ والنَّاقدُ الأندلسيَّان ينوسان بين طرفي الإعجاب بالنُّموذج الشِّعريِّ المشرقيِّ حينًا، والانتصار للأدب الأندلسيِّ أحيانًا، ليتأرجح الإنتاج الأدبيُّ في الأندلس بين المذهبين الإبداعيِّ والاتِّباعيِّ، ولذلك نشأت هذه العلاقةُ الأدبيَّةُ المثيرةُ للجدل بين المشرق والمغرب.

مصادر البحث:

١– تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ (محمّد بن هانئ الأزديّ الأندلسيّ ت ٣٦٢هـ)، د. زاهد علي، مطبعة المعارف، مصر، د.ت.

٢– جذوة المقتبس: الحميديّ (أبو عبد الله محمّد بن أبي نصر الأندلسيّ ت٤٨٨هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ١٩٨٩م.

(٣٧) نفح الطِّيب: ١/ ٢٣٥.

٣– ديوان ابن درّاج القسطليّ (أبو عمر أحمد بن محمّد ت ٤٢١ هـ)، تحقيق: د. محمود علي مكّي، المكتب الإسلاميّ، بيروت، ط٢، ١٣٨٩ هـ.

٤– ديوان ابن سهل الأندلسيّ (أبو إسحاق إبراهيم بن سهل ت ٦٤٩ هـ)، تقديم د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، ١٩٦٧م.

٥– ديوان ابن عبد ربّه (أحمد بن أحمد بن عبد ربه ت ٣٢٨ هـ)، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٣م.

٦– ديوان عنترة (عنترة بن شدّاد العبسيّ ٢٢ق. هـ)، طُبع بنفقة خليل الخوري، مطبعة الآداب، بيروت، ١٨٩٣ هـ.

٧– ديوان ابن فركون (أبو الحسين بن أحمد بن سليمان ت٨٢٠ هـ): تقديم محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديميّة المملكة المغربيّة، ط١، ١٩٨٧م.

٨ – ديوان لسان الدِّين بن الخطيب، (أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٧٧٦ هـ)، تحقيق د. محمَّد مفتاح، دار الثقافة ، المغرب، ١٩٨٩م.

٩– الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسَّام (أبو الحسن علي بن بسَّام الشَّنتريني ٥٤٢ هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، الدَّار العربيَّة للكتاب، تونس، ١٩٧٥م.

١٠– المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية (أبو الخطَّاب عمر بن حسن ت ٦٣٣ هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرين، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٤م.

١١– المُغْرِب في حُلى المَغْرِب، ابن سعيد (أبو الحسن عليّ بن موسى الأندلسيّ ت ٦٨٥ هـ)، تحقيق: د.شوقي ضيف، دار المعارف، مصر ، ط٣، ١٩٦٤م .

١٢– نفح الطِّيب في غصن الأندلس الرَّطيب، المقَّري (أحمد بن محمَّد ت ١٠٤١ هـ)، تحقيق د. يوسف علي الطَّويل، د.مريم قاسم الطَّويل ، دار الكتب، بيروت، ١٩٩٥م.

١٣– هدية العارفين؛ أسماء المؤلِّفين وآثار المصنِّفين، إسماعيل بن محمَّد بن مير سالم البغداديّ ت ١٣٣٩ هـ ، إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٩٥١م.

١٤– يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر، الثَّعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمَّد ت ٤٢٩ هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٩٧٩م.

الجملة الحالية في مباحث البلاغيين
(البناء والدلالة)

د. عبد الجليل مصطفاوي(*)

إنَّ الناظر في مؤلفات البلاغيين العرب، ولا سيما عبد القاهر الجرجاني، يتبيَّنُ له أنَّ جهودهم جاءت مكمِّلة لآراء النحاة في كثير من قضايا النحو ومعانيه، كالتقديم والتأخير، والاستفهام، والتعريف والتنكير، والحذف، والاستثناء والقصر، والإثبات والنفي، وغيرها من أساليب علم المعاني. وقد اتسمت دراساتهم بالنظر إلى التراكيب ودلالاتها، وإلى ما تحمله العبارات من ظلال وإيحاءات، وما تحويه من شحنات أسلوبية دالَّة.

وسنحاول أن نتلمَّس ملامح ذلك التكامل في تناولنا للجملة الحالية **أنموذجًا** مشتركًا بين النحاة والبلاغيين؛ فقد تناولها النحاة في جانبها الوظيفي، وبيَّنوا أنواعها، وأحوالها. أمَّا عبد القاهر الجرجاني – ومن اهتدى به ممن جاؤوا بعده كالزمخشري، والسكَّاكي، وغيرهم – فقد حاول أن يفسِّر سرَّ ورودها مقترنة بالواو حينًا وعارية

(*) باحث في اللغة والأدب من الجزائر.

منها حينًا آخر، مع دقة هذا الأمر وصعوبته، كما يصرِّح في بحثه المتميز عن الجملة الحالية في مؤلَّفه دلائل الإعجاز[١].

إنَّ الجملة إذا كانت في موضع حال ترد تارة بالواو، وتارة بدونه. وهي في ذلك لا تخلو من إحدى حالتين، فإمَّا أن تكون اسمية أو فعلية. ونحن سندرسها على هَدْيِ ما كتبه البلاغيون، على هذا الأساس.

أولاً: الجملة الاسمية:

سندرس الجملة الاسمية ههنا بحسب الحالات التي ترد فيها، وهي كما يلي:

١– الجملة من مبتدأ وخبر:

إنَّ الغالب في الحال إذا كانت من مبتدأ وخبر أن تصحبها الواو[٢]، نحو قولنا: جاءني زيدٌ وعمرو أمامه، وأتاني وسيفُه على كتفه. ومن ذلك قول امرئ القيس[٣]:

أَيَقْتُلُنِي **وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي** وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

---

(١) خصَّص الشيخ عبد القاهر فصلاً مستقلاً للجملة الحالية في كتابه (دلائل الإعجاز) أسماه: «فروق في الحال له فضلُ تعلُّقٍ بالبلاغة». وقد عني البلاغيون بالحال التي تكون جملة وأهملوا ما كان منها مفردًا، يقول عبد القاهر: «اعلم أن أول فرق في الحال أنها تجيء مفرداً وجملة، والقصد ههنا إلى الجملة»، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفداء، الطبعة١، دمشق–١٩٨٣، ص١٤٢.

(٢) يُنظر دلائل الإعجاز، ص١٤٢ ومفتاح العلوم للسكاكي، المطبعة الأدبية بمصر، الطبعة١، ص١٤٩، ومن نحو المباني إلى نحو المعاني للدكتور محمد طاهر الحمصي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م، ص٥٠٧. وذكر القزويني أنَّه يجوز الأمران، إلاَّ أنَّ مجيء الواو أولى، يُنظر الإيضاح، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ص١٢٦.

(٣) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ص٣٣.

ومن التنزيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ **وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ** مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[٤]؛ فالمعنى، على رأي الزّمخشري: لو أنَّ الأشجار في كون حال البحر مداداً، وعلى رأي أبي حيان: أي حال كون البحر ممدودًا[٥].

٢– الجملة التي مبتدؤها ضمير منفصل:

إذا كان المبتدأ في الجملة الاسمية «ضمير ذي الحال لم يصلح بغير الواو البتَّة»[٦]؛ وذلك نحو قولنا: جاءني زيدٌ وهو راكبٌ، ورأيت زيدًا وهو جالسٌ، فلو تركت «الواو في شيء من ذلك لم يصلح»[٧]. ولعل المقصود بالصلاح ههنا الجانب الأسلوبي الجمالي الذي يوشِّي العبارة؛ فهي إن عريت من الواو فقدت كثيرًا من بهائها وسلاستها وانسيابها.

٣– الجملة التي خبرها ظرف مقدَّم:

إذا كان الخبر في الجملة الاسمية ظرفًا مقدَّمًا على مبتدئه كقولنا: عليه سيفٌ، وفي يده سوطٌ كثُر أن تجيء بغير واو[٨].وجوَّز الزّمخشري الأمرين جميعًا؛ أي إنَّ إيراد

(٤) سورة لقمان، الآية٢٧.

(٥) ينظر الكشَّاف للزمخشري، دار المعارف، بيروت، ج٣ ص٢١٥، وينظر أيضًا البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، طبع بعناية الشيخ عرفان العشا حسّونة، وراجعه صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م، ج٨ ص٤٢٠.

(٦) دلائل الإعجاز، ص١٤٢ وينظر الإيضاح، ص١٢٧.

(٧) دلائل الإعجاز، ص١٤٢ وينظر الإيضاح، ص١٢٧.

(٨) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤٢ والتبيان في علم البيان للزملكاني، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، ط١، بغداد، ص١٢٠ والإيضاح، ص١٢٧، و من نحو المباني إلى نحو المعاني، ص٥٠٧.

الواو أو الاستغناء عنها سواء. وتبعه في ذلك السكاكي الذي ذكر قوله تعالى ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ، وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ **وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ**﴾[٩] وعدَّ جملة (وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) – والتي خبرها ظرف مقدَّم– في موضع حال، في حين يرى الزمخشري أنَّ هذه الجملة صفة لقرية وأنّ الواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف والقياس أن تحذف هذه الواو كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ **لَهَا مُنْذِرُونَ**، ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[١٠]. وأنكر أبو حيان ما ذهب إليه الزمخشري من أن الجملة في موقع صفة؛ لأن أحدًا من النحاة لم يقل بذلك[١١]. ومن الأغراض البلاغية لهذه الجملة أنها «أفادت تخصيص صاحبها(قرية)»[١٢]، وممّا ورد من ذلك في موضع الحال قول بشَّار[١٣]:

إِذَا أَنْكَرَتْنِي بَلْدَةٌ أَوْ نَكِرْتُهَا خَرَجْتُ مَعَ البَازِي **عَلَيَّ سَوَادُ**

يعني: عَلَيَّ بقيّةٌ من الليل[١٤].

ومن ذلك أيضًا قول واثلة بن خليفة السَّدوسي[١٥]:

لَقَدْ صَبَرَتْ لِلذُّلِّ أَعْوَادُ مِنْبَرٍ تَقُومُ عَلَيْهَا، **فِي يَدَيْكَ قَضِيبُ**

---

(٩) سورة الحجر، الآيات٣-٤.

(١٠) سورة الشعراء، الآيات٢٠٨-٢٠٩. ينظر الكشاف، ج٢ص٣١٠ ومفتاح العلوم، ص١٤٩.

(١١)البحر المحيط، ج٦ص٤٦٦.

(١٢) من نحو المباني إلى نحو المعاني، ص٥١٨.

(١٣) ديوان بشَّار بن برد، نشره وقدَّم له وشرحه وأكمله محمَّد الطَّاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة- ١٣٧٦هـ، ج٣ص٤٩. وفيه: (نَهَضْتُ) بدل (خَرَجْتُ).

(١٤) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤٢ والتبيان في علم البيان، ص١٢٠ والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني، شرحه عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ص٢٠٧-٢٠٨.

(١٥) ينظر عيون الأخبار لابن قتيبة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ج٢ص٢٩٥ والبيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ج٢ص٣١٣.

فقوله: في يديك قضيبُ في موضع حال، وحُذفت الواو؛ لأنَّ الخبر ههنا ظرف.

٤– مجيء الجملة الاسمية بدون واو:

وقد تجيء الجملة الاسمية الواقعة حالاً بدون واو، إلاَّ أنَّ ذلك لا يطَّرد(١٦). ومنه قولهم: كلَّمته فوهُ إلى فِيَّ، ورجع عَوْدُه على بدئه. ومنه أيضًا قول الشاعر(١٧):

نَصَفَ النهَارُ **المَاءُ غَامِرُهُ** وَرَفِيقُهُ بِالغَيْبِ لاَ يَدْرِي

ومن ذلك ما أنشده الشيخ أبو علي الفارسي في الأَغفال(١٨) لسلامة بن جندل(١٩):

وَلَوْلاَ جَنَانُ اللَّيْلِ مَا آبَ عَامِرٌ إِلَى جَعْفَرٍ، **سِرْبَالُهُ لَمْ يُمَزَّقِ**

ومن ذلك أيضا قول الشاعر(٢٠):

ثُمَّ رَاحُوا عَبَقُ المِسْكِ بِهِمْ

وقول الشاعر(٢١):

---

(١٦) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤٣ والتبيان في علم البيان، ص١٢٠ والإيضاح، ص١٢٦.

(١٧) نسبه ابن السكيت للمسيَّب بن علس، ينظر إصلاح المنطق ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٢، مصر–١٩٥٦، ص٢٤١. قال ابن السكِّيت: «أراد انتصفَ النَّهارُ، والماءُ غامرُه لم يخرج، قال: ذكر غائصاً أنَّه غاص فانتصف النهار، فلم يخرج من الماء».

(١٨) يقول ابن النديم إنَّ لأبي علي الفارسي كتاباً اسمه (المسائل المصلحة) ويعرف بالأغفال، ينظر الفهرست، مكتبة خيَّاط، بيروت، ص٦٤.

(١٩) ديوان سلامة بن جندل، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، ط١، حلب–١٩٦٨، ص ١٧٨. وفي الديوان (لَمْ يُخَرَّق) بدل (لَمْ يُمَزَّق).

(٢٠) شطر أورده القزويني ولم يذكر صاحبه، ينظر الإيضاح، ص١٢٧.

(٢١) شطر أورده القزويني ولم يذكر صاحبه، ينظر الإيضاح، ص١٢٧.

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ **دَمْعُهَا لاَ يُرْقَأُ**

وقول الشاعر(٢٢):

إِذَا أَتَيْتَ أَبَا مَرْوَانَ تَسْأَلُهُ وَجَدْتَهُ **حَاضِرَاهُ الجُودُ وَالكَرَمُ**

وتقديم الخبر في جملة (حَاضِرَاهُ الجُودُ وَالكَرَمُ) هو الذي حسَّن الاستغناء عن الواو في هذه الجملة الحالية(٢٣).

ومن ذلك أيضًا قول الفرزدق(٢٤):

فَقُلْتُ عَسَى أَنْ تُبْصِرِينِي **كَأَنَّمَا** بَنِيَّ **حَوَالِيَّ الأُسُودُ الحَوَارِدُ**

فقوله: كأنَّمَا بَنِيَّ... إلى آخره في موضع «الحال من غير شبهة، ولو أنَّك تركت (كأنَّ) فقلت: عسى أن تبصريني بَنِيَّ حواليَّ كالأسود رأيته لا يحسُن حُسْنَه الآن، ورأيت الكلام يقتضي الواو، كقولك: عسى أن تبصريني، وبنيَّ حواليَّ كالأسود الحوارد»(٢٥).

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر(٢٦):

وَاللهُ يُبْقِيكَ لَنَا سَالِمًا **بُرْدَاكَ تَبْجِيلٌ** وَتَعْظِيمُ

فقوله: برداك تبجيل حال ثانية، وممَّا حسَّن مجيئها بلا واو الحال المفردة (سالمًا)

(٢٢) نسبه البلاغيون إلى الأخطل ولم أعثر عليه في ديوانه.

(٢٣) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤٤ والتبيان في علم البيان، ص١٢٠.

(٢٤) ديوان الفرزدق، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي، مطبعة الصاوي، مصر،ط٢، ج١ص١٧٢. وفيه (فَإِنِّي عَسَى) بدل (فقلت عسى) و(اللَّوابدُ) بدل (الحَوارِدُ). جاء في اللسان، مج٢ص٨٢٥ «ورجلٌ حَرِدٌ وحارِدٌ: غضبان».

(٢٥) دلائل الإعجاز، ص١٥٠. وينظر التبيان في علم البيان، ص١٢٣ والتلخيص، ص٢٠٨.

(٢٦) نسبه عبد القاهر الجرجاني إلى ابن الرومي ولم أجده في ديوانه ينظر دلائل الإعجاز، ص١٥٠.

قبلها؛ لأنَّنا لو قلنا: «والله يبقيك برداك تبجيل لم يكن شيئًا»[٢٧].

ذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني– في ردِّه على من حاجَّه بقوله السابق أنَّ الغالب في الجملة من مبتدأ وخبر أن تقترن بالواو، وهي في هذه الأمثلة مجردة منها– أنَّ القياس والأصل أن لا تجيء «جملة من مبتدأ وخبر حالاً إلا مع الواو، وأمَّا الذي جاء من ذلك فسبيله سبيل الشيء يخرج عن أصله وقياسه. والظاهر فيه بضرب من التأويل ونوع من التشبيه. فقولهم (كَلَّمْتُهُ فُوهُ إِلَى فِيَّ) إنَّما حسُن بغير واو من أجل أنَّ المعنى: كلَّمتُه مُشافِهًا، وكذلك قولهم (رَجَعَ عَوْدُهُ عَلَى بَدْئِهِ) إنَّما جاء الرفع فيه والابتداء من غير واو؛ لأنَّ المعنى رجع ذاهبًا في طريقه الذي جاء فيه. وأمَّا قوله (وَجَدْتُهُ حَاضِرَاهُ الجُودُ وَالكَرَمُ)؛ فلأنَّ تقديم الخبر الذي هو (حَاضِرَاهُ) يجعله كأنَّه قال: وجدته حاضرًا عنده الجود والكرم... ويدلُّ على أن ليس مجيء الجملة من المبتدأ والخبر حالاً بغير الواو أصلاً، قِلَّتُه، وأنَّه لا يجيء إلاَّ في الشيء بعد الشيء. هذا ويجوز أن يكون ما جاء من ذلك إنَّما جاء على إرادة الواو، كما جاء الماضي على إرادة (قد)»[٢٨]. وقد عدَّ عبد القاهر الأمر ههنا ضربًا من الحمل على المعنى الذي يطَّرد في كلام العرب.

ثانيًا: الجملة الفعلية:

إنَّ الجملة الفعليّة الواقعة حالاً لا تخلو من أن يكون فعلها مضارعًا أو ماضيًا، ولكلِّ حالة مقاييسها وضوابطها، قد حدَّدها البلاغيون كما يلي:

١– الجملة ذات الفعل المضارع:

إذا كان فعلها مضارعًا فإنَّه إمَّا أن يكون مثبتًا أو منفيًّا. فإذا كان مثبتًا «لم يكد يجيء بالواو، بل ترى الكلام على مجيئها عارية من الواو كقولك: جاءني زيدٌ يسعى غلامُه بين يديه»[٢٩].

---

(٢٧) دلائل الإعجاز، ص١٥١.

(٢٨) دلائل الإعجاز، ص١٥٤.

(٢٩) دلائل الإعجاز، ص١٤٤. وينظر أيضًا من نحو المباني إلى نحو المعاني، ص٥٠٧.

ومن ذلك قول علقمة[٣٠]:

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَّحْلِ **يَسْفَعُنِي** **يــومٌ** قُدَيْدِيَـةَ الجَـوْزَاءِ مَسْمُـومُ

فقوله: يسفعني يوم، جملة فعلية في موضع حال، وقد خلت من الواو؛ لأنَّ فعلها مضارع مثبت. ومن التنزيل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥]. قال أبو حيان: «يَعْمَهُونَ: جملة في موضع الحال، نصب على الحال، إما من الضمير في(يَمُدُّهُمْ) وإما من الضمير في(طُغْيَانِهِمْ) لأنه مصدر مضاف للفاعل»[٣١]. والظاهر من كلام أبي حيان أن المنهج النحوي هو المسيطر على رأيه.

وأمَّا قول عبد الله بن همَّام السلولي[٣٢]:

فَلَمَّـــا خَشِيـــتُ أَظَافِيرَهُـــمْ نَجَـــوْتُ، وَأَرْهَنُهُـــمْ مَالِكـــًا

وما شبَّهوه به من قولهم: قُمْتُ وَأَصُكُّ وَجْهَهُ، فالواو فيهما ليست للحال وليس «المعنى نجوت راهنًا، وقمت صاكًّا، ولكن أرهَنُ وأصكُّ حكاية حال مثل قوله[٣٣]:

وَلَقَـدْ أَمُـرُّ عَلَـى اللَّئِيـمِ يَسُبُّـنِي فَمَضَـيْتُ، ثُمَّ قُلْـتُ لاَ يَعْنِيـنِي

---

(٣٠) ديوان علقمة الفحل، تحقيق لطفي الصَّقَّال ودرِّية الخطيب، مراجعة فخر الدين قباوة، دار الكتاب العربي، ط١، حلب- ١٩٦٩م، ص٧٣. والشطر الثاني في الديوان كما يلي (يَوْمٌ تَجِيءُ بِهِ الجَوْزَاءُ مَسْمُومُ).

(٣١) البحر المحيط، ج١ص١١٦.

(٣٢) في لسان العرب (أَرْهَنْتُهُمْ) بدل (أَرْهَنُهُمْ) ينظر لسان العرب لابن منظور، دار صادر- بيروت،١٩٥٦م مج١٣ص١٨٨. وعلى هذه الرواية تكون الواو للعطف.

(٣٣) ذكر سيبويه أنَّ البيت لرجل من بني سلول، ينظر الكتاب، تحقيق محمد عبد السلام هارون،عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ج٣ص٢٤. ولم ينسبه المبرِّد إلى أحد. ينظر الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، دار نهضة مصر، ج٣ص٨٠.

فكما أنَّ (أمرُّ) ههنا في معنى (مَرَرْتُ) كذلك يكون (أَرْهَنُ وَأَصُكُّ) هناك في معنى(رَهَنْتُ وَصَكَكْتُ)»[٣٤].

وقد علَّل الشيخ عبد القاهر ذلك بكون الفاء تجيء مكان الواو في مثل هذا، كما في حديث عبد الله بن عتيك عند دخوله على أبي رافع اليهودي «وهو في حصنه، فقال: فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع. فقال: من هذا؟ فأهويتُ نحو الصَّوت، فأضربُه بالسَّيف وأنا دهِشٌ»[٣٥]. فكما أنّ (أَضْرِبُهُ) مضارع قد عطف بالفاء على ماض؛ لأنَّه في المعنى ماض كذلك «يكون أرهنهم معطوفًا على الماضي قبله. وكما لا يُشكُّ في أنَّ المعنى في الخبر(فَأَهْوَيْتُ فَضَرَبْتُ) كذلك يكون المعنى في البيت: نَجَوْتُ وَرَهَنْتُ»[٣٦].

وإذا كان الفعل المضارع منفيًّا جاز فيه الأمران[٣٧]. فممَّا جاء بالواو قولهم في المثل: كُنْتُ وَلاَ أُخَشَّى بِالذِّئْبِ[٣٨]. وقول مسكين الدَّارمي[٣٩]:

---

(٣٤) دلائل الإعجاز، ص١٤٥-١٤٦. عدّ بعضهم الواو ههنا استئنافية وما بعدها مبتدأ محذوف والتقدير: وأنا أرهنهم وأنا أصكُّ، ينظر الإيضاح، ص ١٢٣.

(٣٥) دلائل الإعجاز، ص١٤٦. والرواية عند الطبري: «فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، قلت: أبا رافع، قال من هذا؟ قال: فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف وأنا دَهِش»، تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢،ج٢ص٤٩٤.

(٣٦) دلائل الإعجاز، ص١٤٦.

(٣٧) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤١ والتبيان في علم البيان، ص١٢١ والتلخيص، ص٢٠١، ومن نحو المباني إلى نحو المعاني، ص٥٠٧.

(٣٨) ينظر مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ج٢ص١٨٠. ونصُّ المثل: «لقد كنتُ وما أُخشَّى بالذئب، فاليوم قيل: الذئبَ الذئبَ. قال الأصمعي: أصله أنَّ الرجل يطول عمره، فيخرف إلى أن يُخوَّفَ بالذئب».

(٣٩) ينظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت – ١٩٥٦م، ج٢٠ص٢٢١. والوَرِقُ: الدراهم المضروبة، ج أوراق ووِرَاق، ينظر اللسان.

أَكْسَبَتْــهُ الــوَرِقُ البِــيضُ أَبــًا وَلَقَــدْ كَــانَ **وَلاَ يُــدْعَى لأَبْ**

وقول مالك بن رفيع[٤٠]:

أَتَــانِي مُصْعَــبٌ وَبَنُــو أَبِيــهِ فَــأَيْنَ أَحِيــدُ عَنْهُــمْ لاَ أَحِيــدُ

أَقَــادُوا مِــنْ دَمِــي وَتَوَعَّــدُونِي وَكُنْــتُ **وَمَــا يُنَهْنِهُنِــي الوَعِيــدُ**

فـ(كان) في كل ما ذكرنا تامة «والجملة الداخل عليها الواو في موضع حال. ألا ترى أنَّ المعنى: وُجِدت غير خاش للذئب، ولقد وجد غير مدعو لأب، ووُجدت غير مُنَهْنَهٍ بالوعيد وغير مُبال به. ولا معنى لجعلها ناقصة وجعل الواو مزيدة»[٤١].

وممَّا جاء من المضارع المنفي بغير واو[٤٢] قول عكرشة الضبي[٤٣]:

مَضَوْا **لاَ يُرِيــدُونَ الــرَّوَاحَ** وَغَــالَهُمْ مِنَ الدَّهْرِ أَسْبَابٌ جَرَيْنَ عَلَى قَدْرِ

فقوله: لا يريدون الرواح في موقع حال، والمعنى: مضوا تلك حالهم.

ومن ذلك قول أعشى همدان[٤٤]:

أَتَيْنَــا أَصْــفَهَانَ فَهَزَّلَتْنَــا وَكُنَّــا قَبْــلَ ذَلِــكَ فِي نَعِيــمِ

وَكَــانَ سَفَاهَــةً مِــنِّي وَجَهْــلاً مَسِيــرِي **لاَ أَسِيــرُ إِلَــى حَمِيــمِ**

---

(٤٠) ينظر ذيل الأمالي لأبي علي القالي، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، ط١، مصر ١٣٢٤هـ. والرواية فيه:

بَغَــانِي مُصْــعَبٌ وَبَنُــو أَبِيــهِ فَــأَيْنَ أَحِيــدُ مِــنْهُمْ لاَ أَحِيــدُ

(٤١) دلائل الإعجاز، ص١٤٨.

(٤٢) نبَّه الشيخ عبد القاهر ههنا على دقة هذا الأمر، وقال إنَّه لا يهتدي إلى موضعه إلاَّ من كان صحيح الطبع، ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤٩ وينظر التبيان في علم البيان، ص١٢٢.

(٤٣) هو عكرشة الضبِّي، ينظر شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد المرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر–١٩٣٧م، ج٣ص١٠٥٥.

(٤٤) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، ويُكنَّى أبا المصبَّح، ينظر الأغاني، ج٦ص٣٣.

فقوله (لاَ أَسِيرُ إِلَى حَمِيمٍ) في موقع «حال؛ فكأنَّه قال: وكان سفاهةً منِّي وجهلاً أنْ سرتُ غير سائر إلى حميم، وأنْ ذهبتُ غير متوجِّهٍ إلى قريب»(٤٥).

وجعل الزمخشري، وبعده القزويني، جملة ﴿لاَ نُؤْمِنُ﴾ في قوله ﷻ ﴿وَمَا لَنَا **لا نُؤْمِنُ** بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحَقِّ، وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾[المائدة: ٨٤]، في موضع «حال بمعنى غير مؤمنين كقولك: مالك قائمًا»(٤٦).

١– الجملة ذات الفعل الماضي:

أمّا إذا كان فعلها ماضيًا فإنها تجيء تارة بالواو وتارة أخرى بدونها(٤٧). والماضي لا يقع حالاً إلا مع (قد) مُظهَرةً أو مقدَّرة(٤٨).

فممَّا جاء بالواو قولنا: أتاني وقد جهده السَّيرُ، وقول امرئ القيس(٤٩):

أَيَقْتُلُنِي **وَقَدْ شَغَفْتُ فُؤَادَهَا** كَمَا شَغَفَ المَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي

والمعنى: أيقتلني في حال شغفي لقلبها. وقوله أيضًا(٥٠):

فَجِئْتُ **وَقَدْ نَضَتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا** لَدَى السِّتْرِ إِلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ

والمعنى: جئت وهي تنضو ثيابها استعدادًا للنوم.

---

(٤٥) دلائل الإعجاز، ص١٤٨.

(٤٦) الكشَّاف، ج١ص٣٦٠.

(٤٧) ذكر الشيخ عبد القاهر أن مجيء الجملة بالواو هو الكثير الشائع، ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤٩، في حين يرى السكَّاكي أنَّ الأرجح ورودها بدون واو، ينظر مفتاح العلوم، ص ١٤٩. ولم يرجِّح القزويني واحدًا من الأمرين، ينظر الإيضاح، ص١٢٥.

(٤٨) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤٩ والتبيان في علم البيان، ص١٢٢، ومن نحو المباني إلى نحو المعاني، ص ٥٠٨.

(٤٩) ديوان امرئ القيس، ص٣٣. والمهنوءة: الناقةُ تطلى بالقطران، فإنَّها في هذه الحالة قد يُغشى عليها.

(٥٠) ديوان امرئ القيس، ص١٤.

وممَّا جاء في التنزيل من ذلك قوله تعالى ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، **وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ**، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. والمعنى «أن تكون له جنة وقد أصابه الكبر»(٥١). قال أبو حيان: «الظاهر أن الواو للحال، و(قد) مقدَّرة؛ أي وقد أصابه الكبر، كقوله ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] ﴿وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا﴾ [آل عمران: ١٦٨]؛ أي: وقد كنتم، وقد قعدوا، وقيل معناه: ويصيبه، فعطف الماضي على المضارع لوضعه موضعه»(٥٢).

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾[نوح: ١٣- ١٤]. يقول الزمخشري إنَّ جملة ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوارًا﴾ في موضع حال «كأنَّه قال مالكم لا تؤمنون بالله، والحال هذه، وهي حال مُوجبة للإيمان»(٥٣). وقال أبو حيان: «جملة حالية تحمل على الإيمان بالله وإفراده بالعبادة؛ إذ في هذه الجملة الحالية التنبيه على تدريج الإنسان في أطوار لا يمكن أن تكون إلا من خلقه تعالى»(٥٤).

وقد عدَّ القزويني المضارع المجزوم بلم ولما من هذا القبيل؛ لأنَّه في معنى الماضي(٥٥). وذكر من ذلك قوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ **وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ [مريم ١٩- ٢٠]، وقوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ **وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ**، مَسَّتْهُمُ

(٥١) الكشاف، ج١ص١٦٢.

(٥٢) البحر المحيط، ج٢ص٦٧٢-٦٧٣.

(٥٣) الكشاف، ج٤ ص١٤٢.

(٥٤) البحر المحيط، ج١٠ص٢٨٣.

(٥٥) ينظر التلخيص، ص٢٠٢-٢٠٣ والإيضاح، ص١٢٥.

البَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقول كعب(٥٦):

لاَ تَأْخُـذَنِّي بِـأَقْوَالِ الوُشَـاةِ **وَلَـمْ أُذْنِبْ**، وَإِنْ كَثُرَتْ عَنِّي الأَقَاوِيلُ

وممَّا جاء من الماضي بغير واو قول العرب: أتاني ذهب عقله؛ أي أتاني قد ذهب عقله(٥٧). ومنه قول حندج(٥٨):

مَتَى أَرَى الصُّبْحَ **قَدْ لاَحَتْ مَخَايِلُهُ** وَاللَّيْـلَ **قَـدْ مُزِّقَـتْ عَنْـهُ السَّرَابِيـلُ**

فقوله (قَدْ لاَحَتْ مَخَايِلُهُ) و(قَدْ مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرَابِيلُ) جملتان في موقع حال، والمعنى أنَّ الليل استطال على الشاعر، فأصبح يتمنَّى رؤية الصبح على تلك الحال التي وصفه بها وكذلك الليل. ونحوه قول الآخر(٥٩):

فَآبـــُوا بِالرِّمَـــاحِ مُكَسَّـــرَاتٍ وَأُبْنَـــا بِالسُّيُـــوفِ **قَـــدِ انْحَنَيْنَـــا**

فقوله (قَدِ انْحَنَيْنَا) جملة في موقع حال من السيوف، والمعنى أنَّ الأعداء قد عادوا بالرماح مكسَّرات، وعدنا بالسيوف منحنيةً من شدة الطعان.

ومن اللطيف في هذا، كما يرى الشيخ عبد القاهر، قول الشاعر(٦٠):

يَمْشُونَ **قَدْ كَسَرُوا الجُفُونَ** إِلَى الوَغَى مُتَبَسِّمِيـــنَ وَفِيهِـــمُ اسْتِبْشَـــارُ

---

(٥٦) ديوان كعب بن زهير، شرحه الإمام أبو سعيد الحسن السكَّري، مطبعة دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة –١٩٥٠م، ص٢٠.

(٥٧) ينظر معاني القرآن للفرَّاء، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، ط١، ١٩٨٠م، ج١ص٢٨٢.

(٥٨) ينظر الأمالي لأبي علي القالي، مطبعة دار الكتب، ط٢، القاهرة –١٩٢٦م، ج١ص٩٩.

(٥٩) هو عبد الله الشارق بن عبد العُزَّى الجهني، ينظر شرح ديوان الحماسة، ج١ص٤٤٢ و٤٤٩.

(٦٠) ينظر شعر الخوارج، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص١١٦.

فقوله (قَدْ كَسَرُوا الجُفُونَ) جملة في موضع حال، والمعنى أنهم يمشون إلى الوغى وتلك حالهم. ومنه قول الشاعر(٦١):

وَإِنِّي لَتَعْـــرُونِي لِذِكْـــرَاكِ هَـــزَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ العُصْفُورُ **بَلَّلَهُ القَطْرُ**

فقوله (بَلَّلَهُ القَطْرُ) في موقع حال، والمعنى ظاهر.

ومن التنزيل قوله تعالى ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ **قَدْ قُدِرَ**، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾(٦٢). فقوله (قَدْ قُدِرَ) في موقع حال؛ أي: فالتقى ماء السماء بماء الأرض على حال قد قدَّرها الله كيف شاء(٦٣).

وقد عدَّ القزويني من هذا القبيل أيضًا المضارع المجزوم بلم؛ لأنَّه في معنى الماضي(٦٤). وذكر لذلك قوله تعالى ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ **وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ**، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾[آل عمران: ١٧٤]، وقوله تعالى ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ **لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَى اللَّهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ**﴾[الأحزاب: ٢٥]. قال أبو حيان: «بِغَيْظِهِمْ: فهو حال، والباء للمصاحبة؛ و(لَمْ يَنَالُوا): حال ثانية، أو من الضمير في: بِغَيْظِهِمْ، فيكون حالاً متداخلة»(٦٥). وذكر أيضًا قول امرئ القيس(٦٦):

فَأَدْرَكَ **لَـمْ يَجْهـدْ، وَلَـمْ يَـثْنِ شَـأْوَهُ** يَمُـرُّ كَخُـدرُوفِ الوَلِيـدِ المُثَقَّـبِ

(٦١) بيتٌ ذكره القزويني ولم ينسبه إلى أحد، ينظر الإيضاح، ص١٢٥.

(٦٢) سورة القمر، الآيات١١-١٣.

(٦٣) ينظر الكشَّاف، ج٤ص٤٥.

(٦٤) ينظر التلخيص، ص٢٠٣-٢٠٤ والإيضاح، ص١٢٥-١٢٦.

(٦٥) البحر المحيط، ج٨ ص٤٦٩.

(٦٦) ديوان امرئ القيس، ص٥١.

وقول زهير(٦٧):

كَـأَنَّ فُتَـاتَ العِهْـنِ فِي كُـلِّ مَنْـزِلٍ نَـزَلْنَ بِـهِ حَـبُّ الفَنَـا **لَـمْ يُحَطَّـمِ**

أما إذا كانت الجملة الواقعة حالاً **مصدّرة بليس** فالأكثر الأشيع أن تأتي بالواو، لكنَّها قد تأتي عارية منها؛ فتكون حينئذ ألطف وأدخل في البلاغة وأحسن(٦٨). تقول: أتاني وليس عليه ثوبٌ، ورأيته وليس معه غيره، وتركته ليس معه أحدٌ، وجاءني ليس يحمل شيئًا. وروى الشيخ عبد القاهر من هذا قول الشاعر(٦٩):

لَنَـــا فَـــتًى وَاحَبَّـــذَا الأَفْتَـــاءُ تَعْرِفُـــهُ الأَرْسَـــانُ وَالـــدِّلاَءُ

إِذَا جَـــرَى فِي كَفِّـــهِ الرَّشَـــاءُ خَلَّى القَلِيـبَ **لَيْـسَ فِيـهِ المَـاءُ**

ومن التنزيل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ **وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ**، إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾[البقرة: ٢٦٧]؛ فقوله ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ في موقع الحال ومعناه «وحالكم أنَّكم لا تأخذونه في حقوقكم»(٧٠). وقدَّر أبو حيان أن تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، أو أن تكون الواو للحال(٧١).

---

(٦٧) ديوان زهير، شرحه أحمد أبو العباس ثعلب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة –١٩٤٩م، ص١٢. والفنا: ج.الفناة وهو عنب الثعلب.

(٦٨) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤٩ ومفتاح العلوم، ص١٥٠ والتبيان في علم البيان، ص١٢٣.

(٦٩) ذكر الشيخ عبد القاهر أنَّ البيتين لأعرابي ولم يذكر اسمه، ينظر دلائل الإعجاز، ص١٤٩–١٥٠. وفي مفتاح العلوم (لَيْسَ فِيهِ مَاءُ). والرَّشاء: الحبل، والقَليب: البئر، وقيل البئر القديمة.

(٧٠) الكشاف، ج١ص١٦٢.

(٧١) ينظر البحر المحيط، ج٢ص٦٨٠.

ثالثًا: أسباب المجيء بالواو أو الاستغناء عنها:

لقد حاول البلاغيّون تفسيرَ أسباب مجيء الجمل الواقعة حالاً بالواو أحيانًا وبدونها في أحيان أخرى، وتلمُّسَ أسرار ذلك ولطائفه. حاولوا ذلك مع إدراكهم صعوبة هذا الأمر، ودقَّته؛ ذلك لأنَّ «الطريق إليه غير مسلوك، والجهة التي منها تعرف غير معروفة»(٧٢). ولعلّ مفتاح السر الذي اهتدى إليه البلاغيون هو الانطلاق من حيث يجب الانطلاق؛ أي إنَّه ينبغي العودة إلى الحال المفردة لتبيُّن معالم هذا الطريق ومسالكه الملتوية.

إنَّ الأصل في الحال المفردة، سواء أكانت منْتَقلة أم مؤكِّدة(٧٣)، أن تكون بغير واو؛ ذلك لأنَّها في المعنى حكم على صاحبها كالخبر. فالخبر ينقسم إلى خبر يكون جزءًا من الجملة ولا تتمُّ الفائدة دونه، وخبر ليس كذلك ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له. فالأوَّل خبر المبتدأ كمنطلق في قولنا: زيدٌ منطلقٌ، والفعل في قولنا: خرج زيد. فكلُّ واحد من هذين الخبرين جزء أساسي من الجملة.

وأمَّا النوع الثاني من الخبر فهو الحال كقولنا: جاءني زيدٌ راكبًا، وذلك لأنَّ «الحال خبر في الحقيقة، من حيث إنَّك تثبت بها المعنى لِذِي الحال، كما تثبت بالخبر للمبتدأ، وبالفعل للفاعل؛ ألا تراك قد أثبت الركوب في قولك: جاءني زيدٌ راكبًا، لزيد. إلاَّ أنَّ الفرق أنَّك جئت به لتزيد معنى في إخبارك عنه بالمجيء، وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه، ولم تجرِّد إثباتك للركوب، ولم تباشره به ابتداء، بل ابتدأت فأثبت المجيء، ثم

---

(٧٢) دلائل الإعجاز، ص١٥١.

(٧٣) إنَّ معنى الانتقال في الحال ألاَّ تكون مُلازمة للمتصف نحو جاء زيد راكباً؛ فـ(راكباً) وصف منتقل، وذلك لجواز انفكاكه عن (زيد) بأن يجيء ماشياً. أمَّا الحال المؤكِّدة فإنَّها ما أكَّدت عاملها مثل قوله تعالى ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ **مُدْبِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥]، ينظر شرح ابن عقيل، شرحه محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، ج١ص٦٢٦ و٦٥٣.

وصلت به الركوب، فالتبس به الإثبات على سبيل التَّبَع لغيره، وبشرط أن يكون في صلته. وأمَّا في الخبر المطلق نحو: زيدٌ منطلقٌ وخرج عمرٌو، فإنَّك أثبتَّ المعنى إثباتًا جرَّدته له، وجعلته يباشره من غير واسطة ومن غير أن تتسبَّب بغيره إليه»[٧٤].

ثم إنَّ الحال، فضلاً عمَّا ذكره الشيخ عبد القاهر، بمثابة وصف لصاحبها كالنعت[٧٥]. ولما كان كل من الخبر والنعت لا يحتاج إلى واسطة تجمع بينه وبين المخْبَر عنه والموصوف به؛ لأنَّ قوَّة التعلُّق المعنوي بينهما تُغنِي عن تكلُّف تعلُّق آخر[٧٦]، وكانت الحال شبيهة بهما، استغنت هي الأخرى عن رابط يجمع بينها وبين صاحبها.

وإذا تبيَّن هذا أدركنا أنَّ الأصل أيضًا في الجملة، إذا وقعت موقع الحال، ألاّ يدخلها الواو[٧٧]. فإذا قلنا: جاءني زيدٌ يُسرعُ وأتاني عمرٌو قد هدَّه السيرُ، كان ذلك بمنزلة قولنا: جاءني زيدٌ مسرعًا، وأتاني عمرٌو مهدودًا بالسّيرِ؛ ولذا استغنت الجملتان عن الرابط لقوَّة العلاقة بينها وبين ذي الحال. ومن ههنا يمكن القول إنَّ الجملة إذا امتنعت من الواو فذلك لأنَّنا ضممنا الفعل الواقع في صدرها إلى الفعل الأول، وقَصَدنا إفادة إثبات واحد[٧٨]. وهكذا قول علقمة[٧٩]:

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يَـومٌ قُدَيْدِيمَـةَ الجَـوْزَاءِ مَسْمُـومُ

(٧٤) دلائل الإعجاز، ص١٥١.

(٧٥) ينظر التلخيص، ص١٩٦-١٩٧ والإيضاح، ص١٢٢.

(٧٦) ينظر مفتاح العلوم، ص١٤٩.

(٧٧) ينظر مفتاح العلوم، ص١٤٩.

(٧٨) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٥١ والتبيان في علم البيان، ص١٢٣.

(٧٩) ديوان علقمة، ص٧٣.

فكأنه قال: وقد علوتُ قتود الرّحل بارزًا للشمس ضاحيًا(٨٠).

وكذلك قول حندج بن حندج(٨١):

مَتَى أَرَى الصُّبْحَ قَدْ لاَحَتْ مَخَايِلُهُ وَاللَّيلَ قَدْ مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرابِيلُ

فهو في معنى: متى أرى الصبح باديًا، لائحًا، بيِّنًا، متجلِّيًا(٨٢).

وكذلك قولهم (رَجَعَ عَوْدُهُ عَلَى بَدْئِهِ) بمنزلة: رجع ذاهبًا في طريقه الذي جاء فيه. وعلى هذا يكون القياس في كل ما استغنى عن الواو؛ لأنَّنا كلَّما استطعنا أن نُنزِّل الجملة منزلة المفرد كان الغالب فيها أن تجيء بدون واو. ويمكن أن تُنَزَّل الجملة المستغنية عن الواو منزلة الجزاء الذي يَستغني عن الفاء؛ لأنَّه من شأنه أن يرتبط بالشرط من غير رابط كما في قولنا: إن تُعطني أشكرْك(٨٣).

وإذا جاءت الجملة حالاً ثمَّ اقتضت الواو، فذلك لأنَّنا أردنا أن نستأنف بها خبرًا آخر، غير قاصدين إلى ضمِّها إلى الفعل الأول في الإثبات – وهذا بخلاف ما كان مع الجملة المستغنية عن الواو – لأنَّها حينئذ تكون جملة مفيدة مستقلِّة بالفائدة(٨٤). فإذا قلت: جاءني زيدٌ وغلامُهُ يسعى بين يديه، ورأيتُه وسيفُهُ على كتفه، كان المعنى على أنَّك «بدأت فأثبتَّ المجيء والرؤية، ثم استأنفت خبرًا، وابتدأت إثباتًا ثانيًا لسَعْيِ الغلام بين يديه، ولكون السّيف على كتفه. ولما كان المعنى على استئناف الإثبات، احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى، فجيء بالواو كما جيء

(٨٠) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٥٢.

(٨١) ينظر الأمالي لأبي علي القالي، ج١ص٩٩.

(٨٢) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٥٢. وينظر أيضاً من نحو المباني إلى نحو المعاني، ص٥١١.

(٨٣) ينظر مفتاح العلوم، ص١٥٢-١٥٣.

(٨٤) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٥٢ ومفتاح العلوم، ص١٤٩ والإيضاح، ص١٢٢.

بها في قولك: زيدٌ منطلقٌ وعمرٌو ذاهبٌ، والعلمُ حسنٌ والجهلُ قبيحٌ. وتسميَّتُنا لها (واو الحال) لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضمّ جملة إلى جملة»(٨٥). فالجملة ههنا يمكن أن تُنزَّل منزلة الجزاء الذي يحتاج إلى الفاء لتربطه بالشرط قبله في مثل قولنا: إنْ تَأتني فأنت مُكرمٌ(٨٦).

وقد توقَّع الشيخ عبد القاهر أن يعترض أحد على هذا التعليل في سبب مجيء الواو مع الجملة الواقعة حالاً أو عدم مجيئها، ممَّا دعاه إلى الزيادة في توضيح هذا التعليل وتفسيره فقال «فإن قلت: قد علمنا أنَّ علَّة دخول الواو على الجملة أن تستأنف الإثبات، ولا تصل المعنى الثاني بالأول في إثبات واحد، ولا تُنَزِّل الجملة منزلة الفرد، ولكن بقي أن تعلم لِمَ كان بعض الجمل بأن يكون تقديرها تقدير المفرد في ألاّ يُستَأنَفَ بها الإثبات أَوْلَى من بعض؟ وما الذي منع في قولك: جاءني زيدٌ وهو يُسرِعُ، أو وهو مسرعٌ أن يدخلَ الإسراع في صلة المجيء، ويُضَامَّه في الإثبات كما كان ذلك حين قلت: جاءني زيدٌ يُسرعُ»(٨٧).

والجواب على هذا – كما يشرح الشيخ عبد القاهر – أنَّ المعنى في قولنا: جاءني زيدٌ وهو يسرعُ يكون على استئناف إثبات للسرعة، وهو ما لم يكن في قولنا: جاءني زيدٌ يُسرعُ؛ لأنَّ قولنا: جاءني زيدٌ وهو يسرعُ بمنزلة قولنا: جاءني زيدٌ وزيدٌ يسرع تمامًا. فهناك جيء بالضّمير وهنا جيء بالاسم ظاهرًا. وإذا عرفنا هذا أدركنا أنَّه لا سبيل إلى إدخال (يسرع) في قولنا: جاءني زيدٌ وهو يسرعُ في صلة المجيء، وضمَّه إليه في الإثبات؛ لأنّ إعادة ذكر زيد أو ضميره لا تكون إلا إذا قصد السرعة. وإذا لم نفعل

(٨٥) دلائل الإعجاز، ص١٥٢. وينظر أيضاً من نحو المباني إلى نحو المعاني، ص٥١٢.

(٨٦) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٥٢.

(٨٧) دلائل الإعجاز، ص١٥٣.

ذلك نكون قد تركنا المبتدأ الذي هو ضمير زيد أو اسمه بمضيعة، جعلناه لغوًا، فجرى مجرى قولنا: جاءني زيدٌ وعمرٌو يُسرعُ أمامه. فههنا لا يمكن أن نزعم أنَّنا لم نستأنف كلامًا، ولم نبتدئ للسرعة إثباتًا، وأن نزعم أيضا أنَّ حال (يسرع) هنا هو حالها في قولنا: جاءني زيدٌ يسرع؛ لأنَّنا إذا فعلنا ذلك كنَّا كأنَّنا جعلنا السرعة لزيد وهي لعمرو(٨٨).

نستخلص مما ذكرناه أنَّ البلاغيين قد أفادوا كثيرًا من جهود النحاة العرب القدامى، بيد أنَّهم لم يقفوا في دراساتهم وأبحاثهم- ولاسيما الشيخ عبد القاهر ومن حذا حذوه كما أسلفنا- عند حدود ما ذكره النحاة، بل تجاوزوا ذلك إلى توسيع دائرة الرؤية التحليلية، وفتحها على آفاق الدلالة ورحابتها، وإلى محاولة تعليل الظاهرة الأسلوبية وتفسير احتمالاتها، مستعينين في ذلك بنصوص وشواهد لم تذكرها كتب النحو ومصادره. ولا غرابة في ذلك؛ لأنَّ العلوم تتكامل والجهود تتوالى وتتضام، ومحيط العربية زاخر بالدرر والأصداف والفيروز والخيرات والأعاجيب.

(٨٨) ينظر دلائل الإعجاز، ص١٥٣ والتبيان في علم البيان، ص١٢٥.

حكاية أبي القاسم البغدادي
حول المؤلف والعصر والنوع

د. محمد بن تتّا(*)

ظلت حكاية أبي القاسم البغدادي لأبي المطهر الأزدي، حتى بعد مرور قرن من الزمن على صدور طبعتها الأولى عام ١٩٠٢، تثير العديد من الأسئلة والإشكالات أمام مؤرخ الآداب العربية. وهي أسئلة لا يتوقع من هذه العجالة – بطبيعة الحال – أن تضيف إلى تناولها شيئًا ذا بال، بعد أن عولجت من لدن كبار النقاد والمؤرخين(١). ومع هذا، فإن كون الحكاية لا تزال غير معروفة لدى كثير من المختصين قد يكون مسوغًا لعرض ملامح من تلقيها لدى المؤرخين والنقاد. من هنا يكون الوُكد من هذه العجالة، أولاً، أن تعرض آراء المتقدمين في قضايا ثلاث:

- من هو مؤلف حكاية أبي القاسم البغدادي؟
- وإلى أي عصر تنتمي؟
- وفي أي نوع فني تصنف؟

(*) أستاذ الأدب في قسم اللغة العربية بجامعة نواكشوط، موريتانية.

(١) كان من آخر ما اطلعنا من أعمال هؤلاء النقاد ما نشرته مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٨، الجزء١ (ص٨١ إلى ص ١٠٥) للأستاذين الجليلين الدكتور عبد الكريم محمد حسين والدكتور إحسان النص.

ثم تسعى ثانيًا، إلى مناقشتها، على قدر الطاقة. ذلك أن الكثير مما كُتب حول الحكاية، في السنوات الأخيرة، قد استأثرت به نسبتها إلى أبي حيان التوحيدي، إثباتاً أو نفيًا. أما دراسة الحكاية نفسها، تقنياتها، وحواريتها مع مجمل الإرث السردي القديم، وصلاتها بمشاغله الفنية والإيديولوجية الكبرى، فلم تنل – في حدود علمنا- العناية الكافية. صحيح أن مثل هذه الدراسة قد تتطلب الحسم في إشكال المؤلّف والعصر لتنزيل الحكاية في سياقها من النص الثقافي العربي، وهذا ما تود هذه العجالة – ولو من باب التمني – أن تنجزه.

١– من هو مؤلف الحكاية ؟

عرض للآراء

يفترض آدم متز «أن يكون أبو المطهر الأصفهاني الذي لقيه أبو الحسن الباخرزي في النصف الأول من القرن الخامس هو مؤلف الحكاية»(٢).

أما زكي مبارك فيذكر أن «مؤلف حكاية أبي القاسم البغدادي هو أبو المطهر الأزدي محمد بن أحمد، وهو رجل يذكر قليلاً جدا في المجموعات الأدبية، ولم نستطع الوصول إلى معرفة أخباره في كتب التراجم، ولكن المسيوه متز هدانا في المقدمة الألمانية إلى أنه كان يعيش في صميم القرن الرابع(٣)، والظاهر أنه ولد في الربع الأخير

(٢) د. محمد حسين الأعرجي، فن التمثيل عند العرب، سلسلة الموسوعة الصغيرة، العدد ٢٨، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م، ص٧١.

(٣) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥، ص ٤١٦. على أن آدم متز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٥٧، الجزء ٢ ص ٢٦١ ، يقول: «في القرن الخامس الهجري نجد محمد بن أحمد أبا المطهر الأزدي يؤلف كتاباً سماه حكاية أبي القاسم البغدادي».

من القرن الثالث فقد كان في سنة ٣٠٦[٤] من الفتيان الماجنين، بدليل قوله: ولعهدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثمئة وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعمئة وستين جارية، في الجانبين وعشر حرائر (...) وفي مكان آخر يتحدث عن مجلس أنس قضاه مع ابن الحجاج وأبي محمد اليعقوبي وأبي الحسن بن سكرة، وهم من أعيان القرن الرابع، عاش أولهم إلى سنة ٣٩١، وثالثهم إلى سنة ٣٨٥، فحكاية أبي القاسم البغدادي وضعت بلا ريب في أواسط القرن الرابع»[٥].

ويعود مبارك، وهو يعلّق على صورة الثقيل في حكاية أبي القاسم البغدادي ليقول: «وقد أشرنا في النص الفرنسي إلى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة للخوارزمي، ونرجح الآن أن الخوارزمي هو الذي حاكى أبا المطهر في وصف الثقيل لأن الخوارزمي مات سنة ٣٨٣ أو ٣٩٣، وأبو المطهر كان شابًّا ماجنًا في سنة ٣٠٦ فمن المستبعد أن يكون عاش طويلاً بعد انتصاف القرن الرابع»[٦].

وعلى هذا النحو سار طه الحاجري، في معرض حديثه عن منهج الوضع الفني الذي «شاع في القرن الرابع شيوعًا كبيرًا، ولم يعد الأمر فيه موقوفًا على الأحاديث والرسائل المقصورة كما رأينا عند أبي حيان، وإنما تعدَّى ذلك إلى الكتب المطولة كهذا الكتاب الذي وضعه أبو علي الحاتمي، وكحكاية أبي القاسم البغدادي التي وضعها أبو المطهر الأزدي من أهل القرن الرابع أيضًا»[٧].

---

(٤) في الإمتاع والمؤانسة: ولعهدي بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمئة انظر: أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المطبعة العصرية، بيروت، ص٣ /١٦١.

(٥) النثر الفني في القرن الرابع، مرجع سابق ص٤١٦. ولا يخفى هنا أن مبارك يماهي بين مؤلف الحكاية وبطلها.

(٦) النثر الفني في القرن الرابع، ص٤٢٥.

(٧) طه الحاجري، تحقيق كتاب البخلاء للجاحظ، دار المعارف ، مصر، ١٩٧١، ص ٤٧ من المقدمة.

ويرى بروكلمان أن مصنِّف حكاية أبي القاسم هو «محمد بن أحمد المطهر الأزدي في المئة الخامسة للهجرة (...) ولعل ابن المطهر أيضًا مصنف كتاب طراز الذهب على وشاح الأدب الذي ذكره الباخرزي في دمية القصر (ص٦ س ١٠) وكان قد التقى به في أصفهان (...) وحرَّف اسمه إلى أبي المطهر بدلاً من ابن المطهر»[٨].

وممن اعتنى بحكاية أبي القاسم – في غمرة موجة التنقيب التي اجتاحت التراث، بعد النكسة، بحثًا عن جذور فيه للفنون الأدبية المستحدثة – الدكتور علي عقلة عرسان في كتابه «الظواهر المسرحية عند العرب»[٩]، والدكتور محمد حسين الأعرجي في «فن التمثيل عند العرب»[١٠]، حيث عقد فصلاً لهذه الحكاية «التي كُتبت في القرن الرابع ولم ينتبه إليها أحد (...) من قبل»[١١]، وقد اعتبر الأعرجي أن افتراض متز وبروكلمان السابق لا يقوم على غير التخمين باعتبار أن الباخرزي «نفسه قد ترجم لأبي المطهر الأصفهاني ولم يذكر شيئًا من أمر الحكاية، ولم ينسبه إلى الأزد كما اعتاد أن ينسب الآخرين في عنوانات تراجمهم، أو إلى بغداد التي تدلنا الحكاية أنه أقام فيها زمنًا إن لم يكن من أهلها، ثم طرأ على أصفهان[١٢]، ومن ثم فهو يشك في نسبة الرسالة إلى أبي المطهر الأزدي، يقول:

«وإذن فنحن نشك في أن تكون الحكاية لأحمد بن محمد أبي المطهر الأزدي، وليس علينا بعدئذ أن نكون موقنين بما ذهب إليه المرحوم الدكتور مصطفى جواد من

(٨) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث، ترجمة عبد الحليم النجار، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، دون تاريخ، ص ١٤٨.

(٩) علي عقلة عرسان، الظواهر المسرحية عند العرب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧١.

(١٠) مرجع سابق.

(١١) فن التمثيل عند العرب ص ٧.

(١٢) فن التمثيل عند العرب ص٧٢.

أن أبا حيان التوحيدي مؤلفها»[١٣]، ويزيده يقينًا فيما ذهب إليه أن تأكيد مصطفى جواد على أن المؤلف «لم يذكر شيئًا يتأخر تاريخه عن القرن الرابع من الهجرة ولا موضعًا لم يكن مأهولاً في ذلك القرن، فيستدل على تأخر زمانه و[على] كونه ناقلاً لا مشاهدًا ولا معاصرًا»[١٤].

ولم تصدر بعد طبعة آدم متز — فيما نعلم – أي طبعة ثانية[١٥] من حكاية أبي القاسم البغدادي، غير تلك التي نشرت عام ١٩٩٧ في ألمانيا، بتحقيق عبود الشالجي، تحت عنوان «الرسالة البغدادية». وقد ذهب المحقق إلى أن صاحب الرسالة «لم يصرح باسمه وإنما كنى عن اسمه فيها، فخرجت الرسالة تحمل اسمًا رمزيًّا»[١٦]، والذي دفعه – في رأي المحقق – «إلى الكناية عن اسمه، في هذه الرسالة، كثرة ما أورده فيها من ألفاظ وعبارات، تقرع الآذان قرعًا عنيفًا»[١٧]، ومن ثم فقد كنى عن نفسه باسم أبي المطهر محمد بن أحمد الأزدي، رحمة الله عليه، والمطهر من الطهور، ومحمد وأحمد من الحمد، ورحمة الله تشمل الحي والميت، أما الأزدي فهي نسبة إلى قبيلة الأزد

---

(١٣) فن التمثيل عند العرب ص٧٣.

(١٤) فن التمثيل عند العرب ص ٧٤/٧٣ .

(١٥) هنالك — في حدود علمنا — ذلك النص المتصرف فيه تصرفًا كبيراً، الذي نشره علي عقلة عرسان في كتابه الظواهر المسرحية عند العرب، مرجع سابق. فضلاً عن ذلك صدرت بفرنسا ترجمة فرنسية لحكاية أبي القاسم عنوانها :

Abou-Moutahhar al-Azdi, 24 heures dans la vie d'une canaille, Traduction de René R.khawam, Editions Phébus 1998.

(١٦) أبو حيان التوحيدي، الرسالة البغدادية، تحقيق عبود الشالجي، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، كولونيا، ألمانيا، ١٩٩٧، ص٩.

(١٧) الرسالة البغدادية ص ١١.

اليمانية، إذ لا تأويل لها ولا كناية فيها[١٨] وكنى عن نفسه، في بطن الرسالة، باسم المجلى[١٩] أبي القاسم أحمد بن علي التميمي البغدادي، والمجلى من السبق، والقاسم من القسامة، أي الجمال، وعلي من العلو، والتميمي من التميم، الكامل الخلق الشديد، أما البغدادي، فهي نسبة إلى بغداد، إذ لا تأويل لها ولا كناية فيها[٢٠]، وقد دلت «على أن صاحبها أبو حيان التوحيدي دلائل عدة»[٢١]، «منها أن أسلوب التوحيدي ظاهر واضح فيها، يكاد ينطق باسم صاحبها رغم تستره بالكنايات»[٢٢]، ومنها أن أجزاء من الحكاية قد وردت في كتاب الإمتاع والمؤانسة وفي البصائر والذخائر بألفاظها أو بشيء من التحوير[٢٣]، ومنها امتداح بغداد وذم أصبهان التي أقام فيها التوحيدي قبل أن يغادرها ناقمًا على من فيها[٢٤]، ثم إن ياقوتا الحموي ومن تابعه من المؤلفين، يثبتون أن الرسالة البغدادية من جملة أعمال أبي حيان التوحيدي.[٢٥]

وممن احتفى بالرسالة البغدادية عبد القادر زمامة في مقال له عنوانه «مع المفكر أبي حيان التوحيدي والرسالة البغدادية» تطغى عليه علامات التعجب بشكل لافت

(١٨) الرسالة البغدادية ص ١٠.

(١٩) اعتبر الأعرجي هذا اللفظ تصحيفًا للمحكي، انظر فن التمثيل عند العرب، ص ٧٥ .

(٢٠) الرسالة البغدادية ص ١٠، ١١.

(٢١) الرسالة البغدادية ص ٩ .

(٢٢) الرسالة البغدادية ص ٩ .

(٢٣) الرسالة البغدادية ص ٩ .

(٢٤) الرسالة البغدادية ص١٠.

(٢٥) الرسالة البغدادية ص ٩.

للنظر، زبدته أن «الكتاب الذي كان معروفًا باسم: (حكاية أبي القاسم البغدادي) تأليف أبي المطهر الأزدي الذي طبع سنة ١٩٠٢م هو في حقيقة الأمر الرسالة البغدادية التي ألفها أبو حيان التوحيدي ....»[٢٦]، فبفضل «هذا الاكتشاف الموضوعي المدعوم بالأدلة القوية الناصعة تصبح حكاية أبي القاسم البغدادي الكتاب الذي حقق وطبع منذ أكثر من تسعين سنة، هي الرسالة البغدادية، ويصبح المؤلف المجهول الغامض أبو المطهر الأزدي، هو المؤلف المفكر أبا حيان التوحيدي.»[٢٧].

ومساغ هذا الرأي عند صاحب المقال أمران:

أولهما: معرفة المحقق «الواسعة بأبي حيان التوحيدي وكتبه المتعددة وأسلوبه وتفكيره وتعبيره وسيئاته وحسناته ومركباته وأحقاده وعداواته لرجال مشهورين في عصره، مثل الصاحب بن عباد وابن العميد الأب وابن العميد الابن؛ فقد عمد أبو حيان إلى أخبار معينة وقصص معروفة على قلمه وأوردها في هذا الكتاب (الرسالة البغدادية) كما هي بنصها وفصها في كتبه الأخرى بنفس الصيغة، ونفس الأسلوب ونفس التعليق ...!! بحيث لا يبقى هناك مجال للشك أن مؤلف الحكاية البغدادية هو مؤلف كتاب (الإمتاع والمؤانسة) و(مثالب الوزيرين) و(البصائر والذخائر) فالنص الواحد يرد بصيغة واحدة وأسلوب واحد في كل من الرسالة البغدادية، وكتب أبي حيان الأخرى»[٢٨].

أما الثاني: فهو ما يعلمه المحقق من كون «مترجمي أبي حيان وفي طليعتهم ياقوت الحموي؛ يذكرون أن أبا حيان التوحيدي ألّف عدة كتب منها (الرسالة

---

(٢٦) عبد القادر زمامة، **مع المفكر أبي حيان التوحيدي والرسالة البغدادية** في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٦، الجزء ٣، يوليه ٢٠٠١م، ص ٦٣٢.

(٢٧) مع المفكر أبي حيان والرسالة البغدادية ص ٦٣٣.

(٢٨) مع المفكر أبي حيان والرسالة البغدادية ص ٦٣٢.

البغدادية)، وبالاستقراء والتتبع لشكل كتاب: حكاية أبي القاسم البغدادي ومضمونه علم أنها هي (الرسالة البغدادية) وأن أبا حيان التوحيدي هو مؤلفها؛ وإنما تستر خلف ذلك الاسم الغريب الخامل المجهول لحاجة في نفسه(٢٩).

وبقدر ما تحمس زمامة للرسالة البغدادية، وما جاءت به من «اكتشاف موضوعي» تصدى د.عبد الكريم محمد حسين في مقاله «**الرسالة البغدادية وبطلان نسبتها وتسميتها**» لأطروحات الشالجي، وناقشها نقاشًا مستفيضًا «من جهات عدة منها ما يتصل بأوليات المعقول، وغير المعقول، وهو من مقتضى علم الدراية»(٣٠).

أما أن صاحب الرسالة قصرها على بغداد فلا يعد دليلاً كافيًا، ولا مرجحًا، ذلك أن صاحب الرسالة لم يقصرها على بغداد باعتراف الشالجي – رحمه الله – ذلك أنه كان يفاضل بينها و بين أصبهان، فهي ليست محبوسة على بغداد في موضوعها كما رأى الشالجي، و لو كانت كذلك ما جاز عقلاً و لا نقلاً أن نزعم أنها هي الرسالة البغدادية التي ألفها أبو حيان التوحيدي و أشار إليها ياقوت الحموي في معجم الأدباء ، والصفدي في كتابه الوافي بالوفيات أو يظن الشالجي و الزمامة معًا أن الرسالة البغدادية وصلت إلى الحموي والصفدي تحمل اسم أبي المطهر، ثم نسباها إلى أبي حيان؟! أيعقل هذا ؟ و هل هذا الظن له ما يسنده من العقل أو النقل ؟ ! أو أن الرجلين عرف أحدهما أو كلاهما – بفرض أن الصفدي نقل عن ياقوت – الرسالة البغدادية فوجدها على أصلها منسوبة إلى أبي حيان، فلم يجد داعيًا لإثارة مشكلة من عدم، وهي نص آخر غير الذي نتحدث عنه بتحقيق الشالجي ومباركة

(٢٩) مع المفكر أبي حيان والرسالة البغدادية ص ٦٣٣.

(٣٠) عبد الكريم محمد حسين، **الرسالة البغدادية : بطلان نسبتها وتسميتها**، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، العدد ٨٧، المجلد ١، ص ٨٦.

الزمامة، وهل من المعقول أن يسكت ياقوت عن هذا الأمر لو كان مثل كلام الشالجي أو الزمامة له أدنى رصيد من الواقع أو المعقول ؟[٣١].

فأبو المطهر صرح أنه يأخذ النوادر التي اخترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء، فرمى عينه على أبي حيان و أخذ عنه ما أخذ، وتقدمت الإشارة إلى بعضه في عرض حجج الشالجي، ولكنه لم يكتف بالأخذ عنه بل أخذ عن رجل آخر يكاد يقع عليه القول الذي اشترطه من مواقف وأشعار خاصة به ورسائل، وذلكم هو أبو بكر عمر بن العباس الخوارزمي، وكانت علاقته بالصاحب بن عباد قوية متينة بُنيت على قصائد المديح وتظاهرِ أبي بكرٍ بالتشيع، لكن العلاقة ختمت بالقطيعة، و كان من قبل ذلك يأخذ عطاياه كما يقول التوحيدي. والسبب الثاني في إهمال الإشارة إلى من أخذ عنهم طبيعة الحكاية التي تختلف في بنيتها السردية عن الدراسات العلمية، ولذلك أخذ عن كثيرين ولم يشر إليهم. فالاختيار من أبي حيان و غيره، ومن ثم فلا معنى لنسبة النص إلى أبي حيان دون سواه.[٣٢]

مناقشة:

من هو مؤلف الحكاية؟ أهو أبو المطهر الأزدي أم هو أبو حيان التوحيدي؟ أما آدم متز وزكي مبارك وطه الحاجري وكارل بروكلمان وعبد الفتاح كليطو وعلي عقلة عرسان وروني خوام فيرون جميعًا نسبة النص إلى أبي المطهر (أو ابن المطهر) الأزدي الذي تنسب إليه المخطوطة اليتيمة من حكاية أبي القاسم البغدادي. ولعل مرد ذلك إلى «أن الأصل في التحقيق هو أنه إذا نصَّ الناسخ أو الراوي على المؤلف وقف الباحث عن الاجتهاد في تقدير اسم المؤلف و اسم الكتاب، ولو فعل الباحثون ما

(٣١) الرسالة البغدادية: بطلان نسبتها وتسميتها، ص ٨٦.

(٣٢) الرسالة البغدادية: بطلان نسبتها وتسميتها ص ٩٩.

فعل الشالجي لاضطربت بنا نسب الكتب إلى أهلها فهذا أصل في التحقيق ركين»[٣٣] كما يقول الدكتور عبد الكريم محمد حسين.

أما ما ذهب إليه الدكتور مصطفى جواد وتابعه عليه محمد حسين الأعرجي من احتمال نسبة الحكاية إلى أبي حيان التوحيدي، ونشر عبود الشالجي على أساسه الحكاية بعد أن غيَّر تسميتها (وقد يبدو من غير المستغرب أن الشالجي لم يشر إلى أي من مواطنيْه) فهو جدير بأن يتوقف عنده – في رأينا لإبداء بعض الملاحظات:

وأولى هذه الملاحظات أن دليلاً من نحو «أسلوب التوحيدي ظاهر واضح فيها»[٣٤] ليس مما يعتد به عند أهل العلم. أما القول إن الذي دفع التوحيدي إلى الكناية عن اسمه في هذه الرسالة هو كثرة ما فيها من عبارات تقرع الآذان قرعًا عنيفًا، فلعله أكثر دلالة على نمط ما من التلقي محكوم بشروط تاريخية وثقافية. فالعارفون بالثقافة العربية الإسلامية يعلمون أن ما يقرع آذان بعض المعاصرين لم تكن في رأي من يقتدي بهم التوحيدي كالجاحظ[٣٥] وابن قتيبة[٣٦] إلا ألفاظًا وضعت ليستعملها الناس. «ولو كان الرأي ألا يتلفظ بها ما كان لأول كونها معنى ولكان في التحريم وصون لغة العرب أن ترفع هذه الأسماء والألفاظ منها»[٣٧].

(٣٣) الرسالة البغدادية: بطلان نسبتها وتسميتها، ص ٨٩.

(٣٤) الرسالة البغدادية: ص ٩.

(٣٥) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م. الجزء ٢ ص ٩٢.

(٣٦) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٦٣ صفحتا ي، م.

(٣٧) رسائل الجاحظ ج٢ ص٩٢.

وأما أن أجزاء من هذه الرسالة قد وردت في الإمتاع والمؤانسة أو في البصائر والذخائر فقد لا يكون ذلك دليلاً قاطعًا على «أن صاحب الرسالة، وصاحب الإمتاع والمؤانسة شخص واحد»[٣٨] بقدر ما هي مصداق لقول المؤلف في المقدمة:

«أما الذي أختاره من الأدب فالخطاب البدوي والشعر العربي القديم، ثم الشوارد التي افترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء»[٣٩]، أم أنه ليس يسوغ الأخذ عن أبي حيان التوحيدي حين يؤخذ عن أعلام الأدباء ؟

أما أن ياقوتًا الحموي ذكر من بين مؤلفات التوحيدي «الرسالة البغدادية»[٤٠] فهذا ما لا جدال فيه، غير أن ياقوتًا في معجمه لم يذكر لنا أن التوحيدي كتب رسالة بدوية ولا مقامات[٤١]، ولا أنه نحل هذه الرسالة البغدادية كاتبًا لا وجود له يسمى بأبي المطهر الأزدي. ومن ثم فليس من المقبول أن يحتج برواية ياقوت على أن حكاية أبي القاسم هي **الرسالة البغدادية** للتوحيدي إلا بقدر ما يمكن أن يحتج على أنها هي **الرسالة في الحنين إلى الأوطان**. إذ إن ياقوتًا ذكر «لأبي حيان تصانيف كثيرة منها ... كتاب الرسالة البغدادية....كتاب الرسالة في الحنين إلى الأوطان»[٤٢].

وثمة لبس آخر مرده إلى عدم تمييز المحقق ما بين الكاتب الواقعي والشخصية القصصية دفعه إلى خلع صفات أبي القاسم البغدادي، بطل الحكاية، على أبي حيان التوحيدي، يقول:

---

(٣٨) الرسالة البغدادية، مقدمة المحقق، ص٩.

(٣٩) الرسالة البغدادية ص٤٢.

(٤٠) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ج ٥ ص ١٩٢٥.

(٤١) الرسالة البغدادية ص ٤٢.

(٤٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥ ، ص ١٩٢٥.

«ووصف التوحيدي نفسه في الرسالة البغدادية، بأنه شيخ بلحية بيضاء تلمع في حمرة وجه يكاد يقطر منه الخمر الصرف، وله عينان كأنما ينظر بهما من زجاج أخضر، تبصَّان، كأنهما تدوران على زئبق»(٤٣).

ويقول في موضع آخر:

«وكان رأي الدكتور(٤٤) أن التوحيدي بغدادي، وقد أيدت الرسالة البغدادية هذا الرأي، فقد وصف مؤلفها نفسه بالبغدادي ووصف بغداد بأنها بلده وتربته التي لا يرضى عنها بجنة الخلد ولو عجلت له»(٤٥)، وعلى أساس هذا الوهم بنى المحقق دليلاً آخر على نسبة الحكاية للتوحيدي «فهو في الرسالة يمتدح بغداد دار فتوته وصباه»(٤٦)، وكأنه نسي أن بطل الحكاية يعود فيذم بغداد في آخر المجلس نفسه(٤٧).

فضلاً عن ذلك يبدو من اللافت في مقدمة الحكاية أن النقل عن الجاحظ(٤٨) لا يوحي بمعرفة دقيقة به كمعرفة التوحيدي، الذي «كان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في سلكه»(٤٩). وكان معاصروه مسلمين بعنايته به وتوفره على تصحيحه، على حد تعبير ابن سعدان(٥٠).

---

(٤٣) الرسالة البغدادية، مقدمة المحقق ص١٥.

(٤٤) يقصد عبد الرزاق محيي الدين.

(٤٥) الرسالة البغدادية ، مقدمة المحقق ص١٥.

(٤٦) الرسالة البغدادية ص ١٥.

(٤٧) الرسالة البغدادية ص ٣٠٨.

(٤٨) انظر: الرسالة البغدادية ص ٤٣–٤٤ و البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨. ج ١ ص ٦٩– ٧٠.

(٤٩) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٥ ص١٩٢٤.

(٥٠) أبوحيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة،الجزء الأول، ص ٥.

أما ما ألحق بكلام الجاحظ من وصف الإنسان بالعالم الصغير سليل العالم الكبير، فهو يحيل – فيما يخيل إلينا – إلى تعليمية رسائل إخوان الصفا التي تفرد التوحيدي بالكشف عن سرها، ومن غير المستساغ أن يحتج بها[٥١].

وإذن فليس بمقدورنا – لهذه الأسباب ولأسباب أخر سنفصلها أدناه – أن نطمئن إلى نسبة حكاية أبي القاسم إلى التوحيدي. ولا مناص أن نقر – ما لم تتوفر معطيات جديدة نسبتها إلى أبي المطهر الأزدي[٥٢].

عصر الحكاية

يقرر آدم متز «عبر سلسلة من المقارنات أن الكتاب ينتسب إلى النصف الثاني للقرن الخامس الهجري» – كما يقول عبد الفتاح كليطو[٥٣]. ويؤكد روبي خوام أن أبا المطهر الأزدي «مات، دون شك، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، بدليل أنه يذكر جامع براثا الذي لم يكن جاهزًا لاستقبال المؤمنين إلا في عام ١٠٥٨م»[٥٤]. ومع ذلك يؤكد لنا الدكتور مصطفى جواد أن مؤلف الحكاية «لم يذكر شيئا يتأخر تاريخه عن القرن الرابع من الهجرة، ولا موضعًا لم يكن مأهولاً في ذلك القرن فيستدل على تأخر زمانه و[على] كونه ناقلاً لا مشاهدًا ولا معاصرًا»[٥٥].

---

(٥١) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار بيروت، دون تاريخ، ص ٥٩–٦٠.

(٥٢) ومع ذلك فقد كنا مضطرين إلى الإحالة إلى (الرسالة البغدادية) أي طبعة الشالجي.

(٥٣) عبد الفتاح كليطو، المقامات: السرد والأنساق الثقافية ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، المغرب، ١٩٩٣، ص ٣١.

(٥٤) 24 heures dans la vie d'une canaille p 10 .
يمكن التحفظ على هذه الملاحظة انطلاقًا مما يورده ابن تغري بردي في حوادث سنة ٣٤٩هـ من وقوع فتنة هائلة في جامع براثا.

(٥٥) الدكتور مصطفى جواد، ذكره محمد حسين الأعرجي، فن التمثيل عند العرب، ص ٧٣–٧٤.

وقد يلفت الانتباه في هذا السياق قول أبي القاسم البغدادي مخاطبًا أحد جلسائه:

مـــن لي بـــأن ألقـــاك وحـــدي ولو كنت دُبيسا وهو في الحله[٥٦]

فدبيس هذا إما أن يكون هو الذي يضرب به الحريري المثل في مقاماته «حتى خيل إلي أنه القرني أويس أو الأسدي دبيس»[٥٧]، وهو كما يقول ابن خلكان: «أبو الأغر دبيس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري الملقب نور الدولة ملك العرب صاحب الحلة المزيدية».[٥٨] «وكان دبيس في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وهم نازلون على باب المراغة من بلاد أذربيجان ومعهم الإمام المسترشد بالله (...) فيقال إن السلطان دس عليه جماعة من الباطنية فهجموا على خيمته – أعني المسترشد بالله – وقتلوه يوم الخميس الثامن والعشرين، وقال ابن المستوفي: الرابع عشر من ذي القعدة سنة **تسع وعشرين وخمسمئة**، وخاف أن تنسب القضية إليه، وأراد أن تنسب إلى دبيس المذكور، فتركه إلى أن جاء إلى الخدمة وجلس على باب خيمة السلطان، فسيَّر

(٥٦) الرسالة البغدادية ص ٣٥٢، ومن الغريب أن المرحوم الشالجي يعلق على هذا البيت قائلاً: «دبيس: أبو الأغر نور الدولة دبيس بن علي بن مزيد الأسدي، أمير بادية العراق، ولي الإمارة وهو ابن ١٤ سنة، ودامت إمارته ٦٧ سنة، وتوفي سنة ٤٧٤ والذي أنشأ الحلة ولده صدقة ولكن المدينة نسبت إلى الأب دبيس» ويفوته استحالة ورود ذكر الحلة ودبيس – إن صحت هذه المعطيات – في مؤلف من مؤلفات التوحيدي.

(٥٧) الشريشي (أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي) شرح مقامات الحريري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م (نسخة مصورة عن طبعة المطبعة العثمانية، الأزبكية، ١٣١٤هـ). ج٢، ص ١٦٠.

(٥٨) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، دون تاريخ. المجلد٢، ص ٢٦٣.

بعض مماليكه، فجاءه من ورائه وضرب رأسه بالسيف فأبانه، وأظهر السلطان بعد ذلك أنه إنما فعل هذا انتقامًا منه بما فعل في حق الإمام، وكان ذلك **بعد قتل الإمام بشهر**، رحمه الله تعالى»[٥٩].وكانت أيامه كما يقول ابن تغري بردي سبعًا وستين سنة[٦٠].

وإما أن يكون نور الدولة دبيس بن علي بن مزيد صاحب الحلة المتوفى سنة ٤٧٤هـ.[٦١]

وسواء كان المقصود دبيس بن صدقة المتوفى نهاية الثلث الأول من القرن السادس، كما يذكر الشريشي[٦٢]، أو دبيس بن علي المتوفى نهاية الربع الثالث من القرن الخامس، فإن من المحال عقلاً أن يكون التوحيدي كاتب حكاية أبي القاسم البغدادي التي ذكر فيها دبيس. فإذا كان دبيس بن علي ، بحسب رواية ابن تغري بردي، عاش ثمانين سنة فهذا يعني أنه ولد في حدود ٣٩٤ هـ، أي قبل رسالة أبي حيان إلى القاضي أبي سهل (الذي عذله على إحراق كتبه) المؤرخة عام ٤٠٠هـ.[٦٣] أي أن أبا حيان أحرق كتبه قبل أن يبلغ دبيس السادسة من عمره. أما إذا اعتبرنا أن المقصود هو دبيس بن صدقة فإن الفاصل الزمني بين رسالة التوحيدي إلى القاضي أبي سهل وبين مقتل دبيس بن صدقة يقارب مئة وثلاثين عامًا.

---

(٥٩) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٦٤– ٢٦٥.

(٦٠) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ضمن الموسوعة الشعرية (إلكترونية)، الطبعة الثالثة، المجمع الثقافي، الإمارات، ٢٠٠٣، ص ٣٠٢٢.

(٦١) النجوم الزاهرة ص ٢٧٥٨.

(٦٢) شرح مقامات الحريري ج ٢ ص ١٦١.

(٦٣) معجم الأدباء لياقوت ص ١٩٣٣.

ونحن نرجح أن يكون المقصود هو دبيس بن صدقة «الذي عناه صاحب المقامات في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله (أو الأسدي دبيس) لأنه كان معاصره (...) فرام التقرب إليه بذكره في مقاماته ولجلالة قدره» كما يقول ابن خلكان[٦٤]. ذلك أننا إن تأملنا قول الشريشي: «لما سمع الأمير دبيس أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكره في مقاماته وأورد فيها بعض صفاته أنفذ إليه من الخلع السنية والجوائز الهنية ومزية العطية ما عجز عنه الوصف وكَلَّ عن إدراكه الطرف»[٦٥]، وجدنا فيه ما يوحي بأن دبيسًا الأول لم يكن هو الذي يضرب به المثل. وربما يكون الحريري أول من أرسله، كما يقول القدماء.

يضاف إلى ما سبق أن القدماء لا يذكرون لنا، عدا البديع الهمذاني، كاتبًا للمقامات سابقًا على الحريري. ومؤلف الحكاية يحدثنا في المقدمة عن رسائل سيَّرها ومقامات حضرها.[٦٦]

ومن ثم فإننا نطمئن إلى أن حكاية أبي القاسم البغدادي ليست الرسالة البغدادية الذي ذكرها ياقوت ضمن ما ذكر من مؤلفات أبي حيان التوحيدي، وما دام هذا الإثبات النصي ينفي ما ذهب إليه الباحثون الأجلاَّء مصطفى جواد ومحمد حسين الأعرجي وعبود الشالجي، فإننا لا نجد مندوحة عن نسبة الحكاية إلى كاتب، قد يكون من أهل القرن الخامس أو السادس، لا نملك في الوقت الراهن، الكثير من المعلومات عنه، «هو الشيخ الأديب أبو المطهر محمد بن أحمد الأزدي».[٦٧]

جنس الحكاية

---

(٦٤) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٦٥) شرح مقامات الحريري ج٢، ص١٦١.

(٦٦) الرسالة البغدادية ص ٤٢.

(٦٧) الرسالة البغدادية ص ٤٢.

لسنا نريد هنا أن نتسرع فنصنف حكاية أبي القاسم البغدادي في خانة من خانات الفنون الأدبية العربية القديمة. هل هي من الظواهر المسرحية عند العرب[٦٨]، أهي داخلة في «فن التمثيل عند العرب» كما يرى محمد حسين الأعرجي الذي استند في رأيه إلى «أن المؤلف أورد لفظ الحكاية في سياق الحكاية مرتين بمعناه التمثيلي، فقد قال في المقدمة: ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادي كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستخشنة وعبارات أهل بلده مستفصحة ومستفضحة فأثبتها خاطري لتكون كالتذكرة في أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم وكالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم، وكأنها قد نظمتهم في صورة واحدة يقع تحتها نوعهم، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب وتفاوت المنازل. ولعلي صرت في ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ في فصل من كلامه: (وإنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئًا، وكذلك تكون حكايته للمغربي والخراساني والأهوازي والسندي والزنجي. نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم، فإذا حكى كلام الفأفاء فكأنه قد جمع كل طرفة في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد) ».[٦٩]

و«أما المرة – يقول الأعرجي – الثانية التي أورد بها المؤلف لفظ الحكاية بمعناه التمثيلي أيضًا فهو قوله على لسان أبي القاسم البغدادي: ثم ترى أبا عبد الله المرزباني وقد سمع هذا الغناء فتمرغ في التراب وهاج وأزبد، ونعر واستعر، وعض بنانه، وركل

(٦٨) الظواهر المسرحية عند العرب: عنوان كتاب علي عقلة عرسان السالف الذكر.

(٦٩) فن التمثيل عند العرب ص ٧٥– ٧٦.

برجله، ولطم وجهه ألف لطمة في ساعة، وخرج في الحكاية كأنه عبد الرزاق المجنون بباب الطاق».[٧٠]

أما الدليل الثالث فهو أن «المؤلف تفرد من بين ما نعرفه من حكايات بأن تحدث عن وحدة الزمان في حكايته كما نص عليها أرسطو حين حددها بـ(دائرة واحدة شمسية أو أن تتغير قط قليلاً) إذ قال في مقدمة الحكاية أيضًا: (وهذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله إلى آخره أو ليلة كذلك).[٧١]

ونحن نعرف كيف كان طه الحاجري قد تحدث عن منهج الوضع الفني «الذي استطاع الجاحظ أن يجعله منهجًا مقرراً وفنا من الفنون الأدبية معتبراً، وقد شاع في القرن الرابع شيوعًا كبيراً، ولم يعد الأمر فيه مقصوراً على الأحاديث والرسائل المقصورة كما رأينا عند أبي حيان، وإنما تعدى ذلك إلى الكتب المطولة كهذا الكتاب الذي ألفه الحاتمي، وكحكاية أبي القاسم البغدادي التي وضعها أبو المطهر الأزدي من أهل القرن الرابع أيضًا، وأبان في صدرها عن تأثره بالجاحظ واتباعه سبيله»[٧٢]، وينحو هذا النحو نفسه محسن جاسم الموسوي إذ يرى أن ملاحظات الحاجري هذه «لم تفقد قيمتها منذ أن ظهر نص البخلاء محققًا من قبله»[٧٣]، وأن حكاية أبي القاسم البغدادي «لا تسعى إلى تأكيد هذه التبعية فحسب، ولا تلجأ إلى التنوخي وابن الحجاج أصواتًا وأقنعة للانحراف بالنص أو تثبيت حضوره بين المرويات والمحكيات

(٧٠) فن التمثيل عند العرب ص ٧٦– ٧٧.

(٧١) فن التمثيل عند العرب ص ٧٧– ٧٨.

(٧٢) البخلاء ص ٤٧.

(٧٣) محسن جاسم الموسوي ، سرديات العصر الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص ٨٠.

فقط، وإنما تلجأ إلى الانتحال والأخذ، كما تفعل إزاء صفحات الغناء البغدادي المأخوذة من مصدر واحد مع أو عن الإمتاع والمؤانسة ... بما يدفعنا إلى قراءة النص في ضوء حجم استعاناته وإحالاته وانتحالاته، والتي تستعيد كثيراً من طرائق الكتابة عند التوحيدي في نصه الجامع؛ أي نصه الذي يحاكي نصوص الجاحظ الغالبة في الإمتاع والمؤانسة»[٧٤]، وهذا الملمح لا يفوت عبد الفتاح كليطو أن يشير إليه منبهًا في الوقت ذاته إلى أن الأزدي يجعل الجانب الموضوعاتي تحت سلطة ابن الحجاج.[٧٥]

وفي رأينا أن المنحيين يتكاملان أكثر مما يتناقضان فالإرث الجاحظي في الحكاية بارز للعيان، ممثلاً في القصص والاحتجاجات والمناظرة وأحاديث البطالين، غير أن المنحى الثاني صريح في مقدمة الحكاية، حين يقول مؤلفها «فمن نشط لسماعها»[٧٦]، مما يدل على أن الرسالة كتبت لتسمع وتحكى لا لتقرأ. وهو ما يحيلنا إلى المجالس وإرثها. فحكاية أبي القاسم البغدادي، بهذا المعنى، وريثة اتجاهين سرديين في التراث بارزين متعارضين، كنا سمينا أولهما بالإرث الجاحظي أما الثاني فيمكن أن نسميه تراث المجالس.

وبينما ينتظم الأول مجمل نصوص السرد المنتمية انتماء رسميا في الأدب العربي القديم، يلم تراث المجالس شتاتًا من القصص والمواعظ والأخبار والأسمار لم تكن تحظى من لدن المتأدبة بالكثير من الاحترام.

ولا تبعد عن هذا المنحى الأخير مقاطع وصف النعيم والزهد المقلوب. وما دمنا قد استطعنا أن نحدد السابق لنص الحكاية، فإن بمقدورنا الآن أن نتلمس النصوص

---

(٧٤) سرديات العصر الإسلامي الوسيط ٨١.

(٧٥) المقامات: السرد والأنساق الثقافية، مرجع سابق ص٣٣.

(٧٦) الرسالة البغدادية ص ٤٤.

الخلفية التي تحاورها حكاية أبي القاسم. وسوف نستوحي من تفريق عبد الفتاح كليطو أعلاه ما بين الموضوعاتي والشكلي في الحكاية خطةَ عملنا هذه، حيث نتناول في قسم أول منه حوارية التيمات في محاولة لنمذجة المرجع، وفي قسم ثانٍ حوارية الأشكال في محاولة لنمذجة التناص، لنخلص إلى وضع الحكاية في سياقها من كبريات قضايا النص الثقافي العربي وأنساقه جملة، ومن مشاغل السرد العربي على نحو أخص.

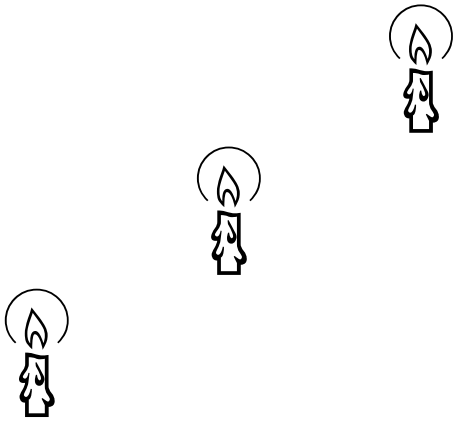

المقالات والآراء

ندوة إشكالية اللغة غير المعيارية
في المواقع الإلكترونية

د. ممدوح خسارة(*)

لابد لي بداءة من أن أشكر القائمين على هذه الندوة والداعين إليها: وزارة الإعلام، ومعهد الإعداد الإعلامي، والأمانة الفنية لمجلس وزراء الإعلام، العرب الذين يعبِّرون من خلالها عن أنهم معنيُّون بالهمِّ اللغوي، ويحملون مع غيرهم من أبناء الوطن العربي ومؤسساته مسؤولية الحفاظ على هذه اللغة وحمايتها، مسهمين في إذكاء الصحوة اللغوية التي أطلقتها سورية بإعلان دمشق في مؤتمر القمة عام (٢٠٠٨) بإيلاء اللغة العربية الاهتمام والرعاية الكفيلة بحفظها وتطويرها وسيادتها في أرضها. وبعد:

١- تعريف اللغة غير المعيارية:

اللغة المعيارية هي تلك التي تلتزم قواعد المنظومة اللغوية بمستوياتها النحوية والصرفية والدلالية ورسمها الإملائي. وعلى هذا فاللغة غير المعيارية هي تلك التي لا تلتزم ثوابت هذه المنظومة اللغوية وأصولها، فتسمح لنفسها بالخروج عن قواعدها وأحكامها.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

٢– مواضع اللغة العربية غير المعيارية في الكتابة الإلكترونية:

اللغة غير المعيارية ظاهرة قديمة في العربية وفي غيرها. أما اللغة غير المعيارية في الكتابة الإلكترونية فقد توضَّعت حديثاً في أجهزة الاتصالات والحواسيب بعدما شاع استعمالها بين مختلف الشرائح الاجتماعية والثقافية في عصر التقانة والمعلومات، وبعدما ظهر في هذه الأجهزة ما سُمِّي (بلغة الشاشات). وأبرز مواضع اللغة غير المعيارية في الكتابة الإلكترونية هي:

- مواقع الدردشة في الشابكة (الإنترنت).
- الرسائل النصيّة في الهاتف الجوال.
- أشرطة المراسيل في بعض الفضائيات التجارية.
- بعض مواقع الأفراد الشخصية على الشابكة.
- بعض المواقع التي تروِّج للعاميات وتُقَعِّد لها عن قصد.

٣– أشكال اللغة غير المعيارية في الكتابة الإلكترونية:

اتخذت اللغة غير المعيارية الأشكال الآتية:

أ– الكتابة باللهجات العامية.

ب– الكتابة بأحرف غير عربية ولاسيما اللاتينية.

ج– استبدال الأرقام بالأحرف العربية ولاسيما الأحرف الحلقية. كاستبدالهم الرقم (7) بالحاء، والرقم (3) بالعين، لافتقار اللاتينية إلى هذه الأحرف.

د– استخدام الكلم الدخيل على العربية: أفعالاً من نحو: (كَنْسَلَ، وفَرْمَت، وسيَّفَ). وأسماءً من مثل: (مَسَجْ، إيميل) وتراكيب من مثل (ميسدكول وأون لاين) وجملاً من مثل: (شَيِّك على الإيميل، ومَسِّج لي، وكَنْسل الموعد).

هـ- استخدام الكلمات المرمَّزة أو المشفَّرة: وهي كلمات تعارف على دلالتها عدد محدود من المتواصلين كأن يقال: (جريدة) ويعنون بها مركزًا ما أو (تفاحة) ويعنون بها شرابًا معينًا، أو (الأخضر) ويعنون به الموعد دون علاقة مجازية بين الرمز والمرموز إليه.

و- الكلمات المختصرة بحرف أو حرفين نحو (مد) اختصارًا لمدرسة و(جا) اختصارًا لجامعة و(يو) اختصارًا ليوم.

ز- ترميز الانفعالات كأن يعبَّر عن الابتسام بنقطتين ينفتح عليهما قوس:)، وعن الحزن بنقطتين يظاهرهما قوس:(، وعن البكاء بنقطتين وفاصلة يظاهرها قوس:،(.

س- تكرار حرف معين في كلمة لتحميلها شحنة عاطفية زائدة كأن تكتب حبيبي بعشرين ياء، وكلمة روحي بعشرين واو!!

٤- مخاطر اللغة العربية غير المعيارية على اللغة العربية:

إن عبارة (اللغة غير المعيارية) تفصح عن أهم مخاطر هذه اللغة على العربية الأم، إذ الأصل في الأشياء أن تخضع لمعايير أي مقاييس، وخروج الشَّيْء عن المعايير هو خروج عن الأصل. لا يعني كلامنا هذا أن الخروج عن الأصل مسيء دائمًا، لا، بل هو مطلوب أحيانًا في ميادين الفن والإبداع فيما لا يتطلب توافقًا تامًّا على دلالته بين المتواصلين، أما اللغة فهي اصطلاحٌ واتفاق بين أبناء الأمة، فإذا خرجت الكلمة على أن تكون موضع اتفاق بين جماعة المتكلمين، تحكمه أصول وأحكام، لم تعد تلك الكلمة من اللغة أصلاً، بل مخلوقًا مشوَّهًا منها.

ومما تقدمّ يمكن تحديد المخاطر التي تحملها اللغة غير المعيارية أو لغة الشاشات بما يلي:

أ- ترسيخ العاميات العربية بكتابتها: لا يُنكر أن للعربية مستويين هما المستوى العامي الذي يسود في الحياة اليومية والتعبير عن بسائط الأشياء، والمستوى الفصيح أو السليم الذي يسود في التعبير الرسمي أو العلمي أو الأدبي أو الثقافي. وفي الوقت الذي يسعى فيه المخلصون لهذه اللغة بمستوييها، للتقريب بينهما للوصول إلى لغة وسط تتضاءل فيها الفروق بين المستويين كغيرها من لغات الأمم المتقدمة، تأتي اللغة غير المعيارية في الكتابة الإلكترونية لتزيد التباعد بين هذين المستويين. الخطر هنا ليس في استعمال العامية فقط، إذ لم يَخْلُ عصر من العامية منذ العصر الجاهلي وحتى الآن، وكان المستويان يتعايشان جنبًا إلى جنب كلٌّ في ميدانه الذي لا يتعداه، ولكن الخطر هو في كتابة اللهجات العاميَّة لأن كتابتها تتطلب تقعيدها وقوننة أصواتها وألفاظها وأشكال حروفها، مما يمهِّد بتحويلها إلى لغة مغايرة للغة الأم، فما اللغات إلا لهجات مُقَعَّدة، وعندما تُقَونَن أيَّة لهجة تصبح لغة قائمة بذاتها. وما أظن أن عاقلاً يرتضي تقسيم لغته الجامعة إلى لغات، اللهمَّ إلا إذا كان جزءاً من مؤامرة خاسرة ولن تفلح، مما مهَّد له الخارجون من جلد هذه الأمة في هذا العصر.

ب- ليتنة الكتابة العربية أي كتابتها بحروف لاتينية، كأن تكتب مرحبًا (مرهابا) وعيد مبارك (إيد موبارك) مما يغير في بنية اللغة الصرفية والصوتية ناهيك بخصائص اللغة الأخرى. وإذا كان بعضهم يحتجُّ بخلو الأجهزة في أول ظهورها من الحروف العربية، فإن تعريب تلك الأجهزة لم يترك حجَّة لهم.

ج- التهجين اللغوي: والتهجين هنا بمعناه السلبي وهو المُعارض لمنفعة الإنسان، فقد لايكون التهجين شرًا دائمًا، ولكنه شرٌّ في مثل: استيلاد مخلوق برأسين أو بطيخ بطعم حامض. وتبدو مظاهر التهجين كما أسلفنا في مفردات أو تراكيب دخيلة أو جمل أعجمية من نحو: (مسِّج لي، سيِّف لي رقمي)

ونذكر بأن العربية –كغيرها من اللغات– لا تأبى الاقتراض من غيرها مما يزيد في ثروتها اللغوية ويسدَّ حاجة تواصلية. ولكن للعربية في ذلك منهجية تقوم على إخضاع الكلمة المقترضة لمقاييس العربية ونظامها الصوتي بما يدخلها في المنظومة اللغوية، وكأنها جزء منها، فقلائل هم الذين يعرفون أن كلمات مثل (سجِّيل– كافور– مشكاة) هي كلمات معرَّبة، لاندغامها في النظام الصوتي العربي. ولكن العربية كغيرها أيضًا تأبى (التدخيل) وهو اقتراض الكلمة بعجرها وبجرها وبملامحها الأجنبية التي لا تخطئها الأذن من مثل (باور، أكشن، كاشير). وهذه الدخيلات في حال ازديادها ستخرب النظام الصوتي العربي الذي هو من أعمدة لغتنا العربية.

د– تعميم الأخطاء الإملائية والصرفية وإشاعتها حتى لتكاد تبدو من اللغة وهي ليست منها. فقد اختفت في هذه اللغة غير المعيارية همزات الوصل وتحولت إلى همزات قطع في نحو (الإستعمار والإستقلال) وهي في الأصل وصل، بل تجوهلت قواعد كتابة الهمزة تجاهلاً تامًّا. كما اختفت صيغة المثنى من هذه اللغة غير المعيارية، وفُقِد التمييز بين الألف المقصورة والألف الممدودة، والتاء المربوطة والتاء المبسوطة. وحدِّث لا حرج عن أخطاء الجموع والتأنيث فهذا يجمع مسؤول على (مسائيل)، وذاك يكتب جمع الذكور (وجمع الأنوث)...فأي لغة عربية تبقى مع مثل هذه الأغلاط ؟

هـ– تغيير العربية بإدخال أصوات ورموز جديدة عليها كالفاء المجهورة V والباء المهموسة P والجيم المروية G وغيرها.

و– ترسيخ مقولة عجز العربية عن التواصل اللغوي المعاصر، لأن الذين يتعاملون بهذه اللغة أو يسمعونها يظنون أن العربية عاجزة عن التعبير السليم.

ز- الإسهام في ضحالة المحتوى العربي على الشابكة، فكثيراً ما وُصف المحتوى العربي على الشابكة بالسطحية والتهافت، ثم تأتي هذه اللغة غير المعيارية بانحطاطها لتضيف سهمًا إلى جعبة الطاعنين على هذه اللغة وثقافتها.

٥- الحجم الحقيقي لهذه الظاهرة:

ربما فهم البعضُ من كلامي أنني من قارعي طبول التحذير وصفارات الإنذار من حريق قد يلتهم العربية من جرائر الكتابة الإلكترونية، فهذا غير صحيح، فما ذكرت من المخاطر لا يعدو أن يكون عقابيل مقلقة، للمشكلة الأم الكبرى وهي ضعف الأداء اللغوي وتدنِّي مستوى مخرجات التعليم العام والجامعي، ولذا فسأقلب الصفحة وانظر إلى النصف المملوء من الكأس فأذكِّر بأمور تعطي هذه الظاهرة حجمها الحقيقي القابل للإصلاح دون تزيدٌ يخيف أو مبالغة مرعبة، فأقول:

أ- إن هذه الظاهرة المقلقة ليست بدعًا في العربية، فكل اللغات العالمية تشكو منها ويسميها الإنكليز (اللغة الإنترنيتية).وهم يعملون على مكافحتها لأن فيها خروجًا عن معيارية الإنكليزية. ففي تللك اللغة يختزلون (بيكوز) إلى (cuz) (وتومورو) إلى (2مورو) (وتودي) إلى (2 دي) (وبيفور) إلى (B 4) وهي بدعة أو دُرْجة – على حدِّ تعبير بعضهم – لن تلبث أن تزول، وإن كان أثرها في اللغة الإنكليزية أقل منها في العربية لأن اللغات الأوربية هي في طبيعتها لغة اختزالية ولصقية.

ب- إن الضَّجة حول الآثار السلبية على الشابكة مبالغ فيها، نعم نحن لا ننكر الآثار السلبية لأي منجز حضاري وتقني، ولكننا لا ننضم إلى جوقة المتشائمين الذين بلغ بهم الخوف واللاموضوعية أن يقولوا: «اللغة العربية ما زالت لم تحصر الخسائر [من تأثير الشابكة] من جهة، وحتى الأرباح- إن وجدت- من جهة أخرى» فهم يشكّكون بوجود أرباح أصلاً، وإن وجدت فهي قليلة. أما نحن فنقول:

– لقد حارب بعضهم كل إنجاز تقاني وعلمي وعدُّوه خطراً على اللغة العربية والثقافة العربية بدءاً بالمطبعة ومروراً بالحاسوب وانتهاءً بالشابكة، على أن الذي ثبت والذي لا يقبل الجدل أن تلك المنجزات كان لها أعظم الأثر في تطوير اللغة العربية ونمائها وترقيتها. لقد أتت الشابكة عصر السيطرة الرقمية على الفضائيات، وعلى انتقال المعلومات، وبالنسبة للعربية فقد أسهمت الشابكة في زيادة عالميَّتها وانتشارها وتطوير أساليبها بما يلائم حاجة العصر. وأن تصبح العربية هي العاشرة على الشابكة العالمية من حيث الانتشار، فذلك أمر يشهد للعربية بالقدرة على البقاء والنماء، ويشهد للشابكة بالفضل عليها.

– كما أسهمت الشابكة في فتح أبواب التعبير لكثير من الشبَّان الذين كانت لا تَفْتح لهم المجلات والصحف زواياها، فحقَّقوا إسهاماً في الحركة الثقافية العربية ومعظمهم يكتب بلغة معيارية سليمة.

– بل إن الكتابة الإلكترونية عامة والرسائل النصيَّة خاصة يمكن أن تفتح الباب لنوعٍ أدبي جديد هو (فن الترسُّل الإلكتروني) إلى جانب الترسُّل الديواني والفلسفي والشخصي الذي انتشر في العصر العباسي. فكم تنوقلت رسائل معايدة على درجات عالية من البيان والسحر.

ج– إن الكتابة بلغة عربية غير معيارية لا تُقاس كمَّاً ولا نوعاً بالمحتوى العربي الرقمي الذي يُكتب بلغة معيارية.فلا يُعَدُّ ما يكتب فيها شيئاً ذا بال بالمقارنة بما يكتب بلغة عربية معيارية سليمة.

ولنذكِّر بأهم مواطن ذلك المحتوى اللغوي السليم وهي:

– المدونات العربية التي تضم حتى الآن أكثر من ملياري كلمة أي نحو (٣٠.٠٠٠) ثلاثين ألف كتاب من خمسمئة صفحة.

– المكتبات الشاملة التي تضم نحو عشرين ألف كتاب أو مرجع.

– المواقع الثقافية والعلمية مدفوعة الأجر التي صارت بالعشرات وتضم عشرات الآلاف من المراجع.

– الموسوعات الشعرية التي تجمع نحو أربعة ملايين بيت من الشعر العربي الفصيح.

– مشروع الذخيرة اللغوية العربية الذي بدأ العمل به وسيجمع كل التراث العربي.

– المواقع الحكومية والرسمية في البلاد العربية وغيرها.

– مواقع الأفراد والعلماء والهيئات والمنظمات الخاصة.

– مكتبة منظمة الأمم المتحدة التي ستكون الآلاف من الكتب العربية من محتوياتها.

فكم تشكّل مواقع الكتابة بلغة غير معيارية بالنسبة إلى ما ذكرنا عن هذا المحتوى الكبير ؟.

د– اللغة غير المعيارية في الكتابة الإلكترونية هي لهجة عامية غالبًا، وأنا موقن بأن اللهجات العامية تقترب من الفصحى بفضل انتشار التعليم والإعلام، وأن عامية اليوم أقرب إلى السلامة من بعض فصيحة بداية عصر النهضة الحديثة، وهي في طريقها إلى التفصُّح، وسوف تتفصَّح معها الكتابة الإلكترونية أيًّا كان موضعها.

هـ– إن أخطاء اللغة اللامعيارية في الكتابة الإلكترونية هي جزء من الأخطاء الشائعة في كتاباتنا الورقية وفي أحاديثنا وبرامجنا التلفزية والإذاعية، فتحميل المسؤولية للكتابة الإلكترونية وحدها ظلم لها.

٦– حلول مقترحة:

إن إشكالية الكتابة العربية في الشابكة هي إشكالية الكتابة العربية عامة. ولذا فإن حلَّ إشكاليات اللغة غير المعيارية على الشابكة هو جزء من حل إشكاليات اللغة العربية المعيارية المعاصرة.

ولعل من أهم الحلول التي نراها:

أ- نشر التعليم ما أمكن، ولكن باللغة العربية السليمة، لأن التعليم- ولاسيما للأطفال- بلغة غير عربية أو لهجة عامية، سوف يكون على حساب لغتهم الأم، ولذا ستكون ثروتهم اللغوية فقيرة وضعيفة، وسوف يتجلى هذا الفقر والضعف أخطاءً في كتاباتهم الورقية أو الإلكترونية أو أحاديثهم الشفهية.

ب- التعليم باللغة العربية السليمة، لأننا نلاحظ جنوح كثير من المعلمين وحتى في الجامعات إلى العامية لجهلهم العربية السليمة أو خوفًا من الوقوع في خطأ لغوي.

إن إصلاح اللغة العربية يبدأ من الجامعة لأنها عندما تُخَرِّج مُجازًا ضعيفًا فلن ينشر إلا الضَّعف والركاكة.

ج- تيسير اللغة العربية وعصرنتها وتطوير طرق تعليمها:

أما تيسيرها فبإجازة العبارات المعاصرة التي لا تسيء إلى اللغة العربية، فلا يجوز أن نحجر على المتكلمين استعمال الكلمات أو العبارات التي لم ترد في المعاجم من مثل (أجاب على)، (البعض والكل)، (أثناء العمل). إن ما يُلجئ كثيراً من المدونين إلى اللهجة العامية هو خوفهم من التخطئة التي تفنَّن بعض اللغويين من المتشددين في ممارستها. حتى صار كثير من المختصين يشكُّون في سلامة لغتهم، ويخافون من ألسنة المتشددين الذين بنوا شهرتهم على التخطئة بوجه أو بدون وجه.

وكذا إجازة الكلمات المعاصرة مما تسيغه اللغة من نحو (فرفح، زهزه،...). ومن أوجه تيسيرها وضع المعاجم اللغوية المعاصرة الصغيرة التي يسهل على المدوِّن الإفادة منها.

ومن أوجه تيسيرها نشر معاجم (فصاح العامية) التي لا تثريب على الناس في استعمالها مثل كلمات (دَعَس، شاف، بصَّ، دندن) على أن يبقى الأداء اللغوي البياني المثال الذي يُطمح إليه.

وأما تطوير طرق تعليمها فيعني تعليمها بوساطة الوسائل السمعية البصرية كالفيديو والحاسوب والشابكة.

د- مساءلة المواقع التي تنشر بلغة عربية غير معيارية، ولا سيما المواقع التي تدعو إلى استعمال العامية وتقعِّد لها وتروِّجها عن قصد، فإذا كان من حق الحكومات أن تسائل المواقع التي تتعرض لأنظمة بلادها بسوء، فإن مساءلة المواقع التي تسيء إلى اللغة العربية وثقافتها بالأحرى.

هـ- تعريب البيئة والمحيط: إذ من الإجحاف أن نلوم مدوِّنًا يكتب على شاشة هاتفه أو صفحته على الشابكة كلمة غير سليمة وغير معيارية، ثم نسمح لأصحاب المحالّ والمؤسسات وشركات الإعلان أن تكتب بخط عريض وعلى طول ثلاثين متراً أحيانًا اسم محلها (مول، سنتر، هوتل، باتسيري)، وبترخيص رسمي من دوائر يُفترض فيها أن تلتزم سياسة الدولة بالتمكين للغة العربية.

و- إعادة اللغة العربية إلى وجدان الإنسان العربي وإثارة غيرته على لغته واعتبار الأرض واللغة من أهم أركان وجود الأمة، وأن التساهل بأي منهما هو ترخُّصٌ بأعظم القيم وأخلدها في حياة الأمة.

ملاحظات على نماذج من الإيرادات الشعرية
في الجزء ٢٦ من كتاب الوافي بالوفَيَات

د. محمد رضوان الداية(*)

كان الجزء السادس والعشرون من أواخر أجزاء كتاب الوافي بالوفيات صدوراً، فقد ظهر في بيروت سنة ١٤٢٩ هـ الموافق ٢٠٠٨ م عن المعهد الألماني للأبحاث الشرقية (٢٦/٦) باعتناء محمد الحجيري.

ويُعَدُّ كتاب صلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدي في كتب التراجم الواسعة، وهو كتاب يجمع الاختيارات الشعرية إلى عدد من المعلومات الشخصية والفنية والتاريخية.

وتزداد أهمية كتاب الوافي بالوفَيَات:

١- حين يُترجم لرجال لم يترجم لهم مَنْ عرفنا مَن عرفنا من المؤرخين الذين عُنُوا بالتراجم؛

٢- وحين يترجم لمعاصريه ممن عرفهم، أو كانوا في ظلال عصره؛

٣- وشيء آخر هو النصوص الشعرية التي لم ترد في الكتب السابقة فهي تكمل صورة الأدب وتبث حيوية في العصر الذي كان أصحابها فيه.

(*) باحث في الأدب والتراث وأستاذ جامعي من سورية.

وقد وضعت على نسختي من الجزء السادس والعشرين من الوافي بالوفيات ملاحظات تخصّ القطع الشعرية والقصائد، وخصوصاً تلك التي لم يجد المحقق لها مصدراً آخر.

وتوزعت هذه الملاحظات على عدد من الجوانب:

أولاً: أخطاء تسمية البحور الشعرية.

ثانياً: اضطراب الوزن من التحريف والتصحيف.

ثالثاً: من وجوه التصحيف والتحريف وأخطاء الضبط.

رابعاً: اختلال قسمة البيت إلى شطرين.

واكتفيت بهذه الجوانب، وبعدد كافٍ – في تقديري – لتوضيح المقصود من الملاحظات.

وآمل أن تكون إسهاماً في إضافة فوائد جديدة للنصوص. وهي لا تزيد على كونها ملاحظات شخصية، عليها دلائل بحسب ما اجتهدت وبمقدار ما تابعت.

وهذه هي الملاحظات التي وقعت لي في فقرة (أولاً) ونماذج مفيدة من الملاحظات المسجلة على نسختي في سائر الفقرات (أعني: ثانياً، وثالثاً، ورابعاً).

أولاً: أخطاء تسمية البحور الشعرية

١) في ترجمة أبي القاسم معاوية بن سفيان الضرير من أتباع الكسائي، بيتان كتب بهما إلى الحسن بن سهل (الصفحة ٤٠):

ما كان أقصر عمر فاكهةٍ جاءت إلينا ثم لم تعدِ

ولدت غداة السبت صالحة فينا وماتت ليلة الأحدِ

جعلهما المحقق الفاضل من البحر السريع، والصواب أن الشعر من البحر الكامل: وفيه العروض والضّرب من الأحذّ.

والأحذّ: ما سقط من آخره وتد مجموع (/ / o) وبذلك تنتقل (متَفاعلن) إلى فَعِلُن (متفا تقلب إلى فعلن) فالعروض حَذّاء، والضرب أحَذّ ؛ وتقطيع البيت الأول:

ما كان أقـ / صر عمرفا /كهةٍ جاءت إليـ / نا ثم لم / تعد

متْفاعلن / متَفاعلن / فَعِلُن متْفاعلن / متْفاعلن / فَعِلُن

٢) في ترجمة معدّ بن الحسين المغربي قطع من الشعر، منها بيتان (الصفحة ٧٣)، وهما كما وردا ثمّة:

بعثتْ بكافورِ العتاب نسيمها إلى الصبح في جام من الليل مُسْوَدِّ

وباتت تغذّبني شهابيةُ السّنا كثيبيّة الأرداف غُصْنيّةُ القدِّ

وقال المحقق إن الشعر من البحر الكامل ؛ وفي هذا، وفي الشعر كلام:

أ) الشطر الأول كما ورد في النص يجري مجرى البحر الكامل:

بعثتْ بكا / فور الفؤاد / دِ نسيمها /

– وهذا الشطر من العروض الأولى: (مُتَفاعلن)

– وسائر أشطار الشعر، وحقيقة الأبيات من البحر الطويل:

من الضرب الأول: مفاعيلن. وتقطيع البيت الثاني:

وباتت / تغذبني / شهابيـ / ية السنا /

فعولن / مفاعيلن / فعولن / مفاعلن

كثيبيـ / ية الأردا / ف غصنيـ / ية القد

فعولن / مفاعيلن / فعولن / مفاعيلن

ب) في الشطر الأول من البيت الأول تحريف أو سقطٌ، نقل شطر الطويل الذي نفترضه أصلاً إلى الكامل.

– وانتقال الشطر الطويل إلى الكامل شديد القرب والحساسية. وأضرب مثلاً: فقول زهير:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يتق الشتم يشتم

هو من البحر الطويل، فإذا حذفنا الواو من الشطر الأول توجه الشطر على وجهين:

أحدهما:

أن يبقى من البحر الطويل إذا كانت القصيدة من البحر الطويل، ويكون تقطيعه:

من لم / يذد عن حو / ضه بـ / سلاحه /

عولن / مفاعيلن / فعول / مفاعلن

ونقل فعولن إلى (عولن) في الطويل جائز في التفعيلة الأولى[(١)] من الشطر الأول من البيت، فالبيت على هذا هو بيت مخروم.

والثاني:

أن عبارة «من لم يذد عن حوضه بسلاحه» لو كانت في قصيدة من الكامل لكانت شطراً، وتقطيعه على ذلك التقدير:

من لم يذد / عن حوضه / بسلاحه

متْفاعلن / متْفاعلن / متَفاعلن

ج) وفي الشطر، في تقديري، في قراءة (بعثت) على غير وجهها.

د) وقع في البيت الثاني كلمة (تغذّبني) والصواب تفدّيني. والتحريف ظاهر.

٣) في ترجمة ابن وزير الشاعر قطع من الشعر، منها بيت مفرد، وهو (الصفحة: ٢٥٣):

قد جاد ذهنك في الحساب فجُد للمستهام بأول العدد

(١) «ومنهم من لم يجز الخرم في (فعولن) في البحر الطويل في الجزء الذي يقع في أول النصف الثاني من البيت» الوافي: ٤٣.

قال المحقق إن البيت من مجزوء الكامل، والصواب أنه من البحر الكامل: العروض الثانية، الضرب الأول؛ وتقطيعه:

قد جاد ذهـ / ـنك في الحسا / ب فجد

متْفاعلن / متَفاعلن / فَعِلُن

للمستها / م بأول الـ / ـعدد

متْفاعلن / متَفاعلن / فَعِلن

٤) في ترجمة أبي أسعد منصور بن الحسين الآبي الوزير قصائد وقطع من الشعر، فيها قوله في أول الأبيات (الصفحة: ٣٤٨):

أيهـــا الأســـتاذ يـــا مَـــنْ فَضْـــله شـــاهدُ عِلْمِـــهْ

وقال المحقق إن الشعر من **مجزوء الخفيف**،

أ) قلت: مجزوء الخفيف مبني على تفعيلتين.

– والعروض الثالثة من الخفيف مجزوءة ووزنها (مُستفعلن) ولها ضربان: الأول مثلها والثاني مخبون مقصود[٢].

والصواب أن الشعر المذكور من **مجزوء الرمل**، وتقطيعه:

أيها الأستا / ذ يامن فضله شا / هد علمهْ

فاعلاتن / فاعلاتن فاعلاتن / فعلاتن

والقطعة من الضرب الثاني من العروض الثانية من بحر الرمل، لكن أصاب الضرب الخَبْن بحذف الألف من فاعلاتن.

– ويجوز في كل (فاعلاتن) في الرمل أن تحذف ألفه ويسمى مخبوناً[٣]

٥) في ترجمة أبي الأسد نباتة بن عبد الله الحمّاني قطعة أوّلها (الصفحة: ٧٠٣):

---

(٢) تفصيله في كتب العروض. انظر مثلاً: الوافي: ١٥٥ – ١٥٧.

(٣) الوافي: ١٢٧.

يحـــــبُّ صـــــدَّ إلْفِـــــهُ فلـــــيس لليلـــــه صُـــــبْحُ

تقلبـــــه علـــــى مضـــــض مواعـــــد مالهـــــا نُجْـــــحُ!

وقال المحقق إن الشعر من **مجزوء الكامل**.

أ) الصواب أن الشعر من مجزوء الوافر من الضرب الثاني المعصوب (تنقل فيه مفاعلَتن إلى مفاعيلن) والعروض الثانية المجزوءة ووزنها: مفاعلَتن.

– وتقطيع البيت الثاني:

تقلّبه / على مضض مواعد ما / لها نُجْحُ

فقوله (لها نُجْحُ): مفاعلْتن (بتسكين اللام) وتقلب إلى مفاعيلن.

ب) وبالمناسبة فإن المحقق الفاضل قرأ الشطر الثاني من البيت الأول على غير وجهه فقال:

«يحب صد **إلفه**...»... البيت

والصواب:

«محبٌّ صدَّ آلِفُهُ...».. أي صدَّ عن المحبوب فكان منه ما ذكره في القطعة الشعرية (وانظر الفقرة التالية: ثانياً).

٦) في ترجمة أبي الفتح نصر الله بن أحمد بن محمد المؤذّن (الصفحة:٧٤٥) هذان البيتان:

أيُّ جميـــل للمطـــيّ عنـــدي إن أنِســـت عينـــاي أرض نَجْـــدِ

أرض بهـا تمسـي الأسـود كـالظبى والظبيـــات فتكـــةً بالأُسْـــدِ

قال المحقق عنهما إنهما من **بحر الرمل** (الصفحة: ٧٤٥)، والصواب أنهما من بحر الرجز التام ؛ ضربه مخبون مقطوع تتغير فيه مستفعلن إلى مُتَفعلْ، وتقلب إلى فعولن. وطابقت عروضه ضربه.

ثانياً: اضطراب الوزن من التحريف والتصحيف:

١) في شعر لعبد الرحمن بن حسّان قوله (الصفحة ١٧) من البحر الوافر:

ألا أبلـغْ معاويـةَ بـن صـخرٍ أمـير المـؤمنين ثـني كـلام

والشطر الثاني مضطرب على هذه القراءة، وصواب القراءة في الحاشية عند الاستيعاب:

..... أمـير المـؤمنين نثـا كلامـي

والنّثا في اللسان،: «ما أخبرت به الرجل من حسن أو سيئ»

٢) في شعر لموسى بن عبد الملك صاحب ديوان الخراج (الصفحة ٥٢٧):

عجبت **للأيدِ** هالت الترب فوقه ضحىً كيف لم ترجع بغير بنانِ!

وصوابه:

عجبت **لأيدٍ** هالت الترب فوقه .....

والشعر من الطويل من الضرب الثالث.

٣) وفي شعر جمال الدين موسى بن يغمور (الصفحة ٥٧٧):

إنّ غفـارة الفرنسـيّ الـتي جـاءت حبـاءً لسـيد الأمـراءِ

كبياض القرطاس في اللون لكنْ صـبغتها سـيوفنا بالـدماء

والشعر من البحر الخفيف. لكن البيت الأول مصحف، وهو مضطرب على هذه الصورة.

٤) في ترجمة نزار، العزيز بالله العبيدي حاكم مصر قطعة فيها:

نحــن بنــو المصــطفى ذوو محــنٍ **يُجَرَّعُهـــا** في الحيـــاة كاظمنـــا

والقطعة من المنسرح، وضبط المحقق أول كلمة في الشطر الثاني هكذا (**يُجَرّعُها**) تجعل وزنها: مفاعلتن، وهي ليست من أجزاء المنسرح.

والصواب: **يَجْرَعُها** على وزن: مستعلن، وأصلها في البحر مستفعلن، التي يجوز فيها الطي، وهو حذف الساكن الرابع من الجزء (أو التفعيلة)

٥) في ترجمة أبي المظفر مفلح بن علي الأنباري قصيدة من البحر المنسرح فيها قوله (الصفحة ٢٢١):

كأنـــــه شـــــارب معتّقـــــةً كـــان لهـــا قَـسّ **إيليـــا** عاصـرْ

والشطر الثاني مضطرب الوزن، وتقطيعه على هذه القراءة:

كان لها / قس إيليا / شارب

مستعلن / مفعولاتن / فعلن

وهذا لا يصح. ويصح الوزن، والقصد لو قرأنا:

كان لها / قس إيليا / ءِ عاصر

مستعلن / مفعولات / مفعولن

– على أن يخطف القارئ ألف إيليا اكتفاءً بفتحة الياء.

– قال التبريزي: وقد استعملوا، يعني في المنسرح، ضرباً آخر (غير الضرب المطوي من العروض الأولى) وهذا الضرب لم يذكره الخليل[٤]، وهو (مفعولن)، ومثاله قول محمد بن مناذر:

مـــا هـــيّج الشـــوق مـــن مطوقـــه قامـــــت علـــــى بانـــــةٍ تغنيّنـــــا

(٤) الوافي: ١٤٨.

٦) وفي سياق القصيدة المذكورة سأل الشاعر صاحباً له أن يقف معه عند معاهد الأحبّة، وأن يدع المطي تسعده فلا يزجرها، قال: (الصفحة ٢٢٢):

قـفْ سـاعةً بي علـى معاهـدهم ولا تكـــن للمطـــي بـــالزّاجرْ
أمـــا تراهـــا تحـــنّ مُرزمـــةً ودمعهـــا في جفونهـــا حـــائرْ
قـد أيقنـت أنـني أخـو كَلَـفٍ بـــأرْبُعٍ لا تـــرقُّ للـــذاكرْ
فاســتحى أن تُسـعد المطـي ولا تسـعدَ صـبّاً علـى الأسـى صـابرْ

وتكون التفعيلة الأولى في البحر الأخير هنا:

فاستحى أنْ = فاعلاتن

وهذا ليس من أجزاء المنسرح، وصواب القراءة: **فاستحي أن**.

والخطاب موجه من الشاعر إلى صديقه، يقول له معاتباً: كيف ترى المطي تسعدني (تشاركني أساي في وقوفي على أطلال الأحبة وترقّ لي) وأنت لا تكون مثلها في هذا الإسعاد أو خيراً منها ؟

٧) وفي ترجمة أبي ربيعة النحوي الأصبهاني بيتان من البسيط، هما (الصفحة ٣٠٠):

خـاطر بنفسـك لا تقنـع بمَعجـزةٍ فلـيس حـرٌّ علـى عجـزٍ بمعـذور
إنْ لم تنـلْ مـن مقـامٍ مـا تحاولـه **فابْــلُ** عــذراً بــإدلاجٍ وتهجـير

والشطر الثاني من البيت الثاني مضطرب، وصواب العبارة:

فَأبْلِ، فعل أمر: من قولهم: أبلى في الأمر: اجتهد فيه وبالغ.

وتقطيع الشطر على وجهه:

فأبل عذ / راً بإد / لاجٍ وته / جيري
متفعلن / فاعلن / مستفعلن / فَعْلُنْ

٨) وفي ترجمة أبي الأسود النحوي (المفضّل بن سلمة) شعر لابن الرومي يهجوه به، ومنه قوله (الصفحة ٢١٢):

وتلوّنت من سواد أب الأسـ ـود شخصاً يُكنَّى أبا السوداء

لأبى الله أن يعدّك أهل العلـ ـم إلا في جملة الأغبياء

قلت:

١- قوله في البيت الأول (يكنّى) بتشديد النون يكسر الوزن وهو من البحر الخفيف، وتقطيع البيت على الصواب بقراءة يُكْنَى بإسكان الكاف والنون المفتوحة غير المشدّدة:

وتلَوّنْ / ت من سوا / د أبي الأسـ /

فعلاتن / متفعلن / فعلاتن /

ـود شخصاً / يكنى أبا لـ / سوداء /

فعلاتن / مستفعلن / فالاتن /

والبيت في ديوان ابن الرومي (١: ١٠٦). والكلمة فيه (يكْنى) على ما وجهت القراءة. وروى أيضاً (وتكونت) بالكاف.

٢- بالمناسبة فإن تقطيع البيت الثاني على الصواب أن ينتهي الشطر الأول عند (ال) التعريف من كلمة العلم:

لأبى الله أن يعدّك أهل الـ ـعلم إلا في جملة الأغبياء

٩) وفي قصيدة لابن أبي حُصَينة (الصفحة ١٩٣) أبيات في صفة الإبل منها:

فبوركن من عيسٍ **سَرتْ** وبُوركت مخارم بيدٍ جبتها من مخارِمِ

وفي البيت تحريف، أدى إلى اضطراب في الوزن.

(والشعر من الطويل):

فبوركن من عيسٍ **سَرَيْنَ** وبوركت ..... البيت

١٠) وفي شعر منصور بن محمد النيري الواسطي قطعة، فيها (الصفحة ٣٨٤):

كأنما الآسُ وقد عرّشت أغصانه في الأرض تسطيرا

يميل في خضرة أوراقه **بزبرجدٍ** قُصّ شوابيرا

والشعر من السريع، وقوله في الشطر الثاني من البيت الثاني:

بزبرجدٍ خطأ صوابه في الحاشية من إحدى النسخ: **(زبرجد)** بحذف الباء المقحمة.

١١) وفي شعر أبي الحسن المقداد بن الحسن الكلبي بيتان قال فيهما (الصفحة ٢٣٩):

أما ونزار حلفةٌ لو **حُلّفتُها** على الماء لم أشربه وهو نميرُ

كذا ضبطها المحقق الفاضل، ووزن (حُلّفْتُها) هكذا بتشديد اللام والبناء لغير المعلوم: (مستفعلن)، وهذا لا يصح فالبيت من الطويل، وصواب القراءة **حَلَفْتُها** بالبناء للمعلوم ووزنها (مفاعلن) وهو عروض طويل.

١٢) وفي قطعة لأبي الفتح نصر الله المؤذن هذان البيتان (الصفحة ٧٤٦) وهما من بحر الرمل:

باكَرها الوجد ومسّاها الزّميلْ فلهذا فهي تسري وتميل

ثم قال:

أتمنى للهوى أن نلتقي أتُرى هل لي إلى **ذلك** سبيل

أ- وفي قوله باكرها تحريف كسر الوزن. ويعتدل الشعر لو قيل مثلاً (باكر) بحذف (ها).

ب- وفي قوله **ذلك** خطأ يكسر الوزن. والصواب الموافق للوزن والرسم والمعنى: **ذاك** ؛ وتقطيعه:

أتُرى هل / لي إلى ذا / ك سبيلْ

فعلاتن / فاعلاتن / فعلان

والشعر من الرمل (العروض الأولى والضرب الثاني المقصور، وهو الذي سقط ساكن سببه وسكن متحرّكه). ثم أصاب هذا الضرب: الخبن، فصار على: فعلان.

١٣) وفي ترجمة الوزير أبي الفتح الشيرازي قطعة من قصيدة مدحه بها عليّ بن طاهر الخباز، فيها (الصفحة ٣٣٧):

جئت والبدرُ في جبينك تاج والثريّا لأخمصيك حذاءُ

فلو **استطاعت** البقاع كلاماً سلّمت حين زرتها الزّوراءُ

والشعر من البحر الخفيف. وقوله (استطاعت) محرّفة، والشطر على هذه القراءة مضطرب، وصواب القراءة: (اسطاعت) وتقطيعه:

فلو اسطا / عت البقا / ع كلاماً

فعلاتن / متفعلن / فعلاتن

ولو بقيت «فلو استطا» لكان وزنها (متفاعلن) وهي ليست من تفعيلات الخفيف.

ثالثاً: من وجوه التصحيف والتحريف وأخطاء الضبط:

١) أورد مؤلف الوافي بالوفيات (الصفحة: ٦٦٩) شعراً لناصر بن منصور البستي الغزال، فيه بيتان من صفة السّفرجل:

ومصفرّة الأثواب مبيضة الحشا كأبدان بيضٍ تحت صفر **المساجدِ**

كجسم لجين في قميص مذهّب كبيض الأيادي قابلت وجه حاسدِ

وظاهر أن الصواب هو: صفر **العسَاجد**، أورد الشاعر جمع العسجد وهو الذهب الخالص. وظاهر أيضاً أن العلاقة بين الصّفرة والذّهب.

٢) في ترجمة معاوية رضي الله عنه، أبيات (الصفحة ٢٠)، فيها:

أتــاني جريــر والحــوادث جمّــة بتلك التي فيها **انخداعُ** المعاطس

والمعاطس هي الأنوف، ولاعلاقة لها بالانخداع، والصواب: اجتداع. ولجدع الأنف مقاصد مجازية مشهورة.

والشعر من قطعة من قصيدة في كتاب وقعة صفّين لنصر بن مزاحم (الصفحة: ٣٣): وفيه:

تطـاول ليلـي واعترتـني وساوسـي لآتٍ أتــى بالتّرهــات البســابس

أتانــا جريــرٌ والحــوادثُ جمّــةٌ بتلك التي فيها اجتداع المعاطس

أكايــده والســيف بيــني وبينــه ولسـت لأثـواب الـدنايا بلابـس

٣) وفي ترجمة معتوق بن منيع الخطيب بيتان (الصفحة:٦٣) أوّلهما:

سـوادان **ألمــام** البيـاض عليهمـا سواءٌ: همـا إنسـان عينـك والشعر

وصواب ضبط الكلمة: **إلمام** بكسر الهمزة، من فعل: ألمّ.

٤) وفي قصيدة ابن أبي حصينة الواردة في ترجمته بيتان (الصفحة ١٩٣) وهما من صفة الإبل:

تـراهنّ في جُـنح الظـلام جوانحـاً بأعناقها من طول جذب الخزائمِ

يروّعهــا **مــوزُ** الأزمّــة في الــبُرى كــأنّ **ثراهــا غلّفــت** بــالأراقمِ

وصواب الكلام: مَوْرُ الأزمّة (جمع زمام): من فعل مار بمعنى تحرّك. و(ثراها) في البيت خطأ صوابه بُراها، وقد سبقت الكلمة في الشطر الأول من البيت. والبُرى جمع بُرَةٍ، وهي هنا: الحلقة في أنف البعير.

وفي اللسان تجمع البرة على: بُراة، و بُرى، وبُرين، وبِرين.

وحكى الفارسيّ: بُروة و بُراً.

وقوله: **غُلّفت** بالغين المعجمة والفاء الموحدة تحريف، صوابه: **عُلّقت**،من التعليق. ولا علاقة للتغليف (من الغلاف) بمجرى الكلام.

٥) ونقل في ترجمة أبي سفيان بن الحارث رضي الله عنه من شعر حيان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه (الصفحة: ١٥٧)

ألا أبلغ أبا سفيان عنّي مغلغلة فقد برحَ **الخِفاء**

أوردها المحقق الفاضل بكسر الخاء والصواب فتح الخاء، يقال برح الخَفاءُ: أي وضح الأمر.

– أما الخِفاء بكسر الخاء فهي كالكساء لفظاً ومعنىً والجمع أخفية.

والبيت هو أول أبياتٍ لحسان رضي الله عنه في كتاب العقد (٥: ٢٩٥) ولم يرد هذا البيت في هذا الشعر في ديوان حسان (تحقيق د. عرفات).

٦) ومن قصيدة أبي الذوّاد بن أبي حصينة في مدح المقتدي العباسي قوله (الصفحة: ١٩٤):

عليه سلام الله فرع أئمة **هَداهُ** ميامين الوجود أكارِمِ

والصواب: **هُداةٍ**

٧) وفي ترجمة أبي القاسم معاوية بن أبي سفيان الضّرير (الصفحة:٤١):

إنّ الجديد إذا ما زيد في **خُلُقٍ** يبين للناس أن الثوب مرقوعُ!

قلت: الصواب خَلَق بفتحتين، والثوب الخَلَق هو: البالي.

٨) وفي ترجمة أبي المقلد بن المسيّب صاحب الموصلي أبيات أوردها المصنف للشريف الرضي في رثائه، قال فيها (الصفحة:٢٤١):

أعامر لليوم أنت ولا الغَدِ تقلّدت ذل الدهر بعد المقلّدِ

فإن سار للأعداء غيرك **فاربعي** وإن قدم للعلياء غيركَ فاقتدِ

ونقل المحقق الفاضل حاشية من ديوان الشريف (دار صادر١: ٣٦٩) عند كلمة (فاربعي) فقال: قوله فاربعي بالياء، آخر الحروف، لعل الياء متولّدة من إشباع الكسرة. واربع: توقف، وانتظر وأقم.

– قلت لعل العبارة هي: «**فارْبَعَنْ**» بنون التوكيد الخفيفة.

٩) وفي ترجمة أبي إسحاق مكي بن عبد الله بن الغرّاد بيتان (الصفحة: ٢٦٧) هما:

إذا شئت أن تستجلب الودّ دائماً من الناس موثوقاً بكل وثاقِ

فكن زاهداً في **كلِّ** ما حوته أكفهم وفارق مودّات الهوى بطلاقِ

وظاهر أن كلمة (كلّ) إدراج، وليست من أصل الشطر لأنها تكسر الوزن، والشعر من بحر الطويل وتقطيعه:

فكن زا / هداً في ما / حوته / أكفّهم /

فعولن / مفاعيلن / فعول / مفاعلن /

رابعاً: اختلال قسمة البيت على شطرين:

١) في ترجمة مَعَدِّ بن أحمد قطعة من مدح المستنجد العباسي (الصفحة ٧٠) فيها:

١- أصبح الدهر والزمان مُهَنا بك والمسلمون عدلاً وأمنا

٢- وغنينا بفضل كفّك **عن غيثٍ** فلسنا نستمطر الجو مزنا

٣- أنت بحر والبحر أجدى **من الغيث** نوالاً إذا استهلّ وأسنى

٤- وإليك الآمال محطوطة **الأثقـ ـال** ترتى والبيد تقدم بُدنا

٥- بَلّغ الدهر ما رجوناه **من قبل** لنا فيك والذي نتمنّى

وصحة قسمة الشطرين في الأبيات الأخيرة (٢ – ٥) هكذا:

عن غيـ ... ـثٍ....

من الغيـ... ـث....

الأثـ... ـقال....

من قبـ... ـل....

والشعر من البحر الخفيف، وهو بحر يكثر فيه التدوير.

٢) وفي قصيدة لأبي المظفر الأنباري قوله (الصفحة ٢٢٢) من البحر المنسرح:

يسخط مني جوراً على **كلفي به** وقلبي راضٍ به شاكرْ

وصواب قسمة البيت:

يسخط مني جوراً على **كلفي** به وقلبي راضٍ به شاكرْ

٣) وفي قصيدة لأبي نصر الشيباني قوله (الصفحة ٢٢٨) من البحر الوافر:

وتشرب مقلتاه **ووجنتاه دمي** ودمي لغير هواه غالي

وصواب قسمته:

وتشـــرب مقلتـــاه **ووجنتـــاه** **دمـــي** ودمـــي لغـير هـــواه غـــالي

٤) وفي قطعة من مجزوء الكامل لمكارم بن وزير (الصفحة: ٢٥٣):

عاتـــب أبـــاك **فإنّـــه قـــد** حـــــاز فلســـــفة وعلمـــــا

وصواب قسمة البيت:

عاتـــــب أبـــــاك **فإنّـــــه** **قـــد** حـــاز فلســـفة وعلمـــا

والشعر من مجزوء الكامل: العروض الثالثة المجزوءة والضرب الأول المُرفّل، وتقطيع البيت:

عاتـــــب أبَـــــا / كَ فإنّـــــه قـــد حـــاز فلـــ / ســـفةً وعلمـــا

مُتْفـــــــاعلن / مُتَفـــــــاعلن مُتْفاعلـــــن / متفـــــاعلاتن

والمرفّل: ما زيد على اعتداله سبب خفيف(٥).

٥) وفي ترجمة ابن صورة الكتبي قطعة نسبها المصنّف إلى ابن الساعاتي يهجوه فيها، ومنها (الصفحة:٦٦٦):

١- يـا خائنـاً مـا كنـت **أحسـبه** يخـــــــفّ إلى الخيانَـــــــهْ

٢- أصبحت في سلب **القلوب** وذاك مـــــن عُـــــدْم الديَانـــــهْ

وصواب القسمة فيها:

١- ما كنت أحـ... ـسبه يخفّ....

٢- سلب القلو... ـب وذاك....

٦) ومن قطعة لموسى بن عبد الملك صاحب ديوان الخراج (الصفحة: ٥٢٧):

(٥) الوافي:٨٨.

لمّـــا وردنـــا **القادســـية** حيـــق مجتمـــع الرفـــاقِ

وصواب القسمة:

لما وردنا القادسيْ... يَةَ....

وفيها:

لم يبـــق لي إلا **تجشّـــم** هـــذه الســـبع البـــواقي

وصواب القسمة:

إلا تجشْ... شُم هذه....

المصادر والمراجع:

- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني – دار الثقافة بيروت ١٩٥٧م.
- ديوان حسان بن ثابت – تحقيق د. وليد عرفات – دار صادر بيروت ١٩٧١م.
- ديوان ابن الرومي – تحقيق د. حسين نصار – دار الكتب المصرية.
- ديوان الشريف الرضي – دار صادر بيروت (د. ت).
- العقد لابن عبد ربه (مطبعة لجنة التأليف والنشر) القاهرة ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م.
- لسان العرب لابن منظور – دار صادر بيروت.
- الوافي بالوفيات للصفدي – الجزء ٢٦.
- الوافي في العروض والقوافي للتبريزي – تحقيق: فخر الدين قباوة – دار الفكر دمشق، ط١.
- وقعة صفين، نصر بن مزاحم، تحقيق عبد السلام هارون، ١٣٦٥هـ، القاهرة.

الأعلام لخير الدين الزركلي
مراجعات وتنبيهات

أ. أحمد العلاونة(*)

كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي رحمه الله من مفاخر العصر، والمرجع الأول للباحثين في التراجم، وهو من المؤلَّفات التي استغرقت الأعمار، إذ عمل فيه أكثر من ستين عامًا،أطعمه من لحمه، وأسقاه من دمه، فكان العمل الخالد. وأصبح موردًا عذبًا تزاحم عليه الدارسون وتناولوه فيما بينهم، وقدروه حقَّ قدره، لأنه كان مرجعهم في تراجم القدماء والعصريين، من العصر الجاهلي حتى عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م). وكما امتد الزمان واتسع، امتد المكان ليشمل البلاد العربية والمستشرقين والمستعربين من أنحاء العالم، فجمع فأوعى.

ترجم فيه لنحو خمسة عشر ألفًا من الأعلام، أثبت للأقربين عهدًا صورًا فتوغرافية وخطوطًا، وأثبت لبعض مَن تقدَّم بهم الزمن خطوطًا تحلّ محل الصورة، فأثبت نحو ألفين وخمسمئة صورة وخط.

ولا يكاد يمر يوم إلا وأرجعُ إلى هذا الكتاب العظيم، أستمتع بخرائده وفرائده،

(*) باحث متخصص في التراث والتراجم من الأردن.

وأنهل من علمه، وأدوّن على نسختي تعليقات عليه، هي إما تصحيحًا وإما استدراكًا، وإن كان الزركلي أخطأ في مواضع يسيرة فقد أصاب في مواطن كثيرة، والكمال مُحال لغير ذي الجلال.وقد رأيت أن أشرك الباحثين والقراء في نشر هذه المراجعات والتصحيحات لينتفعوا بها.

ومن مصادري في هذه المراجعات الرجوع إلى بعض المخطوطات، فمعلوم أن الزركلي كان يرجع كثيرًا إلى فهارس المخطوطات، وبعض مَن صنع هذه الفهارس لم يكن من أهل العلم، فأُتي الزركلي من هذه الفهارس.

وكلنا معترف بقول جعفر بن يحيى إلى بعض عماله وقد وقف على سهو في كتاب ورد منه: «اتخذ كاتبًا متصفحًا لكتبك،فإن المؤلِّف للكتاب تنازعه أمور، وتعتوره صروف تشغل قلبه، وتشعِّب فكره، من كلام ينسقه وتأليف ينظِّمه، ومعنى يتعلق به يشرحه، وحجة يوضحها. والمتصفح للكتاب أبصر بمواضع الخلل من مبتدى تأليفه[١].

ومن الله أستمد العون والتوفيق والهداية إلى ما يحبه ويزلف إليه.

المجلد الأول:

– **ص٣٣.إبراهيم باكير**. يستدرك عليه اسم أبيه (مصطفى) لذا تنقل الترجمة إلى ص٧٤، وتثبت بعد ترجمة إبراهيم مصطفى[٢].

– **ص٨١. الهِسَنْجاني**: إبراهيم بن يوسف. هكذا ضبطه، بكسر الهاء وفتح السين، والصحيح: بفتح الهاء والسين[٣].

(١) انظر معجم الأدباء١/١١.

(٢) انظر (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين)١/٢٣٥.

(٣) انظر (التبيان لبديعة البيان) ٢/٨٧٤، وهو من مراجعه مخطوطًا، و(الإكمال) ٧/٤١٨، و(سير أعلام النبلاء) ١٤/١١٥.

– **ص١٢١. الخشاب**: أحمد الخشاب. أثبت وفاته سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) والصحيح أن وفاته كانت في شهر نيسان ١٩٧٣م، كما في موقع محافظة الفيوم. ويستدرك عليه اسم أبيه محمد. كما في المصدر السابق. لذا تنقل الترجمة إلى ص٢٥٣، وتثبت بعد ترجمة ابن إبراهيم.

– **ص١٩٨.الإخميمي**: أحمد بن أبي **القاسم** بن سعيد. ولعل الصحيح في اسم جده شعيب(٤).

– **ص٢٧٥.أحمد الحديث**: أحمد بن يوسف. أثبت مولده (١١١١هـ)، وأثبته الشوكاني في (البدر الطالع) ١٦٣ (بعد ١١٢٠هـ)، وأظن أن الصواب عند الشوكاني فقد كان معاصرًا له.(٥)

– **ص٢٩١.الخَتْلي**: إسحاق بن إبراهيم. والصحيح: الخُتَّلي. بضم الخاء وفتح التاء المشددة(٦).

– **ص٢٩٦.الشيباني**: إسحاق بن مرار. جاء في ترجمته: «وجمع أشعار نيف وثمانين قبيلة من العرب ودوّنها، وكان كلما عمل منها قبيلة أخرجها إلى الناس في (مجلد) وجعلها في مسجد الكوفة». وقد وقع سقط في كلامه، صوابه: قال ولده عمرو: «لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفًا وثمانين قبيلة، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفًا وجعله في مسجد الكوفة، حتى كتب نيفًا وثمانين مصحفًا بخطه». أي إنه كان يعمل ذلك كفّارة عما كتبه في الشعر(٧).

---

(٤) انظر (تاريخ ابن قاضي شهبة) ٢٢٦/٣، و(إنباء الغمر) ٣٣٨/١.

(٥) انظر البدر الطالع١٦٣.

(٦) انظر (توضيح المشتبه) ٢٠١/٢، و(لسان الميزان) ترجمة رقم ٩٩٢ (طبعة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة).

(٧) انظر (وفيات الأعيان)٢: ٢٠٢، و(تاريخ بغداد)٧: ٣٤٠، و(تاريخ الإسلام)٥: ٣٠، و(تهذيب التهذيب)٤: ٥٦٤. نبهني على هذا الأستاذ محمد أشرف الأتاسي.

– **ص٣٢٣.قوام السنة:** إسماعيل بن محمد..الطليحي. والصحيح: الطلحي، نسبة إلى طلحة بن عبيد الله ﷺ من جهة أمه[٨].

– **ص٣٢٤.ابن بَرْدِس:** إسماعيل بن محمد. هكذا ضبطه بكسر الدال تبعًا للفيروزآبادي في(القاموس المحيط)، مع أنه ذكر في الهامش أن ابن ناصر الدين الدمشقي ضبطها بفتح الدال، وابن ناصرالدين أحق أن يتبع، فهو حافظ متقن[٩].

المجلد الثاني:

– **ص١٥.أمين الحلواني.** سمى من كتبه (نشر الهذيان من تاريخ جرجي زيدان) والصحيح (نبش الهذيان..) كما في نسخة الكتاب في الظاهرية، ودائرة المعارف الإسلامية[١٠].

– **ص١٦.أمين الخولي.** يستدرك عليه اسم أبيه (إبراهيم) : كما ذكرت بنته سمحة.[١١] لذا تُنقل الترجمة إلى الصفحة١٥، وتُثبت قبل ترجمة أمين الجميل.

– **ص٣٤ع٢.ليفي بروفنسال.** ذكر أنه كان من أعضاء مجمع اللغة **العربية** بدمشق، ولا يوجد في ملفات المجمع ما يفيد أنه كان عضوًا فيه، وليس له في المجمع إضبارة مجمعية.

---

(٨) انظر (التبيان لبديعة البيان) ١٢٥٠/٢، و(سير أعلام النبلاء) ٨٠/٢، ٨٨.

(٩) وانظر لتأييد ابن ناصرالدين (تاريخ ابن قاضي شهبة) ١٤٠/٣، والزركلي شديد الفخر بهذا الكتاب وبكتابه الآخر(الإعلام)، و(إنباء الغمر بأبناء العمر) ٢٩٢/١، و(المقصد الأرشد) ٢٧٣/١. وانظر (التبيان) لابن ناصر الدين ١٥١٦/٣. وهذه من ثقات المصادر.

(١٠) انظر (خواطر مضيئة) للدكتور مازن المبارك ١٣٣.

(١١) انظر مجلة الهلال جمادى الأولى ١٤١٢هـ (تموز ٢٠٠٢م) ص١٨٧.

– **ص٧٥.بندلي الجوزي.** أثبت وفاته سنة ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) والصحيح أن وفاته كانت في غرة المحرم ١٣٦١ هـ (١٩٤٢/١/٢٩م)[١٢].

– **ص١١٧. جُرجي حداد:** جرجي بن موسى. ت ١٣٣٤ هـ (١٩١٦م). يستدرك عليه تاريخ مولده: ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠م)[١٣].

– **ص١٦٠.حافظ نجيب.** ت ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦م). فاته إثبات عام مولده: ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩م)[١٤].

– **ص١٦٢ع١.العمادي:** حامد بن علي. نسب إليه (ضوء الصباح في ترجمة أبي عبيدة بن الجراح) ولعل الصحيح أنه لحامد أفندي جوي زاده (٩٠٠-٩٨٥ هـ) أحد من تولى مشيخة الإسلام في الدولة التركية.[١٥]

– **ص١٦٩.السنديوني:** حجازي بن محمد الشيبي.. والصحيح: الشعيبي بدل الشيبي، كما هو بخطه، ولعل الخطأ من مفهرس دار الكتب.

– **ص٢٤٣.ابن عتيق.** لم يضعه تحت شهرته (ابن رشيق). **ولا نملك إلزام الزركلي بإثبات ترجمة العلم تحت ما اشتُهر به من لقب أو نسبة؛ لأنه ترجم لآلاف من الأعلام، ومن العسير الإحاطة بما اشتُهر به كل علم منهم.**

– **ص٢٤٥.الأهوازي:** الحسن بن علي. وضعت ترجمته ضمن رسم الحسين، وحق هذه الترجمة أن تثبت ص ٢٠٢ قبل ترجمة اليازوري.

---

(١٢) انظر (بندلي الجوزي) لشوقي أبي خليل ص٨٣.

(١٣) انظر (شهداء الحرب العالمية الكبرى) ١١٢.

(١٤) كما ذكر الأستاذ أحمد حسين الطماوي في مجلة الهلال تموز ٢٠٠٣ ص٨٦.

(١٥) انظر (عثمان مؤلفري) ١٩٧/٣، و (تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني) ٤١١/١.

– **ص٢٥١.الشمري:** حسين عوني. فاته إثبات عام مولده ١٢٧٤هـ (١٨٥٦م)[١٦].

– **ص٢٧٧ع٣. حمزة شحاتة.** جاء في ترجمته: «ويحتفظ أحد مريديه الآن بمجموعة حسنة من شعره يحسن أن تكون ديوانًا». قلت طبع ديوانه بعد وفاته عام ١٩٨٨ في ٣٥٠ صفحة.

– **ص٢٢٩. الجورقاني:** الحسين بن إبراهيم. هكذا ضبطه بالراء بعد الواو تبعًا لـ(التبيان) وأشار في الهامش إلى وروده في (معجم البلدان) بالزاي بعد الواو. قلت: ذكر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة أن في الجورقاني أربع لغات: بفتح الجيم وضمها مع الزاي المفتوحة (الجَوْرَقاني، الجُوْرَقاني) أو فتح الجيم مع فتح الراء (الجَوْرَقاني) وضم الجيم مع سكون الراء (الجُوْرْقاني).[١٧] هذا وفي المطبوع من (التبيان) ١٢٧٣/٣: الجوزقاني، بالزاي.

– **ص٣١٥. صلاح الدين الصفدي.** أشار إلى أن كتابه (وصف الهلال) مطبوع، والصحيح أنه ما زال مخطوطًا، ولعل مشابهة عنوانه وموضوعه لكتاب السيوطي المطبوع (رصف اللآل في وصف الهلال) هو ما جرّه إلى هذا، كما يقول الأستاذ هلال ناجي[١٨].

– **ص٣١٩.طوطح:** خليل طوطح. يستدرك عليه اسم أبيه (عبد الله) لذا تنقل الترجمة إلى الصفحة التالية٣٢٠، وتثبت قبل ترجمة خليل مطران. وذكر الزركلي من

(١٦) انظر (تاريخ الأعظمية) و(أعيان الزمان) المطبوعين ضمن (الأعمال الكاملة لوليد الأعظمي) ٢٢١٦، ٢٤٦٦.

(١٧) انظر هامش (لسان الميزان) ١٤٣/٣-١٤٤.

(١٨) انظر مجلة عالم المخطوطات والنوادر رجب ١٤٢٨هـ (آب٢٠٠٧م) ص٢٦٥.

كتبه (تاريخ فلسطين وجغرافيتها) والصحيح أنه كتابان (تاريخ فلسطين) و(جغرافية فلسطين) شاركه في الأول عمر الصالح البرغوثي، وشاركه في **الأخير** حبيب الخوري. وقد سرى إليه **الخطأ** من مرجعه الوحيد (مصادر الدراسة الأدبية)[١٩].

المجلد الثالث:

– **ص٢٩.رفاعة الطهطاوي**. أثبت اسمه: رفاعة رافع بن بدوي. والصحيح: رفاعة بن بدوي رفاعة، كما هو بخطه.[٢٠]

– **ص٢٩.رفله جرجس**. كتب وفاته: نحو ١٣١٨هـ (نحو ١٩٠٠م) وهي على وجه الدقة: ١٩٠٤/٨/٨م (١٣٢٢هـ) ويستدرك عليه تاريخ مولده:١٢٧٩ هـ (١٨٦٢م).[٢١]

– **ص١٠٦.الباهلي: سلام** بن عبد الله. أثبت وفاته (بعد ٨٣٩ هـ). والزركلي وقع هنا في وهم غليظ، سببه له اعتماده على (هدية العارفين) و(معجم المطبوعات العربية). والصحيح أن المترجَم له توفي في شلب يوم الخميس منتصف رجب سنة ٤٤٥هـ. أما التاريخ الذي ذكره نقلاً عن هدية العارفين، ومعجم المطبوعات فلا أظنه إلا فراغ الناسخ من نسخه.غير أني وجدت الزركلي يشير في هامش الترجمة إلى شكه فكتب:«وفي المغرب في حلى المغرب٤٣٤ أن كتاب (الذخائر **والأعلاق** هو من تأليف أبي الحسن سلام بن سلام بالتخفيف – كان أبوه من وزراء المعتمد بن عباد؟». وهذا ما دفعني للشك مثله والبحث عن تاريخ وفاة المترجَم له. بيد أن ما ذكر

(١٩) انظر ما كتبه الأستاذ جورج عيسى في جريدة الأسبوع الأدبي ٢٠٠٧/٢/٢١م. و(من أعلام الفكر والأدب في فلسطين) ٣٨٧.

(٢٠) وانظر (معجم المطبوعات) ٩٤٨، وهو من مراجعه.

(٢١) انظر موقع الأنبا تكلا.

في (المغرب) هو من كلام محققه الدكتور شوقي ضيف، الذي أحال على (نفح الطيب). ورجعت إلى النفح (طبعة إحسان عباس) ٣٣٣/٤، فأحال على (الذيل والتكملة) الذي حققه. وهو في المصدرين الأخيرين: سلام (بالتخفيف) بن عبد الله بن سلام (كالأول). ويستدرك على الزركلي إثبات عام مولده: ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) لقول صاحب (الذيل والتكملة) ٥٣/٤-٥٤: «توفي وهو ابن ثمانين سنة). فزال كل أثر للشك، والحمد لله على فتحه وتوفيقه[٢٢].

– **ص١٣٧. سليمان الندوي**. يستدرك عليه اسم أبيه: أبي الحسن بن محمد بشير.. لذا تنقل الترجمة إلى ص١٢٣ وتثبت بعد ترجمة سليمان بن حسن[٢٣].

– **ص١٧٨. ابن معتوق**: شهاب الدين بن معتوق. والصحيح: أبو معتوق. ولعل سبب هذا أن ابنه معتوق جمع ديوانه، وسمي باسمه. وورد اسم أبيه في بعض المصادر: سعيد، وأحمد. انظر (موقع الأدب العربي في خوزستان).

– **ص٢٨٦**.عبدالحميد الديب. يستدرك عليه اسم والده (السيد)[٢٤]. لذا تثبت الترجمة بعد ترجمة عبدالحميد كرامة في الصفحة نفسها.

– **ص٣٠٠.البزاز**. عبدالرحمن البزاز. يستدرك عليه اسم أبيه (عبد اللطيف). لذا تنقل الترجمة إلى ص٣١١، وتثبت قبل ترجمة ابن زياد [٢٥].

(٢٢) انظر (الذيل والتكملة) ٤٨/٤-٥٥.

(٢٣) انظر كتاب (سليمان الندوي) لمحمد أكرم الندوي ص٣٢.

(٢٤) انظر (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين) ٣٥٦/١٠.

(٢٥) انظر (أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران) ضمن (الأعمال النثرية الكاملة لوليد الأعظمي) ٢٦٤٣/٥.

– **ص٣٣٤ع١.الشربيني**: عبدالرحمن بن محمد. جاء في ترجمته أنه ولي مشيخة الأزهر سنة ١٣٢٢هـ، والصحيح أنه وليها في ١٢ المحرم ١٣٢٣هـ، كما في موقع إسلام أون لاين.

– **ص٣٥١.كمونة**: عبدالرزاق بن حسن. سمى من مؤلفاته (بقات النسابين) والصحيح (منية الراغبين في طبقات النسابين)[٢٦].

المجلد الرابع:

– **ص٥٢.الدجيلي**: عبد الكريم الدجيلي. يستدرك عليه اسم أبيه (مجيد بن عيسى)، ووجب نقل الترجمة إلى ص٥٥ وإثباتها قبل ترجمة السمعاني. ويضاف إلى ترجمته أن له ديوانًا مطبوعًا (مع السائرين) طبع عام١٩٦١ [٢٧].

– **ص٥٥.السمعاني**: عبدالكريم بن محمد. عدّ من كتبه(التحبير في المعجم الكبير) وقال:«ينقص أوراقًا قليلة من أوله ومن آخره،اقتنيت تصويره». والصحيح أن ما اقتناه هو(تهذيب التحبير) أما (التحبير) فما زال مفقودًا. [٢٨]

– **ص٥٣.ابن عثمان**. عبد الكريم بن عثمان. والصحيح: عبد الكريم بن محمود بن عثمان. لذا تنقل الترجمة إلى ص٥٧، وتثبت قبل ترجمة (أبو المظفر). وقد وضعه الزركلي في غير شهرته، فشهرته عبد الكريم عثمان.

---

(٢٦) كما في صفحة عنوانه المطبوع . وانظر (معجم المؤلِّفين والكتَّاب العراقيين) ١٨/٥.

(٢٧) انظر (شعراء بغداد في القرن العشرين) ٢٤١/١، وله تحقيقان (ديوان أبي الأسود الدؤلي) و(الفتح على الفتح) لابن فورجة.

(٢٨) انظر ما كتبه الأستاذ مطاع الطرابيشي في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٩/٥٥، و٣٧١/٤٨.

– **ص٥٣.العلاف**:عبد الكريم العلاف. يستدرك عليه اسم أبيه: مصطفى. فوجب نقل الترجمة إلى ص٥٧، وإثباتها بعد ترجمة عبد الكريم عثمان. **ويحسن** ذكر أنه شاعر له دواوين مخطوطة[٢٩].

– **ص٧١.ابن جندان**: عبد الله بن أحمد. والصحيح في اسمه: سالم بن أحمد، كما هو في مخطوطة كتابه (الدر والياقوت) وقد اعتمد الزركلي في ترجمته على(مراجع تاريخ اليمن) للأستاذ عبد الله الحبشي الذي تبين له خطؤه فأثبت ما هو صحيح في كتابه(مصادر الفكر الإسلامي في اليمن).[٣٠]

– **ص١٣٧.ابن قتيبة**. عبد الله بن مسلم الدينوري. سمى من كتبه (فضل العرب على العجم) و(العرب وعلومها) والصحيح **أنهما** كتاب واحد[٣١]. ونسب إليه كتاب (النبات) والصحيح أنه لأبي حنيفة الدينوري[٣٢]. ونسب إليه كتاب (الاشتقاق) ويرى الدكتور الجبوري أن هذا الكتاب منحول، لم يذكره سوى الزركلي[٣٣].

– **ص١٧٧. ابن القيري (والصحيح: ابن القبري)**: عبدالواحد بن محمد. أثبت مولده ٣٧٩هـ، والصحيح٣٧٧[٣٤].

(٢٩) انظر (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين) ٦٠١/١١.

(٣٠) انظر مصادر الفكر الإسلامي في اليمن٩٥.

(٣١) انظر مقدمة الدكتور وليد محمود خالص لكتاب (فضل العرب) ص٩، وكتاب الدكتور عبد الله الجبوري (ابن قتيبة والشعوبية)١٣٤.

(٣٢) انظر كتاب (ابن قتيبة) ١٧٦.

(٣٣) انظر المصدر السابق١٧٦.

(٣٤) انظر (ترتيب المدارك) ١٤٥/٨.

– **ص٢٠٤.ابن جني:** عثمان بن جني ت ٣٩٢هـ. يستدرك عليه تاريخ مولده: نحو ٣٢٢هـ (نحو ٩٣٤م)[٣٥].

– **ص٢٣٦.ابن عطاء الله:** عطاء الله بن أحمد. ذكر أنه فرغ من تأليف كتابه (شرح الأصول المهمة) سنة ١١٨٦، وأن منه نسخة بدار الكتب المصرية. والصحيح أنه فرغ منه سنة ١١٦٤هـ، كما هو في نسخة دار الكتب، ثم إن الزركلي ذكر أنه بخط مؤلفه، والصحيح أنه بخط جامع بن عثمان بن قاسم الهرري، كما جاء في يمين الورقة الأخيرة من المخطوط، وقد كتبه مقلوبًا، ولعل الخطأ جاءه من فهرس دار الكتب. انظر صفحة المخطوطة.

– **ص٢٦٩.علي جلال** . ت ١٣٥١هـ (١٩٣٢م). يستدرك عليه تاريخ مولده: ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م)[٣٦].

– **ص٢٧٩.الجامع:** علي بن الحسين (ت بعد ٥٣٥ هـ) الذي كرر ترجمته مباشرة برسم: الباقولي: ت نحو ٥٤٣ هـ (والصحيح في الوفاة ما جاء في الأخيرة). ذكر في الترجمة الأولى أن كتاب (كشف المشكلات) ناقص من أوله. قلت: هذا في نسخة صوفيا، أما نسختا مراد ملا بتركيا، والمكتبة الإسلامية فهما تامتان، وقد طبع طبعة ممتازة بتحقيق الدكتور محمد الدالي، ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق. وذكر من مؤلفاته في الترجمة الثانية (الباقولي): (شرح الجمل) وقال: «سماه: الجواهر في شرح جمل عبد القاهر)». والصحيح أن (شرح الجمل، واسمه المجمل) و(الجواهر في شرح جمل عبد القاهر) كتابان. وأتى الخطأُ إلى الزركلي من كتاب (كشف الظنون). والظاهر – كما يقول العلامة أحمد راتب النفاخ – أن صاحب كشف الظنون نقل

(٣٥) انظر مقدمة تحقيق (المحتسب لابن جني) ص٦.

(٣٦) انظر (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين)١٣/٥٢٨.

عن ترجمة للمؤلف ذُكر فيها كتاب (الجواهر) وذكر بعده (شرح جمل عبد القاهر) معطوفًا بالواو، فصحّفت إلى (في) فتوهَّم أنهما كتاب واحد. ولم ينته إلينا من كتاب (الجواهر) سوى نسخة يتيمة بدار الكتب المصرية، وقد طبع بتحقيق إبراهيم الأبياري منسوبًا خطأً إلى الزجاج باسم (إعراب القرآن)[٣٧].

المجلد الخامس:

ص٨٨. القُطامي: عُمير بن **شُيَيم**. أورد من شعره في الصفحة التالية:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

فكيف يُرجى لمن يتأنّى في طلب حاجته أن يظفر بجزء منها؟ وهذا قول قد يعدل قسمًا من المطلعين عليه عن التأنّي في طلب الحاجة. والصحيح أن (بعض) في البيت تحريف(بعد). أي قد يظفر المتأني بعد تأنّيه بحاجته. كما في النسخة المخطوطة من (عيون الأخبار) لابن قتيبة [٣٨].

– **ص١١٨.المطران شاهين.** ت ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م). يستدرك عليه تاريخ مولده: نحو١٢٦٢هـ (نحو ١٨٤٦م). لقوله: «عاش نحو٨٠ سنة».

– **ص١٦٨.العلمي**: فيض الله بن موسى. يستدرك عليه تاريخ مولده: ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م). وأثبت وفاته: بعد ١٣٢٣هـ (بعد١٩٠٥م) وهي على وجه الدقة: ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م)[٣٩].

---

(٣٧) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٠٥/٤٩، و٨٤٠/٤٨-٨٦٣، و٩٣/٤٩-١١٢. ومقدمة الدكتور محمد الدالي لـ (كشف المشكلات وإيضاح المعضلات) ص٤٠، ٤٦.

(٣٨) انظر كتاب (عثرات الجاحظ في كتاب الحيوان) لأستاذنا العلامة صبحي البصام، وهو قريب الطبع إن شاء الله.

(٣٩) انظر (أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني).

– **ص١٧٣. السمرقندي**: أبو القاسم بن أبي بكر. أثبت وفاته بعد ٨٨٨هـ، والصحيح: بعد ٩٩٠هـ، لوجود إجازة بخطه في هذا التاريخ.

– **ص١٨٤.الكستي**: قاسم بن محمد. يكتب بعد التاريخ المذكور تحت الخط:..١٢٤٦[وهو الصحيح]. ويكتب في نهاية السطر الأخير من الهامش : [لعل الصحيح حذف السطرين الأخيرين من الهامش مع كلمة: قلت الواردة في السطر الرابع] لمعارضتها ما هو مكتوب تحت خط المترجم (الكستي)، ولمعارضتها ما هو في المستدرك الثاني من الأعلام ص١٧١: «سبق ذكر ولادته سنة ١٢٥٦ ووقفت على كتابة له بخطه أرَّخها سنة ١٢٦٣ فلعله يوم تقدمت به السن قدم تاريخ ميلاده نحو ست سنين؟ فيكون نحو ١٢٥٠هـ ١٨٣٤م». ولا أدري أأضاف الزركلي عبارته التي في الهامش في المستدرك الثالث أم لا؟، وفيها غلط واضح وهو تاريخ مولده ١٢٦٣.

– **ص٢١٤.لندبرج**: كارلو لندبرج ت ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) يستدرك عليه تاريخ مولده ١٢٦٥هـ (١٨٤٨)[٤٠].

– **ص٢٤٠ع١. لبيبة هاشم**: لبيبة بنت ناصيف. والصحيح: لبيبة بنت يوسف[٤١].

المجلد السادس:

– **ص٧.شمس الدين الرملي**. ذكر في آخر ترجمته أن فتاواه مطبوعة، والصحيح أن المطبوعة هي فتاوى والده التي جمعها هو، ولعل هذا ما أوقع الزركلي في هذا الوهم[٤٢].

---

(٤٠) انظر (المستشرقون) ٢٧/٣.

(٤١) انظر (مصادر الدراسة الأدبية)١١٤٤، و(معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين).٢٠٧/١٥.

(٤٢) انظر (المخطوطات الموقعة) ١١٨.

– ص١٨.**أبو رأس الجربي**. محمد بن أحمد بن ناصر (ت ١٢٣٩هـ). نسب إليه (عجائب الأسفار) والصحيح أنه لأبي راس محمد بن أحمد بن عبد القادر (ت١٢٣٨هـ) المذكور في الصفحة نفسها. كما في مخطوطة الكتاب [٤٣].

– ص٢٥. **عرفة**: محمد أحمد. سمى من كتبه (اللغة العربية، لماذا أخفقنا في تعليمها وكيف نعلمها) والصحيح (مشكلة اللغة..) كما هو مثبت على غلاف الكتاب.

– ص٢٩.**ابن النديم**: محمد بن إسحاق. أثبت وفاته سنة ٤٢٨هـ . تبعًا للتصحيف الموجود في طبعة (لسان الميزان) وغيره. والصحيح أن وفاته كانت يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٠هـ (١٢تشرين الثاني ٩٩٠م)، كما كتب على ظهرية نسخة مكتبة جامعة ليدن من الفهرست، وكما في الأصل المخطوط من (لسان الميزان) وأهم ترجمة كتبت للنديم– كما يقول الدكتور أيمن فؤاد سيد . هي الترجمة التي خصصها له ابن النجار في (ذيل تاريخ بغداد) وهي ترجمة لا توجد فيما وصل إلينا من أجزاء الكتاب، إنما اعتمد عليها الصفدي والمقريزي وابن حجر، والشخص الذي كتب ترجمة النديم ملخصة منها على ظهرية نسخة مكتبة ليدن، وفيها تاريخ وفاته[٤٤].

– ص٩٤.**كُبّة**: محمد الحسن. سمى أرجوزته (المرحلة المكية). والصحيح (الرحلة المكية) ولعل ما ذكره من خطأ الطبع. وقد طبعت الأرجوزة من أشهر ضمن ديوانه.

---

(٤٣) انظر (فهرس المخطوطات المصورة– التاريخ) ١٥٩/٢.

(٤٤) انظر مقدمة الدكتور أيمن فؤاد سيد لتحقيقه المتقن للفهرست ١٢/١–١٣، و١٨–١٩. ويستدرك على الزركلي تاريخ مولده: نحو٣١٧هـ (نحو٩٢٩م) ويقدر الدكتور أيمن مولده بين عامي٣٠٥–٣٢٠هـ، كما في المقدمة ص١٣. هذا والصحيح في شهرته: النديم لا ابن النديم كما في مقدمة المحقق.

– **ص١٠٣ع١.محمد الأنكوري:** محمد بن الحسين ت١٠٩٨هـ (١٦٨٧م) فاته إثبات عام مولده: ١٠٢٨هـ (١٦١٩م)[٤٥].

– **ص١٤١. القلهاتي:** محمد بن سعيد. أثبت وفاته: بعد ١٢٨٧هـ (بعد ١٨٧٠م). وجاء في (معجم أعلام الإباضية – قسم المشرق) ص٣٩٨ أنه من أبرز النصف الثاني من القرن السادس الهجري، فليحقق.

– **ص١٦٥. الجارم:** محمد صالح. أثبت وفاته (بعد ١٣٢٦هـ) (بعد ١٩٠٨م) وهي على وجه الدقة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) وكان ابنه الأديب الشاعر علي في بعثة بإنكلترا، كما أخبرني حفيد المترجَم له الدكتور أحمد علي الجارم.

– **ص١٧٣.المجذوب:** محمد بن طاهر. والصحيح: محمد الطاهر بن الطيب، **لأن** اسمه مركب[٤٦].

– **ص١٩٦.الطولوني:** محمد بن عبد الرحمن. أثبت وفاته (بعد٩٧٤هـ) وقال بعد ذكره كتاب المترجَم له (العقد النفيس ونزهة الجليس): «في الأزهرية، قال مفهرس خزانتها: فرغ من تأليفه سنة ٩٧٤. قلت: وورد اسم الكتاب في ذيل كشف الظنون، وفيه كلمات من مقدمته تدل على أن صاحب الذيل رأى نسخة منه، وقال: «فرغ من كتابته سنة٨٦٧» وبهذا يجب الرجوع إلى نسخة الأزهر للاستيقان من معرفة الكاتب **لجملة** الفراغ من تأليفها، هل هو المصنِّف أم كاتب من النُّساخ؟ ويأتي الحكم بعد ذلك على تقدير وفاة الطولوني».

---

(٤٥) انظر (تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني) ٥٦٤/١، وقاموس الأعلام ٤٣٩/١. وفيه اسمه محمد أمين. وذكر الزركلي أنه عيَّن شيخًا للإسلام مدة قصيرة. قلت: هي سنة ١٠٩٧–١٠٩٨هـ.

(٤٦) انظر (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين)٣١٥/١٦. وذكر الزركلي أنه ولد في سواكن، وجاء في معجم البابطين أنه ولد في المتمة شمالي الخرطوم.

قلت: رجعت إلى نسخة الأزهرية فوجدت أن فراغه من تأليف الكتاب كما في عنوان المخطوطة كان في ٩ رجب ٩٩٤هـ، وأن كاتبه هو محمد شلبي إبراهيم في سنة١٢٩٦هـ. وما جاء في فهرس الأزهرية من خطأ الطبع. فيكون تاريخ وفاة المترجم هو (بعد ٩٩٤هـ). والله تعالى أعلم.

– **ص٢٠٧.الرندة:** محمد بن عبد السلام. يستدرك عليه تاريخ مولده، كما هو بخطه: نحو١٢٨٨هـ (نحو ١٨٧١م)[٤٧].

– **ص٢٢٧. الخطيب الإسكافي:** محمد بن عبد الله. نسب إليه كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) ونسبته إليه خطأ، إنما هو للراغب الأصفهاني: حسين بن محمد، المترجَم له في٢/٢٥٥. كما حقق ذلك الدكتور عمر عبد الرحمن الساريسي[٤٨].

– **ص٢٤٤.ابن البار:** محمد بن عبد الله. أثبت وفاته سنة ١٣٣٣هـ (١٩٢٨م) والصحيح أن وفاته كانت في سنة ١٣٤٧هـ، وقد اعتمد الزركلي في مصدر ترجمته على (مراجع تاريخ اليمن) للحبشي، وقد تراجع الحبشي عن هذا في كتابه (مصادر الفكر الإسلامي) لتبيان الصحيح عنده[٤٩].

– **ص٢٨١.ابن عربي:** محمد بن علي. سمى من كتبه (التجليات) وأشار إلى أنه مطبوع، و(التجليات **الإلهية**) وأشار إلى أنه مخطوط، **ولعلهما** كتاب واحد.

– **ص٢٨٦.ابن حمزة الحسيني:** محمد بن علي. سمى من كتبه (التذكرة في رجال العشرة) و(اختصار تهذيب الكمال) وهما واحد[٥٠].

– **ص٣٠٧.الأنسي:** محمد بن علي. سمى من مؤلفاته (المنهج البديع في

(٤٧) انظر (من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين :الرباط وسلا) ١٤٠/٢.

(٤٨) انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١١٤/٥١.

(٤٩) انظر (مصادر الفكر الإسلامي) ٣٠٢، ٣٧٠، ٥٧٤.

(٥٠) انظر مقدمة الدكتور بشار عواد معروف لتحقيق (تهذيب الكمال) ٦٣/١.

أحاديث الشفيع) والصحيح: (المنهاج..) وقد طبع منه أربعة أجزاء في حياة المؤلِّف. ويضاف إلى ترجمته أنه شاعر، له ديوان مطبوع (أثمن العقود في مدح سيد الوجود). **ونتساءل** عن أحد مصادر ترجمته الذي أثبته المؤلَّف (أعلام مدينة فاس) للعزوزي، هل فيه ترجمة للمترجم وهو لبناني؟.

– **ص٣١٥ع٢.ابن عزم**. توضع نجمة فوق الكتاب المذكور في آخر الترجمة (المنهل العذب.) ويكتب في الهامش: نسبته إليه غير صحيحة. وقد نسبه السخاوي في الضوء اللامع ٦: ٢٦٠ إلى محمد بن إبراهيم المعروف بالخطيب الوزيري. فليحقق.

ص ٣٢٠ع٣.محمد عياد الطنطاوي. جاء في آخر ترجمته: «وللدكتور حسين علي محفوظ (رسالة–ط) في سيرته». قلت: **عنوانها** (الشيخ محمد عياد الطنطاوي)[٥١].

– **ص٣٢٥. التفتازاني**: محمد الغنيمي. أثبت وفاته:١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) وهي على وجه الدقة ١٢شوال ١٣٥٤هـ (٧ كانون الثاني ١٩٣٦م) ويستدرك عليه اسم أبيه: محمد. لذا تنقل الترجمة إلى المجلد السابع، ص٨١ وتثبت بعد ترجمة محمد باكثير.[٥٢]

المجلد السابع:

– **ص١٤ع١.الشناوي**. سمّاه: محمد كامل. والصحيح: مصطفى كامل بن سيد.. ولم أرَ من سماه محمدًا – مع طول بحثي – سوى الزركلي. فوجب نقل ترجمته إلى الصفحة٢٣٩ من هذا الجزء، وتثبت بعد ترجمة الزعيم المصري مصطفى كامل[٥٣].

---

(٥١) انظر (معجم المؤلِّفين العراقيين) ١/٣٥٠.

(٥٢) انظر (معجم البابطين لشعراء العربية) ١٦/٤١٤.وشبكة دهشة.

(٥٣) انظر (معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين) ١٥/٦٩، وجريدة المصري اليوم٢٠٠٩/١١/٣٠م، وفيها أنه ولد بعيد وفاة الزعيم الوطني المصري مصطفى كامل فسماه باسمه.

– **ص١٧.الشناوي:** محمد مأمون. أثبت ولادته ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) والصحيح أن ولادته كانت في ١١ شعبان١٢٩٥هـ (١٨٧٨/٨/١٠م) بقرية بمحافظة الدقهلية [٥٤].

– **ص٣١.ابن الناظم** . محمد بن محمد – ٦٨٦هـ. يستدرك عليه تاريخ مولده نحو٦٤٠هـ (نحو ١٢٤٢م)، لقوله في ترجمته: «توفي عن نيف وأربعين عامًا».

– **ص٤٠.النذرومي: محمد بن محمد.** والصحيح: الندرومي بالدال **المهملة،** نسبة إلى ندرومة، مدينة بالجزائر، في **الشمال** الغربي لتلمسان. وخطه الذي أثبته الزركلي، فيه الندرومي بالدال **على الصواب.** وليصحح ما جاء في الأعلام، ١/٣٢٠، ٢٢٤و٣/٧٨، ١٢٦ و٥/٤٩، ١٨٢ و٧/٣٧، ٢١٠، ٢٤٠و٨/٢٣٧.[٥٥]

– **ص٧٣.الحرّاق:** محمد بن محمد العلمي. سمّى من كتبه (ديوان العلمي) و(ديوان رسائل ومنظومات – خ) في خزانة الرباط (٢٧٥د) وقال: «لم أره ولعله الأول؟». والصحيح أنه غير الأول، كما أعلمني الدكتور عباس الجراري.

– **ص٩١.العصار:** محمد بن محمود. يستدرك عليه تاريخ مولده: ١٢٦٤هـ (١٨٤٨م) كما ذكر في مقدمة كتابه (تاريخ العصار) و(ناسخ التفاسير). وأثبت الزركلي وفاته ١٣٥٥هـ (١٩٣٦) وأثبتها نعمان النصري: ١٣٥٦هـ (١٩٣٧) ولعل هذا هو الصحيح[٥٦].

– **ص٩٢. الكنتي:** محمد بن المختار. جاء في ترجمته: «وله كتب قد يكون بعضها لأبيه، كلها في خزانة الرباط، منها (الكوكب الوقاد في فضل ذكر المشايخ وحقائق الأوراد) و(هداية الطلاب) و(جنة المريد) و(تفسير الفاتحة) و(الأجوبة المهمة لمن له في أمر دينه همة) و(فتح الودود في شرح المقصور والممدود) و(الروض الخصيب)

(٥٤) انظر جريدة المصري اليوم ٢٠١٠/١/١٨.

(٥٥) وانظر (التعريف بابن خلدون)٤٧.

(٥٦) انظر مقدمة نعمان النصري لتحقيقه كتاب (رد مذهب الوهابية) للمترجم له.

و(الجرعة الصافية والنفحة الكافية) و(جذوة الأنوار في الذب عن مناصب أولياء الله الأخيار)..».

قلت: الكتب **الآتية** لأبيه: (الجرعة الصافية) و(جذوة الأنوار) و(الكوكب الوقاد) و(فتح الودود)و(تفسير الفاتحة)(٥٧).

– **ص١٦٦.الخَيْرِبَيْتي:** محمود بن إسماعيل. أثبت وفاته (بعد ٨٤٣هـ) معتمدًا على فراغه من تأليف كتاب (الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء). قلت: في النسخة التي اطلعت عليها بدار الكتب أنه فرغ منه في شهر شوال ٨٤٤هـ، كما هو في نهاية المخطوطة. ولا أدري أتوجد منه نسخة أخرى بدار الكتب، أم أن مفهرس دار الكتب أخطأ.

– **ص١٧٢.الآلوسي:** محمود شكري. سمى من مؤلفاته (مساجد بغداد) وقال: «لم يتمه». وهذه الإشارة غير دقيقة –كما يقول الدكتور عبد الله الجبوري، إذ هو كامل ،وذكر أنه جزء من كتاب (أخبار بغداد)، وأن الأثري نشره مهذَّبًا وجاءت نشرته ناقصة تختلف عن الأصل، وقد حققه الجبوري كاملاً على أكثر من أربع نسخ خطية باسم (تاريخ مساجد بغداد وآثارها) ونشره عام ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م)(٥٨).

– **ص١٨٤.محمود السيالة:** محمود بن محمد. أثبت وفاته: بعد ١٢٦٣هـ، والصحيح بعد ١٢٧٠ (٥٩).

– **ص٢٢٩ع١.مصطفى الحنفي.** أثبت وفاته (بعد ١١٤٠هـ) وهذا التاريخ هو فراغه من تأليف **كتابه** (منحة الرحمن) والصحيح **أنه** توفي بعد ١١٦٧هـ، إذ تولى القضاء الحنفي بعد وفاة والده في رجب ١١٦٧هـ(٦٠).

---

(٥٧) انظر موقع المكتبة الوطنية المغربية.

(٥٨) انظر (المسك الأذفر) ١/١٥٢، و١٧٠.

(٥٩) انظر (تراجم المؤلفين التونسيين) ٣: ٩٩.

(٦٠) انظر (كتاب العمر٨٢٤/٩٢، وقد حدّده مراجعًا كتاب العمر ٨٢٥/٢ سنة ١١٧٣هـ (١٧٥٩م). هذا وقد عُرف المترجم له بـ(الطرودي). كما في المرجع السابق.

– **ص٣٣٨.دي خويه.** جاء في ترجمته: «وجعل لها فهرسًا أبجديًّا». وأظنه يقصد: ألفبائيًّا.

– **ص٣٤٧ع٢.الحاني:** ناصر الحاني. يستدرك عليه اسم أبيه: محمد ظاهر(٦١).

المجلد الثامن:

– **ص١٢.نجيب الحداد.** عدّ من مؤلفاته (الفرسان الثلاثة) والصحيح أن هذا الكتاب عرّبه المترجم له، وهو لإسكندر دوماس.

– **ص٤٠. نعوم اللبكي.** ت١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) فاته إثبات عام مولده وهو ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م)(٦٢).

– **ص٧١ع٢.اللالكائي:** هبة الله بن الحسين. سمى من مؤلفاته كتاب في (السنن) وقال: «لعله الذي سماه بروكلمان (حجج أصول أهل السنة والجماعة خ)». قلت: هو نفسه. وقد طبع بتحقيق أحمد سعد حمدان الغامدي في ثمانية مجلدات. باسم (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)(٦٣).

– **ص١١٦.وصفي التل.** جاء في ترجمته: «وتكررت رئاسته خمس مرات إلى سنة١٩٦٦» والصحيح: ١٩٧١.

– **ص٢٤٦. يوسف كمال.** لم يذكر له تاريخ مولد ووفاة. وكانت وفاته في الشهر الأول من عام١٩٦٦(١٣٨٥هـ) **أفادنيه** الأستاذة ناهدة تقي الدين، نقلاً عن إضبارته المجمعية.

---

(٦١) انظر (أعلام الأدب في العراق الحديث) ٥٥٢/٢. ووجب بعد هذا التبيان نقل الترجمة إلى ص٣٥٠، وإثباتها قبل ترجمة المؤيد اليعربي.

(٦٢) انظر (معجم أسماء الأسر والأشخاص) ٧٩٥.

(٦٣) انظر (المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع) ٧١٩/٤.

المصادر والمراجع

- ابن قتيبة والشعوبية، الدكتور عبد الله الجبوري، وزارة الثقافة والإعلام– بغداد١٩٩٠.
- أعلام الأدب في العراق الحديث، مير بصري، دار الحكمة — لندن ١٩٩٤ و١٩٩٩.
- الأعمال النثرية الكاملة لوليد الأعظمي، دار القلم– دمشق٢٠٠٧.
- الإكمال،لابن ماكولا، عني بتصحيحه عبدالرحمن بن يحيى المعلمي، الناشر محمد أمين دمج– بيروت د.ت.
- إنباء الغمر بأبناء العمر،لابن حجر العسقلاني. تحقيق الدكتور حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . القاهرة١٩٩٤، ١٩٩٨.
- بندلي جوزي، شوقي أبو خليل، دار الفكر– دمشق.
- تاريخ الإسلام، الذهبي، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي– بيروت٢٠٠٣.
- تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق١٩٧٧–١٩٩٧.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي– بيروت٢٠٠١.
- تاريخ مؤسسة شيوخ الإسلام في العهد العثماني، أحمد صدقي شقيرات، دار الكندي– إربد٢٠٠٢.
- التبيان لبديعة البيان، ابن ناصرالدين الدمشقي، دراسة وتحقيق الدكتور عبد السلام الشيخلي وعبد الخالق المزوري، وسعيد البوتاني، وإسماعيل الكوراني. دار النوادر– دمشق ٢٠٠٨.
- تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي — بيروت ١٩٨٦.
- ترتيب المدارك، القاضي عياض، تحقيق جماعة من العلماء، وزارة الأوقاف– الرباط١٩٨٣.
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا. ابن خلدون. عارضه بأصوله وعلق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي. راجعه وأعده للنشر إبراهيم شبوح. القيروان للنشر– تونس ٢٠٠٦.
- تهذيب الكمال، المزي، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة —بيروت ١٩٨٠– ١٩٩٢.
- خواطر مضيئة، الدكتور مازن المبارك، دار البشائر الإسلامية– دمشق ٢٠٠٨.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبدالملك المراكشي. تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بن شريفة. دار الثقافة– بيروت.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق جماعة من العلماء، بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة– بيروت١٩٩٨.

- شعراء بغداد في القرن العشرين، الدكتور يوسف عز الدين، مطبعة أسعد–بغداد١٩٦٩.
- شهداء الحرب العالمية الكبرى، أدهم آل الجندي، مطبعة العروبة– دمشق١٩٦٠.
- فضل العرب، ابن قتيبة، تحقيق الدكتور وليد محمود خالص، مجمع أبوظبي الثقافي ١٩٩٨.
- فهرس المخطوطات المصورة (التاريخ) عصام الشنطي، معهد المخطوطات– القاهرة٢٠٠١.
- الفهرست، النديم، تحقيق الدكتور أيمن فؤاد سيد، دار الفرقان– لندن٢٠٠٩.
- كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، حسن حسني عبد الوهاب،مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي– بيروت٢٠٠٥،١٩٩٠.
- كشف المشكلات وإيضاح المعضلات، الباقولي، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي،مجمع اللغة العربية بدمشق١٩٩٥.
- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، اعتناء عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية– بيروت٢٠٠٢.
- المحتسب، ابن جني، تحقيق علي النجدي ناصف، والدكتور عبد الحليم النجار، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية– القاهرة١٩٩٤.

المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف– القاهرة١٩٨١.

- المسك الأذفر، محمود شكري الآلوسي، تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري، بغداد٢٠٠٦.
- مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، عبد الله محمد الحبشي، مجمع أبوظبي الثقافي– أبوظبي ٢٠٠٤.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي– بيروت١٩٩٣.
- معجم أسماء الأسر والأشخاص، أحمد أبو سعد، دار العلم للملايين– بيروت١٩٩٧.
- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، مؤسسة عبد العزيز البابطين– الكويت ٢٠٠٨.
- المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، المجلد الرابع، محمد أحمد معصراني، معهد المخطوطات العربية– القاهرة ٢٠٠٨.
- معجم المؤلفين العراقيين، كوركيس عواد، مطبعة الإرشاد– بغداد ١٩٦٩.
- معجم المؤلفين والكتاب العراقيين، الدكتور صباح نوري المرزوق، بيت الحكمة– بغداد ٢٠٠٢.
- من أعلام الفكر المعاصر، عبد الله الجراري، مطبعة الأمنية– الرباط ١٩٧١.
- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر– بيروت.

أنباء مجمعية وثقافية

حفل استقبال

الأستاذ الدكتور محمد سعيد الصفدي

عضوًا في مجمع اللغة العربية

في الساعة السابعة من مساء الأربعاء ١٤٣١/١١/٦ هـ - ٢٠١٠/١٠/١٣ م احتفل المجمع باستقبال الأستاذ الدكتور محمد سعيد الصفدي، عضوًا في مجمع اللغة العربية، في جلسة علنية، حضرها نخبة من رجال السياسة والعلم والأدب وأصدقاء المُحتفى به وطلابه.

بدأ الحفلُ بكلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع، التي رحّب فيها بالسادة الحضور، وهَنَّأ الزميل المجمعي الجديد، بانضمامه إلى مجمع الخالدين، متمنيًا له مسيرة طيبة حافلة بالعطاء.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور عمر شابسيغ كلمة الترحيب بالزميل الجديد. فتحدث عن سيرته، ومكانته العلمية، وجهوده في خدمة العلم.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور محمد سعيد الصفدي كلمته، التي تحدث فيها عن سلفه الراحل الأستاذ الدكتور عبد الحليم سويدان.

وننشر فيما يلي كلمات الحفل:

كلمة الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع
في حفل استقبال الدكتور محمد سعيد الصفدي
عضوًا في مجمع اللغة العربية

أيها الحفل الكريم

تحيط بنا مؤثرات متضاربة متساوقة تتنازع اهتماماتنا وتحتلّ واقعَنا إلى حدّ أنها تغرقنا في حاضر لم يبق فيه سوى ظلالٍ نتلمس حقيقتها، مستنيرين بما خلّفه لنا الأوائل من تراث ثقافي نحتمي به لنحقق هويتنا.

فلقد داهمنا عصر العولمة محاولاً كتم أنفاسنا بما يحمله من التعالي والتسلّط، وما يُغرقنا به من تقانات عجائبية قاربت حدود الخيال، تتحكم بذائقتنا وتضيّق على لغتنا مجالاتها الحيوية.

وكأن هناك تآمرًا كونيا يجعل العرب يحصرون أنفسهم في آنيّة لا يخرجون منها ما دامت توفر لهم نماذج فكريةً جاهزة، وموادَّ استهلاكيةً تغنيهم عن بذل أي مجهود.

أما جيلنا الشائخ فما فتئ يتطلع إلى بروز انطلاقات بعيدة المدى، ممتدّة على زمان لا متناه، تحمل في طيّاتها خطوات متسارعةً لرأب الفجوة الحضارية التي تفصل العالم العربي عن المجالات العلمية العالمية، معتمدةً جذورًا حضارية راسخة في ماضٍ أثيل لا يجوز أن يغيب عن أذهاننا، جذورًا أنتجت فروعًا باسقة تسامَت إلى قممٍ طليقة لا عوائق لها، وهي انطلاقاتٌ حضارية توصلنا إلى معرفةِ حقيقتنا ومقوماتِ وجودنا في عالم سريع التحول.

إن الوصول إلى معرفةِ حقيقةِ الذات لا يمكن أن يتمّ إلا عن طريق اللغة، تلك الأداة المسيطرة على كل نشاطات الإنسان سواء أكانت لغةً بسيطة إيمائية، أو كانت من تلك اللغات التي بلغت المستويات العليا في التعبير عن إنسانية الإنسان، موضّحة أدقَّ ما يجول في خاطره، ومحركةً لطاقاته في مسعاه إلى التحكم بعالمه.

لن يكون مستقبل أمتنا محصوراً في نطاق فكرٍ وحيدٍ مُعَولَم يسود أرجاء المعمورة، بل إن مستقبلها مرهون بمقدرتها على سَبْر خفايا تراثنا الفكري وتفكيك مقوماتها، وصولاً إلى الدقائق التي انبثق منها ذلك التفتّح الذي نقل عرب الجزيرة من بداوةٍ مفترضة إلى قمم معرفية أسبغت نِعَمها على الحضارة العالمية.

لقد اخترقت اللغةُ العربية القلاعَ الفكرية القائمة في بلاد الفتح لتستخلصَ منها ما يشفي غليل الفاتحين في تطلعهم إلى امتلاك كنوز معرفية يقومون بتحليلها وتطويرها والارتقاء بها، وبقيت اللغة تنمو بالخلْق والتطور والإبداع متجاوبةً مع تلك القيم المتفتّحة الحية: الفكر والعلم والأدب، وهي قيم في حاجة إلى لغة تماثلها في التطور والحياة والنمو.

إن تعطش الفاتحين إلى المعرفة هو الذي قادهم إلى الانكباب على المعارف المدوّنة في الكتب والمخطوطات، ساعين إلى إدخالها أعماق وعيهم اللغوي، لتستقر في وجدانهم مربوطةً بألفاظٍ هي المقدّمة لحضور المعنى، بعد أن يتمّ انتظامها في سبك لغوي يؤكد التواؤم بين الشكل والمضمون، أي بين الدالّ والمدلول.

وحقيقةٌ أكّدتها الدراسات العربية والأجنبية الحديثة هي أن الترجمات التي أنجزها الفاتحون العرب لم تكن مجرد نقلٍ من لغة إلى أخرى، بل كانت في جوهرها استحواذاً على المحتوى المعرفي، إذ قام المترجمون بتمثّل معطيات النصوص، والتوسع في نقدها وشرحها وتحويلها إلى منطوق يتبع النظام اللغوي العربي. وأكبر دليل على استقلاليتهم الذهنية في نقل العلوم أنهم قد أُغرموا بأعمال أرسطو واعتبروه المعلّم الأول، إلا أنهم تجاوزوا النظرةَ الأرسطية في كل ما يتعلق بإصراره على العلّة الطبيعية، وبخاصة قولُه

بوجود الكون منذ الأزل، أي بما يشكل نفيًا للخلق يتعارض مع إيمانهم.

فبعد أن تعرّف العرب بالمكتبات في بلاد الشام وفي مصر، وأدركوا موقع الكتاب في المجالات المعرفية، كان لابد لهم من طرق أبوابها عن طريق ترجمة ما جمعه خالد بن يزيد من كتبٍ حين أنشأ أول بيت للحكمة في دمشق[١]، إضافةً إلى ما تداركوه فيما بعد من مؤلفاتٍ إغريقية وسريانية.

أيها السيدات والسادة

لا أريد أن أدخل في تفصيل ما أصبح معروفًا عن الإنجازات العربية الإسلامية في مجالات الفكر، وما أَسبغتْه إنجازاتهم من فضلٍ على عالمهم حين تطرّقوا إلى العلوم الدقيقة. ذلك أنهم بعد أن استكملوا إيجاد الأسس العقلية التي توصل إلى إدراك الحقائق المادية، انتقلوا إلى تأييدها بتجاربَ عمليةٍ أُخضعت لأدقّ المعايير المعرفية، أي إنهم اعتمدوا المسار العقلاني في تفهّم النصوص وتحليلها للإفادة منها في تطوير العلوم.

فلقد اندمجت الموروثات العلمية لمعظم الحضارات القديمة في بوتقة العلم العربي حين اطّلع المسلمون على علوم الفلك الهندية والبابلية والمصرية، وعلى الرياضيات الهندية والفارسية، وعلى المفاهيم الفلسفية اليونانية ومجموع علوم المرحلة الهلّنية.

وقد وصلت هذه الكتلة المعرفية إلى أوربا عن طريق الأندلس كما هو معروف، محمولةً على ما كان للحضارة العربية الإسلامية من وميضٍ وإشعاعٍ في الفلسفة والعلوم، وما كان لها من تألّق وتوهّج وبهاء في إنجازاتها المعمارية، وما اعتمدته من انفتاحٍ وتسامح في جميع المجالات المجتمعية، حتى قيل بأن انتشار مكوّنات الحضارة العربية الإسلامية قد ترك بصماتٍ كونيةً على الحضارات التي تلتها، حسب رأي عبد الوهاب بوحديبة.

إن أهمّ ما يجب أن يستأثر باهتمامنا حين دراسة تكامل الحضارة العربية

---

(١) يوسف العش: المكتبات العربية ص١٣ دمشق IFEA ١٩٦٧.

الإسلامية، هو اعتمادُ العقل ركيزةً أساسية في محاولة فهم العالم، والسعيُ إلى إعطاء الفكر الإنساني المرتبةَ العليا في إدارة شؤون عالمه.

ولاشك بأن المنطلقات الأولى التي دفعت المسلمين إلى ميادين البحوث العلمية وجعلتهم يشغلون فكرَهم بما يتجاوز شؤون معيشتهم كانت ضرورات ترتبط بمتطلبات دينية، فرضتها الحياة والعمل في مجتمعات مدنية مستقرة في بلاد الفتح.

فإن وراء ازدهار علم الفلك مثلاً رغبةً عملية في محاولة تحديد القبلة وتحديدِ مواقيت الصلاة، إذ يمكن القول بأن مقالة ابن الهيثم «في استخراج سمت القبلة» لها مسحةٌ محلية ترتبط بلوازم المجتمع في الأمصار[٢]. وهذا ينسحب على رؤية الأهلّة وقسمة المواريث. وكذلك فإن الخوارزمي في كتابه «الجبر والمقابلة» يؤكد أهمية هذا العلم في شؤون القسمة والميراث والفرائض.

وقد تجاوزوا ذلك حين التفتوا إلى أمورٍ كان لهم السبق فيها كاهتمامهم بتلوث البيئة، فهناك رسالةٌ في «الأبخرة المُصلحة للجو من الأوباء» للكندي، وكتاب «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الوباء» للتميمي[٣].

ولاشك كذلك بأن العلوم النقلية قد نشأت بدافع حاجاتٍ دينية حين رأى المسلمون ضرورةَ تحصين لغة القرآن بسياج يحميها من التحريف واللحن، مع تأكيد أهمية حُسن فهم النصوص، فكانت الدراسات التي أنتجت علوم اللغة، وعلم الكلام، وعلم الفقه وأصوله، إذ طُبقت عليها القواعد العقلية.

فإذا قبلنا هذه الدوافع الدينية محركًا أدخلهم إلى الفكر العلمي، وبخاصة إلى

---

(٢) مصطفى نظيف: الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه في البصريات ج١- ص١٥ القاهرة ١٩٤٢.

(٣) لطف الله قاري المؤلفات البيئية في تراثنا العلمي مجلة المنهل العدد ٥٨٣ ص٢٣٠ – ٢٤٣، جدة ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣.

دقائق علم الحساب، فإن ما قاموا به مثلاً من إعادة حسابات قياس أقطار الأرض مرتين، لا يمكن أن نعزوه إلا إلى نزعة علمية عميقة الجذور، هي التي جعلتهم ينطلقون من الحساب إلى تلك العلوم الشاملة ومنها علمُ الهيئة، أي دراسة النواظم الفلكية، ثم علمُ الحِيَل، الذي نسميه اليوم بالميكانيكا، وما تفرّع عن علم الجبر والمقابلة من تحليلات جبرية، وكذلك علمُ المثلثات ونظريةُ الأعداد والدراساتُ الهندسية. فإن العلماء المسلمين حين انطلقوا من الحساب والهندسة التأمّلية الأفلاطونية إلى علم جبري تركيبي، قد اعتمدوا استبطان المعطيات حتى وصلوا إلى التفريق بين الحساب والهندسة بمسار عقلي بحت، ذلك حين قام عمر الخيام بتطوير عمل الخوارزمي مفرّقًا بين الجبر العددي والجبر الهندسي(٤).

إن الفكر الرياضي الذي تميز به العلماء المسلمون هو الذي جعلهم يعتمدون القياس في دراساتهم اللغوية والعلمية، إذ إن القياس عمليةٌ ذهنية لها دقة رياضية، وقد اعتمدها النحويون الأوائل منذ ابن أبي إسحق (ت ١١٧هـ) وحتى القرن الرابع للهجرة، حين تأثر القياس بالمنطق الشكلي، بعد أن كان يعتمد الاستقراء اللغوي لاستنباط الأحكام في صحة اللغة. وكانوا يستندون في ذلك إلى الظواهر الصوتية والتركيبية الشائعة المطّردة حتى وصلوا إلى قاعدةٍ يجب اتباعها «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب»(٥).

وقد سار النحاة في ذلك شوطًا بعيدًا، فجعلوا للقياس مضمونًا منطقيا كما حدده ابن الأنباري قائلاً «وإذا بَطَلَ أن يكون النحو روايةً ونقلاً وجب أن يكون قياسًا وعقلاً»(٦).

---

(٤) مارك برجيه Marc Bergé: العلوم عند العرب في كتابه Les Arabes ص٣٥٢ باريس ١٩٧٨.

(٥) ابن جني الخصائص ٣٥٧/١.

(٦) ابن الأنباري: لمع الأدلة ص٩٩.

وهكذا دخل القياس مجالَ الجدل المنطقي وأصبحت له أطرافٌ أربعة هي المقيس، والمقيس عليه، والعلّة، والحكم، وذلك في عملية شكلية يجري فيها إلحاق أمرٍ بآخر لما بينهما من شبه أو علة.

ولا بد لنا هنا من تأكيد المكانة التي تبوأها الخليل بن أحمد في هذا المضمار بفضل ذهنيته الرياضية التي سمحت له أن يضع نحوَ اللغة العربية وصرفَها على مسار رياضي عقلاني، جعل منها حاملاً متينًا لكل ما تفرع من علومٍ عن الحضارة العربية الإسلامية. فقد أكبّ على ما نُقل من علوم رياضية في علوم الشعوب المستعربة، وقرأ ما ترجمه صديقه ابن المقفع من كتب أرسطو، ودرس علم الإيقاع عند اليونان، وألّف كتابًا كان الأصلَ الذي اعتمده إسحق الموصلي لكتابه في النَغَم واللحون(٧).

وأما اكتشافه علم العروض فهو كشف ليس له سابقة، فقد رسمه بكل أوزانه وحدوده وتفاعيله وتفاريعه، علمًا يحمل في تضاعيفه تمثلاً رائعًا للنغم ولعلم الإيقاع، وهو يشهد له بإتقانه لنظريات العلوم الرياضية في عصره فهمًا وتحليلاً.

وكذلك فإن المنهج الذي اتّبعه في تأليف معجمه كتاب العين، مبني على نظرية التباديل والتوافيق الرياضية، فقد بناه على تقليب كل الصيغ الأصلية بحيث تندرج فيه مع كل كلمة، الكلماتُ الأخرى التي تجمع حروفَها وتختلف في ترتيبها بتقديم بعضٍ منها على بعض، وبذلك حصر في المعجم جميع الكلمات التي يمكن أن تقع في العربية(٨).

إن ذكر انتشار ذلك الفكرِ الرياضي في إنتاج العرب، والذي يبدو عمادًا ومستندًا لأهم ما اختصت به الحضارة العربية الإسلامية، قد غاب عن مؤلفات الكثير من الذين تناولوا تلك الحضارة في دراساتهم، إذ غلب على المؤلفين اهتمامهم بالمسار الفلسفي،

(٧) شوقي ضيف المدارس النحوية ص٣٠ دار المعارف ٢٠٠٨.

(٨) شوقي ضيف المدارس النحوية ص٣١ دار المعارف ٢٠٠٨.

إلى جانب الموضوعات اللغوية. فلا نرى مثلاً في المؤلفات الأبستمولوجية التي صنّفها المفكر الكبير محمد عابد الجابري سوى لمحات قليلة تخص الرياضيات في تحليلاته للفكر العربي. وكذلك فإن النظرة الحديثة إلى ابن خلدون تبرز مساهماته الكبيرةَ في تأسيس علم الاجتماع، ونظراته الثاقبة إلى حقائق التاريخ، ولكنها لا تذكر ما أكده عبد الله العروي[٩] في كتابه «مفهوم العقل» عن اهتمام ابن خلدون في مقدمته بمؤلفات ابن عن علم العدد، وبخاصة كتابهُ الموسوم «رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب».

أيها السيدات والسادة

إن الإصرار على أهمية هذه التيارات الفكرية المستندة إلى مسارات عقلية رياضية، يوصلنا إلى إقرار حقيقة يجب أن نصر على التذكير بها ألا وهي المشاركة الكبيرة للعرب في إنضاج ما أصبح يسمى الطريقة العلمية التي تولّى تقعيدها روجر بيكون في القرن الثالث عشر ثم ديكارت في القرن السابع عشر.

وقد برزت بذور الطريقة العلمية من تجارب العلماء العرب كابن الهيثم وجابر بن حيان والبيروني إذ أصَرّوا في أعمالهم على ضرورة الوصول إلى البرهان التجريبي الذي يدفع كل الشكوك.

ومن أهم ما نتج عن تلك المكانة العالية التي تبوأتها العلوم الرياضية ومشتقاتها في الحضارة العربية الإسلامية ما صدر عنها من مؤلفات هندسية تراثية، فبعد أن كانت مهنة البناء صناعةً بسيطة تطورت برقيِّ الحضارات، نرى العرب وقد برزوا بتلك المباني العملاقة المزخرفة، بدءاً من قبة الصخرة في بيت المقدس، والجامع الأموي في دمشق، وصولاً إلى جامع قرطبة وقصور الأندلس، وانتهاءً إلى المعمار العثماني وعجائب الهند، وفي مقدمتها التاج محل شاهداً على تناسقٍ وبهاء وإشعاع حضاري.

إن المنطلقات الرياضية في الحضارة العربية الإسلامية هي التي أفْضَتْ إلى ظهور

(٩) عبد الله العروي مفهوم العقل ص١٧٠ المركز الثقافي العربي بيروت ١٩٩٦.

الجغرافية والخرائط، والرياضيات الفلكية، وأنتجت صناعة لوائح الزيج والأسطرلاب، وتلك الآلةَ العجيبة المسماة «عصا الطوسي» وهي أسطرلاب خطي يمثّل مسطرة حاسبة زَلاّقة سبقت الحداثة بقرون عديدة، فقد عاصر الطوسي سقوط بغداد ١٢٥٨م.

وكان كل من الفارابي والتوحيدي في القرن العاشر الميلادي قد بيّن وجوب التمييز بين علم الهندسة وهو فرع من فروع الرياضيات، ومهنة الهندسة والمهندسين. وكذلك فإن كتاب أبي الوفا «ما يحتاج إليه الصانع من علم الهَندسة» في القرن العاشر أيضًا لدليل على انتقال الفكر العربي من النظريات إلى التطبيقات على أسس علمية.

وحقيقة الأمر أن العلوم القديمة دخلت في صلب الحضارة العربية الإسلامية في نهاية القرن الثالث، نتيجة أعمال الكندي والمهاني وثابت بن قرّة، وهذا ما فتح الأبواب أمام تمثلٍ حقيقي لتلك العلوم، وتوافقٍ على إعادة تركيب المنطلقات الفكرية لكل علم، معتمدين العقل للوصول إلى الحقيقة. فانطلقوا في مسار بدأ بطلب المعرفة من أجل المعرفة، قبل أن ينتقلوا إلى جعل المعرفة أساسًا لكل تطور حضاري، ليفيد الإنسان من علمه ويستطيع التأثير في عالمه، وهذا ما قادهم إلى ابتداع علوم جديدة في مشاركة بين حاجات عملية وموازنات نظرية.

لقد أصَّر العرب على تأصيل العلوم المستوردة في الفكر العربي الإسلامي، فلجؤوا إلى عملية تفاعلية لا تكتفي بالنقل الجامد لما وجدوه في علوم القدماء، بل مكّنتهم من الوصول إلى منطلقات لم تكن موجودةً في تلك العلوم، وأدخلتهم إلى المجال التجريبي، كما يتبين ذلك من أعمال البيروني في دراسة الأوزان النوعية للمواد، وأعمال ابن الهيثم الذي كشف مغاليق البصريات وأوضح مفهوم الغرفة المظلمة وهي أساس التصوير الضوئي الحديث، وحدّد مفاهيم الرؤية والشفوف والكثافة، وشرح الآلية الضوئية لظهور قوس قزح.

لقد تميز المفكرون العرب بكثير من المرونة في استحواذهم على العلوم التي وصلت إليهم، وما ذلك إلا لأن الإسلام، الذي يجمعهم في عقيدة واحدة، وهو مصدر التشريع والناظم لعلاقات المجتمع، كان محمولاً على لغة لها طاقات لا متناهية لم

تستطع المؤثرات الجغرافية، والعرقية، والسياسية أن تحرفها عن حقائقها بما ينتهي إلى تشويه نظرة المجتمع إلى العلوم. بل إن اللغة العربية كانت بخصائصها مرتكزًا متميزًا لتلك النهضة العلمية، وأعطت قيمًا جديدة للعلوم الدقيقة. ذلك أن الاستحواذ على المعارف القديمة قد وجد في الطاقات التعبيرية للغة العربية مجالاً فريدًا: هي لغةٌ تصدر عن جذور ثلاثية الحروف، وبعضها ثنائية كما أظهرت الأبحاث الحديثة، لغةٌ وصل عدد جذورها إلى ٣٢٧٦ جذرًا، وهي جذور خالدة وثابتة سواء أَجَرى استعمالها أم أهملت. واللغة العربية، إلى جانب كونها نظامَ علامات دالّة، هي مستودعٌ تاريخي وذاكرةٌ حافظة للماضي، يوحّدها الإعراب الذي يحدد المعنى ويتكفّل بانتظام الفكرة.

كما أن اللغة العربية حامل طبيعي لفكر تحليليٍّ انتقائي يبرز العلاقات بين اللفظ والمعنى بفضل المقاييس اللغوية، وهي لغةٌ تميزت بظاهرة التضمين وهو إيقاع لفظٍ موقعَ غيره لنُضمِّنَه معناه، حيث ينطوي اللفظ على نفسه ليأخذ مدلولاً جديدًا في عملية جبرية تولّد توضيحًا مجرّدًا مختصرًا. كما أنها من اللغات القليلة التي تقبل مفهوم الأضداد، وتبتعد عن التفرعات والتشجرات، مؤكدةً قواعد الاشتقاق.

فلا عجب أن وصلتنا اللغة العربية حاملةً لتراث لغوي وعلمي يسمح لنا بإدخال العلوم الحديثة إليها بقليل من العناء.

حين أدخل العرب العلوم التي وصلتهم من الحضارات السابقة في حضارتهم وضعوها أمام الحقائق التجريبية، مارّة من مصفاة دقيقة، هي اللغة العربية، تُهيكلُ المعرفة، وتُقَولب التعبيرات المناسبة لتوضيح المقصود. فكانت لهم جولات في العلوم الطبيعية، والطب، والنبات، والجغرافية، والكيمياء، والتاريخ، والسموم، إلى جانب العلوم المنبثقة عن الرياضيات كالفلك والهندسة وعلم الحيل.

يقول التوحيدي: «إن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان»

وهذا ما جعل العرب ينتقلون من المعارف التي تساعدهم على إيجاد الحلول لمتطلبات معيشتهم في حضارتهم المتنامية إلى التعاطي مع المتطلبات الفلسفية التي تُعينهم على فهم العالم وتُدخلهم إلى تحليل الفكر الذي يتيح لهم الربط بين قناعاتهم الإيمانية والحقائق الكونية.

أيها السيدات والسادة

لقد أوضحت لكم لماذا لن نقبل رأيَ القائلين بأن دور المجهود العربي في تاريخ العلوم إنما كان دوراً جزئيا هامشيا، قوامه نقل النصوص اليونانية والحفاظ عليها في ترجماتها العربية، يضاف إليه أن للعرب الفضلَ بإدخال النظام العَشري والأعداد الهندية بديلاً عن الحروف الرومانية، وأنهم اخترعوا الصفر الذي تولّدت عنه قفزةٌ نوعية عملاقة في علم الحساب.

كما أننا لا نريد أن نستبدل تلك النظرة المركزية الأوربية بنظرة تقريظية للعلوم العربية، تربط اليوم كلَّ ما نراه في الحضارات الغربية بِسبْق تاريخي وصل إليه العرب في أوج نشاطهم الحضاري، وهذا ما يجعل الحركة العلمية العربية الممتدة على قرون عديدة خزّاناً لكل الحقائق التي عاش عليها العلم، وهذا ما يحيل تراثنا إلى متحف للعادّيات الثمينة التي يقتصر عملُ التاريخِ اللاحق على صقلها وتقليدها أو محاكاتها.

إن المساعيَ العربية الحديثة إلى توطين العلوم في اللغة العربية وفي الفكر العربي تتجاوز مثل تلك التساؤلات، كما تتجاوز الانبهار بالحضارة الغربية، فما ذلك الانبهار إلا نتيجةٌ حتمية لما شرحه ابن خلدون عن العلاقة بين الغالب والمغلوب.

فإذا كان شبابنا اليوم مفتونين بكل ما يرونه في الحضارات الغربية، معجبين بلغتها المُعولمة، يكفينا أن نسوق إليهم ما كتبه المؤلّف الإسباني أنخل بلنثيا في كتابه عن تاريخ

الأندلس[١٠]: «إن المستعربين كانوا يُؤْثرون استعمال لغة العرب وأسماءَهم وأزياءهم، ويجتهدون في أن يأخذوا الطابع الإسلامي في كل مناحي حياتهم» وقد استشهد كذلك بكلام مؤلف إسباني من القرن الرابع عشر ألبيرو القرطبي يقول «إن الموهوبين من شبان النصارى اليوم لا يعرفون إلا لغة العرب وآدابها، ويُقبلون عليها بنَهَم وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها».

إن إعجابنا بعلوم الغرب وتقاناته لا يجوز أن يحرفَنا عن قيمنا ومعاييرنا الاجتماعية ويلغيَ ذاتيَّتنا الثقافية.

أيها السيدات والسادة

لقد حاولت أن أستذكر معكم في هذه الأمسية بعض النقاط البارزة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، تلك الشجرةِ الباسقة المزهرة المثمرة التي نحتمي بظلالها لنؤكد انتماءنا إلى ساحات فكرية جال فيها أجدادنا، ساعين إلى المشاركة في الارتقاء بالجنس البشري إلى المكانة العالية التي يستطيع العقل إيصالَه إليها.

وإنّا إذ نرحب بالمهندس الأستاذ الدكتور محمد سعيد الصفدي عضوًا عاملاً في مجمعنا كان لابد لنا من إبراز موقع العلوم الرياضية ومشتقاتها من هذا الصرح الحضاري الفسيح الأرجاء الذي شيَّده مجتمعٌ مؤمن ينطلق من نوازعَ إنسانية.

وهذا ما دعانا إلى تأكيد ما في حضارتنا من اهتمام حقيقي بالعلوم الرياضية التي كانت المرتكز الذي بُنيت عليه معظم العلوم العقلية والنقلية.

وقد ألمحنا إلى مكانة الفكر الرياضي الهندسي في مجالات اللغة والأمور الشرعية لدراسة المواقيت والفرائض، وأثرِه في كشف العروض الناظمِ للشعر، وأهميتِه في الدراسات البصرية

(١٠) أنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص٤٨٥-٤٨٦ ترجمة حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥.

والكيميائية وفي جميع العلوم وتطبيقاتها العملية وما برز فيها من تقانات.

إن مجمعنا يواجه في مسعاه الهادف إلى إيجاد تطابق بين اللغة العربية ولغة العلوم الحديثة صعوبات حقيقيةً، نظراً لما تعرفونه عن غزارة ما تنتجه الثقافة المادية المعاصرة من تقانات وهندسات تغمرنا في لُجَّة من المصطلحات، منها الكهربائية والحاسوبية وهندسة الطاقة وهندسة الجزيئات حتى وصلنا إلى هندسة الجينات في دراسة أمور الوراثة.

وها نحن نستقبل الدكتور الصفدي المتخصصَ في هندسة الاتصالات، لعله يساهم مع زملائه في إيجاد المصطلحات في ذلك المجال الآخذ في الاتساع.

إن هذا المجهود العلمي اللغوي يساعد حماة اللغة العربية في مسعاهم إلى توطين العلوم في اللغة العربية، لعلها تعود لتتبوأ المكانة اللائقة بها لغةً علمية عالميةً تحقق لأبنائها ذاتية ثقافية شاملةً لكل ما تستطيع اللغة حملَه فتتيح لهم معايشةَ الحضارات الحديثة فخورين بلغتهم التي تمثل محور حياتهم وتنصب فيها عناصر كيانهم.

ولذا فإني أختم بنبذة وجدتها في نصِّ كلمة ألقاها الأستاذ محمد كرد علي مؤسس مجمعنا في المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري عام ١٩٤٤ حيث يقتبس كلاماً للمؤرخ الإنكليزي الكبير توماس كارلايل في نهاية القرن التاسع عشر في «كتاب الأبطال»، يقول كارلايل:

«لو خُيِّرنا بين أن نترك شكسبير أو بلاد الهند لقلنا سواء أحكمنا الهند أم لم نحكمها فلا غنى لنا عن شكسبير، فسيجيء يومٌ يصبح فيه أبناء بريطانيا مبعثرين في نواحي الكرة وحينئذ يكون شكسبير المُلك الذي يضمنا جميعاً».

فهل يجوز لنا أن نتنكَّر لموقع اللغة العربية في حياتنا ونستخفَّ بذلك المُلك الذي ورثناه عن الأجداد؟ وهل من قائل بأن اللغة العربية لم تعد تجمعنا، أو أن لغة الجاحظ والرازي، وابن خلدون وابن الهيثم، غير قادرة على إدخالنا إلى الحداثة لنشارك في بناء مستقبلنا؟

كلمة الدكتور عمر شابسيغ
في حفل استقبال الدكتور محمد سعيد الصفدي
عضوًا في مجمع اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

الأساتذة أعضاء المجمع

الحضور الكريم:

السلام عليكم ورحمة الله.

يسعدني ويشرفني أن أقدم لكم الأستاذ الدكتور محمد سعيد الصفدي زميلاً عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق، وهو المتخصص في هندسة الإلكترونيات والاتصالات وله فيهما إسهامات كبيرة.

ولكن قبل كل ذلك أود أن أشير إلى بعض ما حاق باللغة العربية وخصوصًا اللغة العلمية المتصلة بالمصطلحات الحديثة.

في بدايات القرن العشرين، كان أهل العلم من هذه الأمة متشوقين إلى إعلاء شأن لغتهم، وجعلها لغة تلاحق لغات العالم في جميع ما طرأ من علوم حديثة، كما كان الأمر قبل سقوط غرناطة، عندما كانت العربية هي لغة العلم في العالم أجمع، وكانت في أوروبا لغة عِلْيَةِ القوم التي يُدخِلون من مفرداتها في لغاتهم، كما يفعل الآن

بعض محبِّي اللغات الأجنبية، عندما يرطنون بكلمات أجنبية لها ما يعادلها في اللغة العربية، فقط لإظهار معرفتهم بكلمات ولا أقول بلغة أجنبية للتباهي فقط.

وقد استطاع علماؤنا الأجلاَّء إدخال كل ما كان يستجد من كلمات علمية حديثة إلى اللغة العربية، وأذكر من ذلك وكمثال من ألوف الأمثلة كلمة أتومبيل. وكتبها البعض أطونبيل.وكانت هذه الكلمة دارجة «من الماء إلى الماء» ويستعملها ملايين العرب سواء في كلامهم الفصيح أم كلامهم العامي. ولكن علماءنا عندما قرروا استخدام كلمة السيارة شاعت هذه الكلمة ولم يعد الآن هناك من يستخدم الكلمة الأجنبية. ولم يحاول أحد من علمائنا إبقاء الكلمة الأجنبية معربة بحجة أنها انتشرت كما يقوم بعضهم بذلك الآن.

وأترحَّم على من عرَّب دراسة الطب في الجامعة السورية فجزاهم الله خيراً. كانوا ذوي همم عالية ويدفعون بالمصطلحات العربية لتتفوق على المصطلح الأجنبي بكل شجاعة. وأنا أريد أن يحصل نفس الشيء في باقي علوم العصر الحديث وابتداءً من الإلكترونيات والاتصالات وتقاناتهما.

وهذا ما دفعني إلى الإصرار على زيادة عدد أعضاء مجمع اللغة العربية في علوم الهندسة، وأولها علم الهندسة الكهربائية بكل تفرعاتها التي دخلت في كل مجال من مجالات العلم والحياة. وسأستمر في هذا الدفع حتى أرى لجان المجمع للمصطلحات العلمية وهي تضج بالعمل.

يسعدني ويشرفني أن أقدم لكم الأستاذ الدكتور محمد سعيد الصفدي زميلاً في مجمع اللغة العربية بدمشق، بعد أن كنا زملاء في العمل والتدريس منذ عام ١٩٧٧م وعرفته قبل ذلك طالبًا مجدا وهادئًا في كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية في جامعة دمشق.

الدكتور محمد سعيد الصفدي من مواليد دمشق عام ١٩٤٥م وانتسب في العام ١٩٦٤م إلى المعهد العالي الصناعي الذي أصبح كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية، حيث تخرَّج في تخصص الهندسة الإلكترونية والاتصالات في عام ١٩٦٩م وكان الأول في علاماته في الاختصاص، فأوفد في نفس العام للدراسة العليا في فرنسا حيث حصل منها في عام ١٩٧٤م على درجة الدكتوراه من جامعة بول ساباتية في تولوز، في مجال هندسة الإلكترونيات والاتصالات. عمل الدكتور الصفدي أستاذًا للهندسة الإلكترونية في جامعة دمشق منذ عام ١٩٧٤م وحتى ٢٠٠٨م وعمل باحثًا في مركز الدراسات والبحوث العلمية منذ عام ١٩٧٥م وحتى عام ٢٠٠٤م، حيث وصل إلى مرتبة مدير بحوث، وشارك في المركز في مؤتمرات المدرسة العربية للعلوم والتكنولوجيا وغيرها من النشاطات العلمية والصناعية.

وبدأ يعمل في التعليم الجامعي الخاص في عام ٢٠٠٤م في جامعة القلمون ثم في ٢٠٠٦م في الجامعة العربية الدولية، حيث قام بجانب التدريس، برئاسة قسم هندسة الحاسوب والاتصالات بين عامي٢٠٠٦م و ٢٠٠٨م ثم نائبًا لرئيس هذه الجامعة للشؤون العلمية بين عامي ٢٠٠٨م –٢٠٠٩م ثم عميدًا لكلية الهندسة المعلوماتية في نفس الجامعة منذ العام ٢٠٠٩م.

تولى الدكتور الصفدي رئاسة تحرير مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية بين عامي ٢٠٠٦م و ٢٠٠٩م.

المقررات التي درَّسها الدكتور الصفدي خلال حياته الجامعية كانت:

الدارات الإلكترونية– أسس الإلكترونيات– الاتصالات الحديثة– الإلكترونيات المتقدمة في الاتصالات.

وقام بالإشراف على أربع أطروحات ماجستير وأطروحتي دكتوراه.

وعمل الدكتور الصفدي أستاذًا زائرًا في جامعة بورتسموث في عام ٢٠٠٥م.

للدكتور محمد سعيد الصفدي عدد من المنشورات، فمن الكتب عنده عدة كتب جامعية هي:

١- نظم الاتصالات الحديثة (مشاركة) في عام ٢٠٠٨م.

٢- الدارات الإلكترونية ٣ (مشاركة) في عام ٢٠٠٤م.

٣- الدارات الإلكترونية ١ في عام ١٩٨١م.

ولديه أمليتان جامعيتان إحداها في فيزياء العناصر نصف الناقلة في عام ١٩٧٥ م والثانية في الإلكترونيات المتقدمة للاتصالات في عام ١٩٩٦م بالإنكليزية والعربية. كما قام بترجمة كتاب تطوير المنتج بنصف الوقت نقلاً عن الإنكليزية ونشرته المنظمة العربية للترجمة في بيروت.

للدكتور سعيد الصفدي ما يزيد عن (١٤) مقالة علمية باللغة الإنكليزية في مجلات ومؤتمرات.

يتقن الدكتور الصفدي إلى جانب العربية كلاً من الفرنسية والإنكليزية كما أنه ملم باللغة الألمانية.

اسمحوا لي أن أقدم التهاني إلى زميلنا الجديد وإنني بما أعرفه عنه من إتقان وإخلاص في عمله، ومن صدق في شخصيته أعتقد أنه سيساهم في نهضة مجمعنا مساهمة كبيرة.

والسلام عليكم

كلمة الدكتور محمد سعيد الصفدي
في حفل استقباله
عضوًا في مجمع اللغة العربية

السيد رئيس مجمع اللغة العربية الأستاذ الدكتور مروان المحاسني المحترم
السادة أعضاء المجمع الأفاضل
السيدات والسادة
السلام عليكم ورحمة الله

يطيب لي في هذا اللقاء العطر أن أبدأ كلمتي بتوجيه الشكر إلى كل الزملاء في المجمع، الذين تشرَّفت بالانضمام إلى مسيرتهم المباركة في النهوض بقدرات لغتنا العربية وتفعيل طاقتها الكامنة، لتستجيب على نحو عاجل ومتواصل، لمتطلبات الحضارة الحديثة التي نعيشها والتحديات التي مافتئت تطرحها.

لقد أعطتني الكلمة التي تفضل بها الآن السيد رئيس المجمع، قوة دافعة لمباشرة العمل في هذا المجال الجديد، حيث أعتبر نفسي بحاجة قوية لها وأتطلَّع قدمًا للمشاركة في تقاسم الأعباء وحمل المسؤوليات التي أراها منذ الآن كبيرة وعظيمة.

بالمقابل، أعطاني التقديم الذي تفضل به الزميل العزيز الدكتور عمر شابسيغ الفرصة للنظر إلى ما تحقق في سنوات العمر الماضية ، متسائلاً إلى أي حدٍّ يمكن

للواحد منا أن يزيد في العطاء، وأن يكثر من العمل الطيب الناجح والمفيد، ويقلل ما أمكن من مقابله الضعيف الجدوى والفائدة. إني لأتذكر بحنين وتقدير عظيمين تلك الأيام التي جمعتنا والدكتور عمر على مائدة البحث العلمي والتعاون فيه أواخر السبعينيات، حيث كانت الاتصالات الرقمية موضوعًا، فيه من الحداثة ومن التعقيد ما يجعله مادة لا ينتهي الحوار في أفرعها، وتستنهض الأفكار والقرائح لترجمة نظرياتها إلى تطبيقات لا تزال تتوالى وترتقي بأشكال ومنتجات لا تكاد تنتهي.

واسمحوا لي هنا أن أسجل بإكبار ذلك الجهد المتواصل والكبير، الذي بذله كوكبة من علماء هذه الأمة في تعبيد طريق البحث العلمي الطويل والشاق، وفي مقدمتهم أستاذنا الفاضل الدكتور عبد الله واثق شهيد، فله منَّا كل الشكر.

وجريًا على العادة النبيلة التي رسَّخها المجمع الكريم، واستجابة لطلب الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية في الحديث عن سلفي الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الحليم سويدان رحمه الله، فقد بذلت قصارى جهدي في تتبُّع سيرته الحميدة، ومحاولة الإحاطة بأهم الملامح في حياته العلمية الغنية. ثم إن المساعدة التي تفضَّل بها نجل سلفنا الكبير، الأستاذ هيثم سويدان قد يسرت لي الطريق في تحقيق هذه المهمة المنوطة بي. واسمحوا لي في هذا المقام أن أستعين كثيراً بالكلمات الطيبات التي صاغها أستاذنا الكبير الراحل الدكتور عبد الحليم سويدان في حفل الإثنينية المقام على شرفه في المملكة العربية السعودية عام ٢٠٠٤ إضافة إلى مقتطفات من كلمة التعريف التي ألقاها المربي الكبير الراحل الدكتور عبد الكريم اليافي في حفل استقبال سلفنا الدكتور سويدان في مجمع اللغة العربية عام ١٩٨٣.

ينقسم هذا الحديث إلى أربع مراحل أساسية هي:

– مرحلة الدراسة والتأهيل.
– مرحلة الإيفاد والدراسة في الخارج.
– مرحلة العمل الجامعي والوظيفي.
– مرحلة التقاعد والعمل بالمجمع وهيئة الموسوعة العربية.

١– مرحلة الدراسة والتأهيل

ولد المرحوم عبد الحليم سويدان في بلدة قارة من منطقة النبك سنة ١٩١٤ وكان والده حجار آغا سويدان ووالدته من أسرة الدعاس. أتم في مدرسة قارة الابتدائية السنوات الأربع الأولى من التعليم الابتدائي ثم انتسب في العام الدراسي ١٩٢٧ – ١٩٢٨ إلى مدرسة النبك الابتدائية، وأنجز فيها السنة الخامسة من ذلك التعليم، وحصل في شهر حزيران ١٩٢٨ على «شهادة التحصيل الابتدائي». وفي هذه السنة نفسها نجح في مسابقة كانت «وزارة المعارف» تجريها في كل عام لقبول طلاب داخليين مجاناً في «مدرسة التجهيز» (وكانت مشهورة آنذاك باسم مكتب عنبر) حيث أصبح في السنة الأولى بهذه المدرسة في العام الدراسي ١٩٢٨–١٩٢٩ وبقي فيها عدة سنوات طالبًا داخليا .

ولقد ظل الأول بين زملائه من «الصف السادس» حتى «الصف الحادي عشر» الذي نجح في نهايته في امتحانات القسم الأول من «بكالوريا التعليم الثانوي»: وفي نهاية «الصف الثاني عشر» وفي دورة حزيران ١٩٣٥ حصل على القسم الثاني من «بكالوريا التعليم الثانوي» (شعبة الرياضيات بدرجة جيد جدا) ولقد كان لهذه الدرجة وزنها في ذلك الزمان. وقبل ذلك ، وفي نهاية العام الدراسي ١٩٣٣–١٩٣٤ كان قد تقدم لامتحانات شهادة أهلية التعليم للمعلمين ونجح فيها وحاز هذه الشهادة .

ثم عُين معلمًا في مدينة دير الزور في العام الدراسي ١٩٣٥-١٩٣٦ .

لا شك أن المتأمل في نتائج هذه المرحلة الأساسية من تكوين عالمنا القدوة، تنبئه عن الكثير من خصائصه وإنجازاته، التي ظهرت تباعًا في مراحل حياته الطويلة والحافلة.

٢- مرحلة الإيفاد والدراسة بالخارج

في صيف عام ١٩٣٦ أخذ الراحل يستعد لدخول مسابقة كانت وزارة المعارف تزمع إجراءها لإيفاد طلاب للدراسة في الجامعات الفرنسية ليحصلوا منها على درجة «الإجازة»، وليعودوا بعدها مدرسين في التعليم الثانوي .وكان في استطاعة عبد الحليم سويدان أن ينجح في أية مسابقة يتقدم إليها من مسابقات وزارة المعارف، ولكنه قرأ بالمصادفة ذات يوم إعلانًا صادراً عن وزارة الزراعة حول مسابقة لإيفاد طلاب لدراسة الطب البيطري في المدرسة الوطنية للطب البيطري في «ألفور» ALFORT في ضاحية باريس، وهي مدرسة كانت شهيرة في فرنسة وفي العالم .فقال في نفسه وهو واثق بقدرته على الدراسة وغير عالم آنذاك طبيعة الدوام في مثل هذه المدارس : سأتقدم لهذه المسابقة وسأدرس الطب البيطري والطب البشري في آن واحد بالعاصمة الفرنسية .

وهكذا صرف النظر عن مسابقات وزارة المعارف، ونجح الأول في مسابقة وزارة الزراعة والتحق بمدرسة ألفور في العام الدراسي ١٩٣٦-١٩٣٧ وعندها وجد أن طبيعة الدوام القاسي في هذه المدرسة لم تكن لتترك له على الإطلاق أي مجال للتفكير في تحقيق هدفه الآخر وهو دراسة الطب البشري في جامعة باريس، فاستقر على درجة الطب البيطري في مدرسة ألفور إلى أن حصل عام ١٩٤٢ على درجة دكتور في الطب البيطري وكانت تمنحها آنذاك وزارة المعارف الفرنسية وأكاديمية باريس .

ولقد أعد أطروحته لهذه الدرجة العلمية في مخبر علم الطفيليات، العائد لكلية الطب البشري في جامعة باريس، وكان يدير هذا المختبر في ذلك الحين أستاذ علم الطفيليات في كلية الطب البشري في جامعة باريس وعضو الأكاديمية الطبية الفرنسية، وأحد علماء الطفيليات المشهورين يومها في العالم وهو الأستاذ «برومت» prumpte وكان موضوع الأطروحة «داء الشريطية» الكورة الشوكية العامة وفي سورية خاصة. وفي العام الدراسي ١٩٤١–١٩٤٣ حصل من جهة أخرى على شهادة معهد الطب البيطري الأجنبي (Exotique).

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية حُكم على الطلاب العرب كلهم، ومنهم الطلاب السوريون بألا يستطيعوا العودة إلى بلادهم، وكان على عبد الحليم سويدان أن يبقى في العاصمة الفرنسية مثل غيره مدة لم يكن في مستطاع أحد أن يتوقع منتهاها .وعلى هذا فقد انتسب أيضًا إلى كلية العلوم في جامعة باريس وحصل منها على خمس شهادات تخصصية هي:

- شهادة الدراسة العالية في علم الحيوان.
- شهادة الدراسة العالية في علم النبات.
- شهادة الدراسة العالية في علوم الكيمياء الحيوية.
- شهادة الدراسة العالية في الفيزيولوجية العامة.
- شهادة الدراسة العالية في علم الحياة العام (البيولوجية العامة).

كما انتسب في الوقت نفسه إلى مخبر علمي التشريح والنسج المقارنين بكلية العلوم في جامعة باريس، ليعد أطروحة لنيل درجة **دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية**، ومشى في هذا الطريق خطًا مشجعة، ولكنه لم يكملها بسبب عودته إلى الوطن.

في ذلك الزمن الصعب، زمن الحرب العالمية الثانية، كانت المعيشة في باريس ضنكًا مغمورة بطوفان الظلام والتقتير والجوع .وكانت التدابير الأمنية شديدة جدا وتقتير المؤونة المعاشية مجحفًا جدا لا يكاد المرء يصل الى الكفاف . باريس مدينة النور قبلاً باتت معتمة بسبب الدفاع المدني السلبي . باريس مدينة الدفء قبلاً غدت مدينة القرِّ إذ توقفت التدفئة المركزية في شهور طويلة إبَّان فصل الشتاء . باريس مدينة الأمن والثقافة والحفلات أمست الغارات الجوية تُبَيِّتُها كل ليلة وتغاديها كل نهار، ولا سيما في السنوات الأخيرة من الحرب .

في ذلك المحيط الصعب العصيب، بدلاً من أن يخلد الطالب إلى الوجل والكسل، عمد الشاب سويدان إلى متابعة دراسته في السوربون بعد أن أنهى الدكتوراه المطلوبة منه، فجنى تلك الشهادات العليا الخمس التي أشرنا إليها آنفًا، مع أن كل الأشياء تدفع إلى التوقف عن الدراسة بعدما وصل المرء إلى ما هو مطلوب إليه منها.

كان ذلك شأنه هو مع فئة من الطلاب الذين تابعوا مسيرة الدراسة والجدِّ والتحصيل مع الأهوال التي كابدوها . لقد كانوا يفكرون دائمًا في أحوال وطنهم وأهليهم ويتنسَّمون أخبار أمتهم العربية ليرفعوا رؤوسهم حين يرون انحسار ليل النازية عن أوربة، ومعها ليل الاستعمار عامة عن البلاد المنتدب عليها والمستعمرة، انحسارًا تدريجيا مستندًا إلى حركة الشعوب وتقدم الإنسانية. وكم اجتمع طلاب سوريون ولبنانيون ومغاربة في ندوات للتنديد بالمستعمرين ولمقاومة قرن الصهيونية الذي بدأ يَذر وينذر بالخطر آنذاك!

في شهر آب ١٩٤٥م عاد عبد الحليم سويدان من فرنسة إلى الوطن، ضمن قافلة كبيرة من الطلاب العرب السوريين واللبنانيين على ظهر باخرة كان اسمها مراكش، ويبدو أنها كانت أول باخرة تعبر البحر الأبيض المتوسط بعد انتهاء الحرب

العالمية الثانية. والذين كانوا على ظهر هذه الباخرة لا يزالون يذكرون طرائف هذه الرحلة ،غير أنهم يذكرون بالأخص وبكثير من المرارة والألم أنهم سمعوا وهم عليها نبأ إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما .

٣– مرحلة العمل الجامعي والوظيفي

بعد عودته إلى الوطن عُين عبد الحليم سويدان في مديرية الصحة الحيوانية بوزارة الزراعة بمدينة دمشق، ثم نقل إلى مدينة حماة وبقي فيها مدة ثم أعيد إلى دمشق، ثم استقال من وظيفته في وزارة الزراعة في شهر آذار سنة ١٩٤٩ تمهيدًا لتعيينه بكلية العلوم في الجامعة السورية. لقد كانت تلك المرحلة مهمة في حياة سلفنا الراحل بفضل اطلاعه على واقع الثروة الحيوانية في سورية، والتي تشكّل جزءًا مهما من الاقتصاد الوطني حينئذٍ، فضلاً عن مبادراته في سبيل الحفاظ عليها وتطويرها باطراد.

وفي شهر تموز ١٩٤٩ عين أستاذًا مساعدًا في كلية العلوم ثم رفّع في أول عام ١٩٥٢ إلى أستاذ بلا كرسي وأدى خدمة العلم من ١٩٥٣/٩/١٥ إلى ١٩٥٤/٩/١٥ .وفي أول عام ١٩٥٦ أصبح أستاذًا ذا كرسي .وفي آخر عام ١٩٥٨ أصبح عميدًا لكلية العلوم ثم عُين وكيلاً لجامعة دمشق في شهر تشرين الأول سنة ١٩٦٠ .وفي شهر كانون الثاني ١٩٦٢ عاد إلى وظيفته أستاذًا في قسم علم الحيوان بكلية العلوم .وفي الثامن من آذار سنة ١٩٦٣ سمي وزيرًا للزراعة .

وبتاريخ ١٩٦٩/٩/٣٠ استقال من وظيفته في كلية العلوم وأصبح خبيرًا لليونسكو في مدينة الرباط أستاذًا في «المدرسة العليا للأساتذة» التي كان هدفها إعداد مدرسين لتعليم العلوم باللغة العربية وبقي في هذه الوظيفة ثلاث سنوات دراسية.

وفي العام الدراسي ١٩٧٣–١٩٧٤ تعاقد مع جامعة الجزائر الشقيقة وكان أستاذًا في الشعبة (المعربة) من قسم العلوم الحيوية في كلية العلوم في جامعة الجزائر .

ولعل الذين زاروا جامعة الجزائر العاصمة، أو جامعة الرباط بعد أن غادرها عبد الحليم سويدان قد سمعوا هناك ما استنتجوا منه كيف كان قيامه بواجبه في الجامعتين الشقيقتين.

وابتداءً من شهر آب سنة ١٩٧٤م أصبح مرة جديدة خبيراً لليونسكو في (زائير) فكان لليونسكو مستشاراً فنيًا رئيسيا في (المعهد العالي للدراسات الزراعية) بمدينة (كيسنغاني) (kisangani) (ستنلي فيل سابقًا) وهو معهد من جامعة زائير عمل فيه أربع سنوات دراسية كانت اثنتان منها لحساب اليونسكو واثنتان لحساب جامعة زائير . ثم عاد بعدها إلى دمشق .

وفي شهر أيار سنة ١٩٧٨ أعيد إلى وظيفته السابقة في كلية العلوم في جامعة دمشق أستاذًا في قسم علم الحيوان بقرار من وزارة التعليم العالي .

ثم أحيل على التقاعد في ١٩٧٨/١٢/٣١ لبلوغه الخامسة والستين ثم مدد تعيينه سنة فسنة حتى أكمل السبعين في ١٩٨٣/١٢/٣١ .

وعندما بدأ التدريس في قسم علم الحيوان في كلية العلوم سنة ١٩٤٩ كان وحده تقريبًا في القسم، ولذلك بقي مدة يدرس معظم نطاقات علم الحيوان وعلم الحياة الحيوانية، وأعد كثيراً من الأمالي التي اشتملت على عدد كبير من المصطلحات العلمية التي وضعها . ولكنه لم يستطع إخراج هذه الأمالي في كتب، لأن قلة أعداد الطلاب آنذاك في كلية العلوم لم تكن لتساعد على تأليف كتب كثيرة الأشكال كبيرة التكاليف. وعندما أقرت الجامعة قواعد كان من شأنها التشجيع على التأليف كان هو يومها خارج الوطن . وبعد أن أعيد إلى وظيفته عند رجوعه من زائير وضع كتابين لمادتين كُلف تدريسهما في القسم وهما (تطور المتعضيات الحيوانية) لطلاب السنة الرابعة من فرع العلوم الطبيعية في كلية العلوم و (علم الحياة الحيوانية) (وهو يشتمل

على علم الجنين وعلم الوراثة) لطلاب السنة الأولى من كلية الصيدلة في الفصل الدراسي الثاني، وضعهما ملتزمًا بالقواعد المحددة التي يجب أن يتقيد بها مؤلِّف الكتب الجامعية .

ولقد كان لعبد الحليم سويدان ولأمثاله من الرعيل الأول، الذين سبقوا إلى التدريس في جامعة دمشق، شرف الإسهام في إيفاد النخبة المبرزين من طلابهم إلى الجامعات الأجنبية لنيل درجة الدكتوراه، ومن ثم المساهمة في عملية البناء الموفقة للجامعة السورية وصولاً إلى ما وصلت إليه في وقتنا الحاضر.

٤– مرحلة التقاعد والعمل بالمجمع وهيئة الموسوعة

لقد تنقَّل الأستاذ عبد الحليم سويدان من حرم علمي إلى حرم علمي آخر . وهكذا قيض له ألا ينقطع عن المذاكرة والبحث والعلم والتأمل الفكري . شأنه في ذلك شأن إخوانه الذين ينضم إليهم يشدون أزره ويشد أزرهم في هذه الحياة المشتبكة الحديثة، التي من أخص صفاتها لزوم قيامها على التعاون للتقدم وعلى التضامن لاطراد النجاح والتوفيق.

أمضى الدكتور سويدان نحو ثلاث وعشرين سنة من العمل في المجمع مشاركًا في اجتماعاته وفي الندوات والمناشط التي عقدها المجمع مابين عامي ١٩٨٣م و٢٠٠٦ م. كما شارك في عمل لجنة مصطلحات العلوم الطبيعية وتقاناتها، ولجنة تنسيق المصطلحات وتوحيدها وألفاظ الحضارة، ولجنة المعجمات اللغوية، ولجنة النشاط الثقافي، ولجنة المجلة والمطبوعات.

من جهة أخرى، عكف الدكتور سويدان منذ تعيينه عضوًا في هيئة الموسوعة العربية وتسميته رئيسًا لقسم العلوم التطبيقية – وهو من بين أهم وأكبر الأقسام– على انتقاء وتنظيم مساقاته وتحديد المواضيع التي تدخل في اختصاص هذا القسم،

وهذا بحر زاخر من المعلومات لاشاطئ له، يغرق فيه من لا يحسن إدارة دفته ولا يعلم خفاياه. ومن المعلوم أن الأمر لايقتصر على مجرد انتقاء رؤوس الموضوعات ووضع مقابلها باللغتين الإنكليزية والفرنسية، ومن ثم ضمها إلى المساق بترتيبها المعجمي وفهرستها وتنظيمها في بطاقات، بل يتعداه إلى مناقشة مضمون كل مدخل ووضع التوصيف المناسب لكل موضوع، وتحديد حجمه وعدد كلماته وأسلوب معالجته، واقتراح اسم المؤلف الأنسب لكتابة الموضوع، ومن ثم مراجعة وتنقيح ما كتب لغةً ومضموناً وفق النهج المعتمد. لقد تطلب هذا العمل وقتاً وجهداً كبيرين جدا حيث تكفي الإشارة هنا إلى أن عدد مداخل مساق حرف الألف فقط من الموسوعة بلغ ١٥٢٧ مدخلاً احتلت بحوثها ثلاثة مجلدات كاملة لكل منها ١٠٠٠ صفحة من القطع الكبير.

وكان من أبرز إسهامات الدكتور سويدان في هذا النشاط الكبير مشاركته الفاعلة في تحديد مبادئ انتقاء المصطلح تجنباً لتعدد التسمية واختلاط المعنى، وكذلك حرصه الشديد على أن تخرج الموسوعة بلغة عربية سليمة بلا تزمت خالية من الكلمات الغريبة، بعيدة عن الإغراق في اصطناع المصطلح.

أعود للتذكير بكلمات سلفنا الكبير المرحوم الدكتور عبد الحليم سويدان في حفل استقباله بالمجمع عام ١٩٨٣ حين قال:

«إنني وقد ثقل على كتفي وزن السنين سأحاول بكل استطاعتي أن أتتبع خطاكم وأن أسير على هديكم، وأن أستمد من تجاربكم، هادفاً إلى ضم يدي الضعيفة إلى أيديكم القوية وجهدي المحدود إلى جهودكم الكبيرة في سبيل خدمة هذا المجمع وتحقيق أغراضه وأهدافه، وسأبذل كل طاقتي في حقل المصطلحات العلمية عامة ومصطلحات علوم الحياة خاصة . ويستمر قائلاً:

لقد كتبتم يا سادتي عن أهمية المصطلحات العلمية ودورها في تدعيم لغتنا العربية وصمودها . ولن أتصدى الآن لهذه المسألة فلن يكون في مستطاعي أن أضيف إلى ما كتبتم أنتم شيئًا جديدًا، وإن عدت إلى هذه الناحية بشيء من القول فإنني لواثق من أنه سيكون دون ما كتبتم أنتم دقة وشمولاً وإقناعًا وجمالاً . وأجيز لنفسي فقط أن أكرر أن العلم في هذه المرحلة الزمنية ينطلق انطلاقًا رائعًا في كل اتجاه، وتمتد آفاقه امتدادًا مذهلاً، وأن علينا أن ندرك أن كل معركة هي معركة علمية، وأن الانتصار أو الهزيمة في كل شيء يرجعان في آخر التحليل إلى انتصار علمي أو هزيمة علمية، وأن الحسم في كل شيء يكاد أن يكون حسمًا علميا .

وهنا يجب أن تبقى لغتنا قادرة على التعبير بدقة وأمانة عن كل ما ينتجه الفكر البشري ويصوغه، وعن كل ما يكتشفه أو يخترعه ويبدعه . وإن المصطلحات العلمية السليمة الصحيحة معنىً وصياغةً تبقى لَبنات أساسية في بنية النصوص العلمية التي ننقلها إلى لغتنا العربية .

ويجب أن يمثِّل اهتمامنا بالمصطلحات العلمية ما يشبه حركة دائمة توازي التجديد المستمر في نطاقات العلوم كافة .

وإن على كل مؤسسة عربية تهتم بالمصطلحات العلمية، وهي تعرف ما عندها، أن تظل على علم دائم بما يكون في كل وقت عند مثيلاتها .

وإن إحكام الصلات إحكامًا وثيقًا ثابتًا مستمرًا بين هذه المؤسسات، هو أمر أساسي لعدم هدر الجهود، وللبقاء على الطريق التي تؤدي إلى توحيد المصطلحات العلمية قوميا بعد توحيدها قطريًا . لقد آن الأوان لإعداد خطط للانتهاء من مرحلة المصطلحات المرتبطة بأساتذة أو بقسم أو بكلية أو بجامعة أو بقطر، والانتقال إلى مرحلة توحيدها عربيا» . ختم د. سويدان كلامه قائلاً:

سيداتي سادتي

إننا كلنا متفقون على أن هنالك مسألة لها شأنها فيما يتعلق بمكانة لغتنا ومستقبلها، هي أن تظل قادرة على أن تستوعب في كل وقت ما يستجد من جوانب المعرفة في مختلف الميادين العلمية والتقنية . إن لغتنا هي الآن الدعامة الأساسية في بنية الأمة العربية، وهي العمود الفقاري في هيكل القومية العربية. إنها نَفَس أمتنا القوي الصامد في جسمها المتفكك الأحشاء، فمن أراد بالأمة العربية خيراً خدم لغتها وصانها من العابثين، ومن أراد بهذه الأمة شراً صوّب سهامه إلى هذه اللغة ونفث سمومه في عروقها . ومن هنا تتجلى لنا روعة المهمة المقدسة التي يضطلع بها المجمع في خدمة اللغة العربية وإعلاء شأنها .

وهنا أتوقف عند يوم الإثنين الموافق لـ ٢٤ نيسان ٢٠٠٦م حين انطفأ هذا المصباح المنير وصمت هذا الرجل الكبير إلى الأبد تاركًا لنا أسوة حسنة نهتدي بضيائها وننسج على نهجها، لنضمن الاستمرار في تحقيق الهدف الكبير – وهو تحقيق الحضارة المنشودة لهذه الأمة – الذي كان بلا شك وراء إنجازات أستاذنا الراحل الدكتور عبد الحليم سويدان، طيب الله ثراه.

شكرًا لإصغائكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الكتب والمجلات المهداة

إلى مكتبة مجمع اللغة العربية

في الربع الثالث من عام (٢٠١٠)

أ – الكتب العربية

د. سعد الدين المصطفى(*)

– **الأفاكيه والنوادر**: د. عبد الله بن سليم الرشيد، دار طويق للنشر والتوزيع الرياض، ١٤٢٣هـ.

– **أسس التقنية الكهربائية**: د. إحسان شريتح، جامعة تشرين، ١٩٩٣م.

– **إسرائيليات: اللجنة الشعبية العربية السورية**: عدد خاص عن إيران النووية، معهد أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي، ٢٠١٠م.

– **أصالة علم الأصوات**: د. أحمد قدور، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٣م.

– **أعمال ندوة النصوص المطبوعة ودورها في صون الموروث الثقافي**: د. نادر سراج، بيروت، ٢٠١٠م.

– **آليات النطق في رسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا**: د. أحمد قدور، دار القلم ودار الرفاعي بحلب، ٢٠١٠م.

– **أنت يا فيحاء ملهمتي**: د. عبد الله الصالح العثيمين، مركز صالح بن صالح في عنيزة بالسعودية،

(*) عضو الهيئة الفنية في مجمع اللغة العربية.

١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

- **تأملات في التاريخ والفكر**: د. عبد الله الصالح العثيمين، النادي العربي الأدبي، الرياض، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
- **تراسل المعطيات**: د. إحسان شريتح، جامعة دمشق، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م (١ + ٢).
- **تكنولوجيا النانو**: د. محمد شريف الإسكندراني، عالم المعرفة، ٢٠١٠م.
- **خواطر حول الوطن والمواطنة**: د. عبد الله الصالح العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٣١هـ.
- **دواوين كوفية**: جمعها وحققها هلال بن ناجي، دمشق: دار الينابيع، ٢٠٠٨م.
- **السيف والعصا**: د. عبد الله بن سليم الرشيد، الرياض، مكتبة الملك فهد، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
- **صور من التحليل الأسلوبي**: د. أحمد محمد قدور، دار الرفاعي ودار القلم بحلب، ٢٠٠٥م.
- **طواحين النار**: (**شعر**) د. عبد الخالق كلاليب، دار الإرشاد بحمص، ٢٠١٠م.
- **عام من الذل والانخداع**: د. عبد الله الصالح العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠١٠م.
- **القديس مارا اسطثاوس**: تأليف موفق نيسكو، مكتبة السائح، طرابلس – لبنان، ٢٠٠٩م.
- **ما بقي من كتاب الرحل**: الخوارزمي، تحقيق: د. عبد الله بن سليم الرشيد، مركز حمد الجاسر، ٢٠٠٩م.
- **مبادئ اللسانيات**: د. أحمد قدور، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨م.
- **مجتمع البادية القديم**: د. عبد الله بن سليم الرشيد، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٧هـ.
- **المدخل إلى فقه اللغة العربية**: د. أحمد محمد قدور، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٦م.
- **مذكرة في قواعد الإملاء**: د. أحمد محمد قدور، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢م.
- **المختار من الأدب الإسلامي**: د. أحمد محمد قدور، دمشق: دار الفكر، ١٩٩٤م.
- **مشاعر في زمن الوهج** (**شعر**): د. عبد الله الصالح العثيمين، دار العلوم، الرياض، ٢٠٠٩م.
- **مصنفات اللحن والتثقيف حتى القرن العاشر**: د. أحمد قدور، وزارة الثقافة وإحياء التراث،

١٩٩٦م.

- **مقالات في اللغة والأدب**: : د. أحمد قدور، دار القلم العربي بحلب، ٢٠٠٩م.
- **مقطعات الأعراب النثرية إلى نهاية القرن الرابع**: د. عبد الله بن سليم الرشيد، مكتبة الملك فهد، ٢٠٠٦م.
- **من وحي رحلات إلى خارج الوطن**: د. عبد الله الصالح العثيمين، مكتبة الرشد بالرياض، ٢٠١٠م.
- **المنهج الموحَّد للتدريس الديني وتحفيظ القرآن الكريم**: وزارة الأوقاف، ٢٠١٠م.
- **نجد قبيل ظهور الشيخ ابن عبد الوهاب**: د. عبد الله الصالح العثيمين، الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠١٠م.

ب– المجلات العربية

أ.ماجد الفندي(*)

اسم المجلة	العدد	سنة الإصدار	المصدر
– الأسبوع الأدبي	١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩	٢٠٠٩م	سورية
– بناة الأجيال	العددان ٧٠– ٧١	٢٠٠٩م	سورية
– التراث العربي	العدد ١١٢	٢٠٠٨م	سورية
– الحياة الموسيقية	العددان ٥٠، ٥١	٢٠٠٩م	سورية
– صوت فلسطين	الأعدد/ ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦	٢٠٠٩م	سورية
– الضاد	السنة /٧٩/ العدد ٣، ٤	٢٠٠٩	سورية
– عالم الذرة	العدد ١٢٠، ١٢١	٢٠٠٩م	سورية
– الفكر السياسي	السنة /١٢/ العدد ٣٣	٢٠٠٩م	سورية
– مجلة جامعة دمشق للعلوم التربوية	المجلد /٢٤/ العدد ٢	٢٠٠٨م ٢٠٠٧م ٢٠٠٨م	سورية
– مجلة جامعة دمشق للعلوم الصحية	المجلد /٢٤/ العدد ٢	٢٠٠٨م	سورية
– مجلة جامعة دمشق للعلوم الزراعية	المجلد /٢٤/ العدد ٢	٢٠٠٨م	سورية

(*) إجازة في المكتبات من جامعة دمشق.

اسم المجلة	العدد	سنة الإصدار	المصدر
– المعلم العربي	العدد ٤	٢٠٠٨م	سورية
– المهندس العربي	العددان ١٥٩، ١٦٠	٢٠٠٨م	سورية
النشرة الأخبارية	العدد ٧٧	٢٠٠٨م	إيران
فكر وفن	السنة /٤٨/ العدد ٩	٢٠٠٩م	ألمانيا
– المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها	الأعداد ١، ٢، ٣ مجلد /٤/	٢٠٠٨م	الأردن
– عالم الكتب	العددان /٥– ٦/ المجلد ٢٩	٢٠٠٨م	السعودية
الفيصل	٣٩٣– ٣٩٤	٢٠٠٩م	السعودية
– المجلة العربية	٣٨٧، ٣٨٨	٢٠٠٩م	السعودية
– مجلة الأدب الإسلامي	العدد ٦٢	٢٠٠٩م	السعودية
– البيان	٤٦٥– ٤٦٦	٢٠٠٩م	الكويت
– العلوم	/١– ٢– ٣– ٤– ٥– ٦/ المجلد ٢٥	٢٠٠٩م	الكويت
المجلة العربية للعلوم الإنسانية	السنة /٢٧/ العدد ١٠٦	٢٠٠٩م	الكويت
الدراسات الفلسطينية	العدد ٧٧	٢٠٠٩م	لبنان
صوت الأمة	٣– ٤ المجلد /٤١/	٢٠٠٩م	الهند

النشرة الاجنبية:

ربى معدني(*)

I- Books:

- Par- dela le désir/Pierre La Mure.
- Tales of Mystery and Imagination/ Edgare Allan Poe.
- Précis analytique de correspondance commerciale/ Albert Holveck.
- Law and practice of Banking/ Sohrab R.Davar.
- L'éducation Communiste/M.Kadinine
- Quelques problèmes du mouvement révolutionnaire/Boris Ponomarer.
- De quoi vivait Chopin?/Suzanne et Denise Chainaye.
- L'anglais vivant/Carpentier.
- Contre le Fascisme et la Guerre/Georges Dimitrov.

II- Periodicals:

- Hamdard Islamicus, Vol.30, N.3-4 (2007).
- Ibla: Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes, N.200 (2007)- 201 (2008).
- Journal of Asian and African studies, N.74 (2007).
- Le Muséon: Revue d'études orientales, Tome 121, Fasc.1-2 (2008).
- The Muslim World, Vol.98, N.2-3 (2008).

(*) إجازة في الأدب الفرنسي من جامعة دمشق.

الفهارس العامة للمجلد الخامس والثمانين

أ- فهرس أسماء الكُتّاب:

د. إبراهيم محمد البب ١٠٣٣
د. إحسان النص ٧
د. أحمد خان ٥٤١
أ. أحمد العلاونة ١١٦٧
د. أحمد علي محمد ٣٧
د. أحمد قدور ٦١٦، ٩٧٧
د. أحمد النعيمي ٥١
د. أسامة اختيار ١٠٧٧
د. إسماعيل القيّام ٧٠٣
أ. أيمن ذو الغنى ٩٣٣
د. تركي بن سهو العتيبي ٥٤٥
د. جمال محمد مقابلة ١٠١١
أ. جورج صدقني ٢٤٤
د. زهير غازي زاهد ٦٨٥
د. سناني سناني ٨٢٥
أ. الشارف لطروش ٥٦١
د. شمس الإسلام حالو ١٢٣
د. ظافر يوسف ٩٩٥
د. عباس الجراخ ٣٨٧
د. عبد الإله نبهان ١٧٩، ٢٨٧، ٥٢٥، ٨٨٩
د. عبد البديع النيربابي ١٠٥٥

د. عبد الجليل مصطفاوي ١٠٩٩
أ. عبد الحليم عبد الله ٨٤٩
د. عبد الرحيم عسيلان ٤٢٥
د. عبد العزيز طشطوش ٧٢٥
د. عبد الكافي المرعب ٣٦٣
د. عبد الكريم الأشتر ٥٣١
د. عمر شابسيغ ١٢٠٢
د. عيسى العاكوب ٦٠٩
أ. عيسى فتوح ٨٧١
د. قحطان الفلاح ٩٣
د. لبانة مشوح ٢٥٤
د. ماجد أبو ماضي ٧٥
د. مازن المبارك ٢٧٩، ٣٤٩، ٨٨٥، ٩٦٣
د. محمد بن تتا ١١١٩
د. محمد خير البقاعي ١٨٥
د. محمد رضوان الداية ١١٤٩
د. محمد سعيد الصفدي ١٢٠٦
د. محمَّد صالح العسكري ٤٧١
د. محمد طاهر الحمصي ٦٦٣
أ. محمد الفجر ٥٠١
د. محمد محفِّل ٥٨٠
أ. محمد المهدي الرفاعي ١٣٩
د. محمود الحسن ٤١٣، ٩١٩
د. محمود السيد ١٥، ٣١٩، ٦٣٩، ٩٤٧
د. مروان المحاسني ٢٣٤، ٢٦٩، ٥٧٠، ٥٩٨، ١١٩٠
د. مصطفى عبد المولى ٨٠٥
د. مكي الحسني ١٧١، ٥١٩، ٨٨١
د. ممدوح خسارة ١١٣٩

د. مهى المبيضين ٧٢٥
د. المهدي بوروبة ٤٤٣
د. مهدي عرار ٧٤٩
د. هاني رزق ٥٨٤
أ. هفل اليونس ١٥١
د. وحيد كبابة ٧٧٩

ب– فهرس العناوين:

آراء مهدي المخزومي في تيسير النحو ٥٦١
أبقراط الطبيب ٣٦٣
أثرُ الإقصاء المشرقيّ للأدب الأندلسيّ ١٠٧٧
استدراكات الصغاني على صَحاح الجوهري ٨٠٥
الأصوات المفردة عند سيبويه ١٠٣٣
أضواء على كتاب «العادة» لجبر ضومط ١٥
الأفعال الرباعية نشوؤُها واستعمالها ٩٩٥
بلاغة الاقتصاد على انتباه السامع عند جَبْر ضُومِط ٧٧٩
بين اللسانيات وعلوم اللغة ٩٧٧
التصحيف والتحريف في معجم الصحاح ٤٧١
التطور الدلالي للمصطلح الفقهي ٨٢٥
تعاليق على تحقيق كتاب الأنواء ١٨٥
تعريف بكتاب رسائل في اللغة للبَطَلْيَوسي ٩١٩
تعقيب على المستدرك على ديوان ابن الرومي ٤١٣
التعليم العربي في مواجهة التحديات ٣١٩
تعليم النحو ٩٦٣
توحيد الضمير بعد العطف ٥١٩
الجملة الحالية في مباحث البلاغيين ١٠٩٩
حفل استقبال الأستاذ الدكتور أحمد قدور ٥٩٧

حفل استقبال الدكتور عبد الإله نبهان ٢٦٨
حفل استقبال الدكتورة لبانة مشوح ٢٣٣
حفل استقبال الأستاذ الدكتور محمد سعيد الصفدي ١١٨٩
حفل استقبال الأستاذ الدكتور هاني رزق ٥٦٩
حكاية أبي القاسم البغدادي ١١١٩
خليل مطران شاعر الأقطار العربية ٨٧١
الدراسة المقطعية في التراث ٤٤٣
الرسائل في عصر التّقانة، مضمونها ولغتها ٩٣٣
رسالة في شرح بيت لمالك بن الريب ٥٤١
الرسالة الموسومة بالإنصاف في مشاجرة (تحقيق) ٨٨٩
السبر الجمالي في كتاب «تحفة الأدب» ٧٥
السياق المشكل في القرآن الكريم ١٣٩
العدد ودلالاته في التراث الشعري القديم ٥١
عرار: الناقد الشاعر ١٠١١
العربية هوية ونسب ٣٤٩
العربية والعولمة اللغوية ٩٤٧
عيوب التّصحيح اللغويّ في العصر الحديث ٧٠٣
الفاصلة القرآنية: طبيعتها الإيقاعية وأنواعها ٦٨٥
القلق في شعر تميم بن أبي بن مقبل ١٥١
كتاب «لمح الملح» ١٧٩
كتاب المثلثات: تحقيق ودراسة ٤٢٥
الكتب والمجلات المهداة في الربع الأول من عام ٢٠١٠ ٦٢٥
الكتب والمجلات المهداة في الربع الثاني من عام ٢٠١٠ ٩٣٧
الكتب والمجلات المهداة في الربع الثالث من عام ٢٠١٠ ١٢١٨
الكتب والمجلات المهداة في الربع الرابع من عام ٢٠٠٩ ٣٠٧
اللغة والهوية ٦٣٩
المؤثرات الفارسية في الأدب العربي ٩٣
مراجعة في الأعلام لخير الدين الزركلي ١١٦٧

مراجعة في كتاب الوافي بالوفيات ١١٤٩
مراحل ظهور المعجم العربي المختص ٥٠١
المستدرك على ديوان ابن الرومي ٣٨٧
معالم الجملة النحوية عند ابن السراج ٨٤٩
مفهوم التوعية ٨٨٥
مُلْقى السبيل لأبي العلاء المعرّي في المغرب ٥٢٥
المَلَكة اللسانية عند ابن خلدون ١٠٥٥
من أخبار تدمر ٧
مِن الصّوتِ إلى الصَّمت في شعرِ عمرَ بن أبي ربيعةَ ٧٤٩
من دلالات التاء المربوطة ١٧١
المنحى الاجتماعي في فائية ابن أبي السّعلاة ٣٧
مواقف إنسانية في الشعر الجاهلي ٧٢٥
ندوة الأدب الجغرافي في المغرب ٥٣١
ندوة إشكالية اللغة في المواقع الإلكترونية ١١٣٩
نظريّة النَّظْم وأثرها في الدّرس النحويّ ٦٦٣
هُدَى مهاةِ الكلَّتين وجلا ذات الحُلَّتينِ ٥٤٥
همزة «إنّ» بعد فعل القول ٨٨١
الهموم النفسية في شعر المعمَّرين ١٢٣